الكتاب الماسي
قصص عربية

تاريخ ما أهمله التاريخ

مصر مقبرة الفاتحين!

حبيب جاماتي

إهداء

إلى شعب وادي النيل، الأبي
الباسل الصابر، الذي حفر
قبور الغزاة المعاصرين، أسوة
بأجداده الأباة البواسل الصابرين
الذين حفروا على جوانب الوادي
المبارك، قبور الغزاة الأقدمين
أهدي هذه المجموعة من الأقاصيص
عن بطولات الأمس القريب والبعيد..

مصر ... حبيب جاماتي

عنوان هذا الكتاب

في اثناء العدوان الذي اقترفته ضد مصر ، في شتاء سنة ١٩٥٦ دولتان كبيرتان هما بريطانيا العظمى وفرنسا ، واشتركتا فيه دولة اليهود الدخيلة في فلسطين المحتلة ، خطب رئيس مصر جمال عبد الناصر في الشعب الذي هرع الى سلاحه فقال : « ان مصر كانت وسوف تظل مقبرة الغزاة الفاتحين » .

لم أجد أصلح من هذه العبارة الجامعة ، عنوانا للحلقة الثالثة من اقاصيص «تاريخ مااهمله التاريخ» ففي كل منهااشارة الى قبر من تلك القبور التي وارت فيها مصر أفواج الغزاة الفاتحين ، جماعات وافرادا ، بعد ان توغلوا في ارضها ، او تخطوا حدودها ، أو قبل أن يصلوا الى تلك الحدود ، فساقهم المصريون أمامهم اسرى اذلاء صاغرين .

نعم — مصر مقبرة الغزاة الفاتحين هكذا كانت وهكذا ستكون . .

الاستعمار بمختلف اشكاله والوانه وأسمائه ومظاهره ، قديما وحديثا ، لم يغير شيئا في هذا الوضع ، ولم ينل بشيء من هذه الحقيقة : مصر مقبرة الغزاة الفاتحين .

أرادها ابناؤها منذ فجر التاريخ ، بل قبل ان يبزغ للتاريخ فجر في هذا العالم ، أن تكون كذلك ، فكانت ، وظلت ، وسوف تظل كماأرادها ابناؤها أن تكون .

ولهذا ، فبعد المجموعة الاولى من « تاريخ ما اهمله التاريخ » التي صدرت بعنوان : « بطولات عربية » والمجموعة الثانية التي صدرت بعنوان « الناصر صلاح الدين » اقدم للقراء في هذه الصفحات الحلقة الثالثة من الاقاصيص التاريخية بعنوان : « مصر مقبرة الفاتحين ! »

القاهرة — مارس — آذار ١٩٦٢
شوال ١٣٨٦



وفدوا فوجا بعد فوج ...

وانتهى امرهم بجنازة بعد آخرى ..

الهكســـوس

أول من وفد على مصر من الاغراب كفاتحين ، هم « الرعاة » المعروفون باسم «هكسوس» . جاءوها جائعين ، سعيا وراء غـــذاء لهم ومرعى لمواشيهم ...

الرخاء يجلب الخير ، ويجلب الشر .. يؤدى الى الســـعادة ، ويسبب الشقاء .

رخاء مصر استهوى الهكسوس ، وخصبها حولهم من رعاة الى غزاة حطوا رحالهم فى الوجه البحرى وتملكوه واجلوا عنه اصحابه أو سخروهم لخدمتهم ، ودام حكمهم مائة وبضعة أعوام .

نشبت ضدهم اول ثورة وطنية على الاجنبى ، قادها الفراعنـــة أنفسهم سكنن رع ، خاميس ، احمس .

الاول والثانى حفرا قبر الهكسوس ، والثالث وارى فيه الغـزاة الفاتحين .

انتهت الثورة بانتصار الشعب المصرى على اعدائه ، فهرب منهم من هرب ، واختفت آثارهم فى صحراء سيناء ، ودفن منهم من دفن فى القبر الذى حفرته مصر لمن ينتهك حرمة اراضيها .

جرت تلك الجنازة الاولى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد .

أحباش وآشوريون

واسدل الستار على الجنازة الثانية بعد أكثر من تســـعة قرون ، وكانت جنازة مزدوجة ضمت فى قبر واحد الغزاة الاحباش والغـــزاة الاشوريين ، بعد أن حفر كل من الفريقين حفرة للفريق الآخر عـــلى مقاسه ...

وتعاون المصريون مع النوبيين ضـــد اللوبيين ، ولـــكن الأمر انتهى بالاغراب الى ان رحلوا عن البلاد أو طوى القبر منهم من طوى ، وتم لملوك مصر الوطنيين توحيد البلاد من البحر شمالا الى الشلالات جنوبا .

ولم يبق للاغراب اثر فى مصر وارتفعت فى أجوائها صلوات المصريين وحدها ، لآلهة المصريين دون سواها من الآلهة .

الفــــــرس

استراحت مصر فى ظل الحريات والسيادة التامة مدة من الزمن ، شاءت الاقدار واطماع الغزاة ان لا تكون طويلة .

فقد سال لعاب الفرس لرخاء مصر وخصبها وسخاء نيلها ، فعولوا على غزوها ، وفتحوها فى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

يقول هيرودوس ان «قمبيز» عاهل الفرس اراد ان ينتقم من مصر لجميع الذين سبقوه من ملوك البلدان الذين اخضعهم الفراعنة .

خيل للفاتح الفارسى ان الانتقام قد تم له ، وانه اخذ ثأره ، وان مصر التى اجتاحها بجيشه وبسط سلطانه على شعبها ، قد جثت على قدميها ، وعفرت جبينها بالتراب ، فلن تقوم لها بعد الكبوة قائمة .

غير أنه سحر بجمالها ، وعظمتها ، وتعاليم كهنتها ، واراد أن يخطب ود المصريين ويستميلهم اليه بدل أن يبطش بهم ويذلهم .

ولم تغر المصريين هذه الحيلة فثاروا على الفاتح ، واخمد قمبيز ثورتهم بالنار ، ثم انطلق فى طريق الغزو الى قرطجة غربا واثيوبيا جنوبا فدفن جيشه فى الرمال ، وكان القبر فى هذه المرة متحركا متنقلا مثل كثبان الرمال ، تعاون المصريون مع النوبيين فى اعداده للغزاة .

وفى عهد خلفاء قمبيز ، تعـــاون المصريون مع الاغريق واللوبيين فى القضاء على الحكم الفارسى بمصر ، وتتابعت الثورات متلاحقة وان كانت متفاوتة فى العنف والنتائج الى أن انهارت الدولة الفارسية بكاملها فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد .

ولكن القبر فى هذه المرة لم يحفر بأيد مصرية بل حفره الاسـكندر الفاتح المقدونى العظيم ، الذى قهر الفرس وهدم دولتهم واخذ منهم مصر . وحل فاتح محل فاتح .

المقدونيـــــون

قابل المصريون الاسكندر كصديق ، ورأوا فيه الاداة التى اعدتهـا الآلهة لانقاذ مصر من حكم الفرس القاسى وارهابهم .

مات الاسكندر فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ، والاعتقاد الســـائد ان جثمانه نقل الى مصر ، وانه دفن فيها .

فمصر كانت مقبرة هذا الفاتح أيضا ، ولكنها مقبرة ذهبية معطرة مغطاة بالرياحين ، لان الاسكندر كان فاتحا رحيما ، جاء يطرد فاتحـا ظالمـــا . . .

ولما اقتسم قواده ذلك الملك الشاسع الذى اقامه باسنة الرماح وبحد السيوف ، كانت مصر من نصيب بطليموس ، الذى انشأ فيهـا عرشا ، واحـل دولة ـ مصرية اغريقية ـ محل دولة الفـراعنـة المصـرية .

دامت هذه الدولة ثلاثة قرون ، اندمج فى خلالها الفـاتحون بأهل البلاد وتقربوا منهم ، وعبدوا آلهتهم ، وانشأوا معهم لغة مزدوجة وعمل الفريقان معا لخير مصر التى اتخذها البطالسة ومواطنوهم ـ وطنا ـ ثانيا لهم ، لامستعمرة يستثمرون خيراتها ..

وكانت مصر مقبرة لهؤلاء البطالسة المقدونيين ايضا ، ولكنهـا ـ مثل مقبرة الاسكندر ـ مذهبة معطرة مغطاة بالرياحين .

والمدة التى انقضت منذ دخول الاسكندر مصر الى وفاة كليوباترة آخر من جلس على عرش البطالسة ، اى من ٣٣١ الى ٣٠ قبل الميلاد تلك المدة لم يسجلها المصريون فى تاريخهم ، بانها حقبة عبودية لأمـة غريبة ، بل سجلوها كحقبة انتقل فيهـا عرش مصر من أسرة مالـكة مصرية عريقة الى اسرة مالكة غريبة تمصرت و « تبلدت » .

وعلى هذا الاعتبـار كانت مصـر مقبرة تلك الاسرة !

الـرومان

ذهب عهد التعاون والتعايش بين المصريين والاغريق ، واعقبـه حكم الرومان المباشر ، فتحولت مصر الى اقليم من ممتلكات الامبراطورية الرومانية ، وحلت القوانين الرومانية محل القوانين المصرية ..

وغزا الدين الرومانى ، الدين المصرى !

كان الفتح الجـديد سياسيا ودينيا فى آن واحد .

ولكن ما مرت سنوات على وقوع مصر تحت الحكم الرومانى ، حتى بدا فيها غزو من نوع جديد ، غزو الدين المسيحى الذى حمله رسـل عزل من السلاح ، من ارض فلسطين المجاورة ، للوثنية التى كـان الرومان يدينون بها ، وللآلهة الذين فرضوا على المصريين ان يعبدوها

هـذا الدين الجديد غزا الامبـراطورية نفسها فى القـرن الرابع للميلاد .

وانتقل الحكم من ـ روما ـ الى ـ بيزنطة ـ او ـ القسطنطينية ـ .

الـــــروم

بهذا الانتقال ، انقلب الوضع فى مصر ، وبدا فيها عهد جـديد ، هو حكم « الروم » كما كان الناس يسمون اصحاب بيزنطة ورعاياهم

كانت مصر مقبرة الاستعمار الرومانى الغربى ، ومقبرة الوثنيـــة الرومانية ، وحاول الروم ان يعيدوا اليها عهد الاغريق البطـــالسـة بالعودة الى الاساليب التى اتبعها اولئك الملوك الذين ورثوا الاسكندر

ولكنـهم لم يفلحـــــــوا ..

كان العامل الدينى ، الناتج عن المنازعات المذهبية بين المصريين والروم ــ وكلهم من اتباع الدين الجديد ــ دافعا الى خلافات امتـزج فيها الدين بالســـــياسة .

وكان ذلك مما مهد الطريق لفاتح اخر ، جاء من الشرق ، وجاء بسياسة جديدة ، وبدين جديد ، فوحد الاقاليم المصرية ، وانشأ منهـا دولة جديدة على انقاض الدولة القديمة .

العـــــــرب

الفاتح الجديد جاء من جزيرة العـرب ، وكـان ذلك فى ســـنة ٦٤١ للميلاد .

نجح العرب نجاحا كاملا شاملا ، ولم ينجح الاغريق الا نجـــاحا محدودا فى عهد البطالسة ، وعهد الروم

كانت مصر ذات وجهين ، ولما جاء العرب ، تقاربت ملامحهـــا وامتزج الوجهان ، واتخذت مصر طابعها العربى الخاص ، فان الفتـح العربى صب مصر فى بوتقته وجعـل منها وطنا للقادمين والمقيمين على الســـــواء ..

بفضـــل هذا الفتح العربى الذى حولها الى دولة قوية واصلت مصر أداء رسالتها ، وظلت تتحول الى مقبرة لكل من وطىء أرضهابقدمه من الفاتحين الذين جاءوابعد العرب ..

ســـلسلة مقـــابر

حاول الصليبيون ان يتملكوها مرة بعد مرة ففشلوا .

أربع مرات دخلها الملك « اموری » فى اواخر القرن الثانى عشر ، واربع مـــرات ارتد عنها خائبـــا ، تاركا فى المقبـــرة زهـــرة فرسانه ! ..



أبو الهول
ينظر صامتا ، ويبتسم ساخرا ، بينما
مواكب الفاتحين تجيء ، وترحل ، أو تدفن بين الرمال

وفى يونيو سنة ١٢٤٩ للميـــلاد ـ اى فى سنة ٦٤٧ هجرية ، نزل لويس التاسع ملك فرنسا فى دمياط ،وفى اقل من سنة ، كان قـــد انتصر ، ثم انهزم ، ثم أسر ودفع ذووه الفدية ورحلت فلول جيشـــه من حيث اتت

ودهمها المغول والتتار فدفنوا فى أرضها او ارتدوا عنهـــا خائبين مثل غيرهم !

تكالب عليها الفرنسيون والانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر ، ونزلت فيها حملة فرنسية بقيادة نابليون برنابرت ، فكانت مصر مقبرة لتلك الحملة ..

وحفرت مصر للانجليز بعد ذلك مقبرة ضاعت فيها ســـمعتهم فى سنة ١٨٠٧ ، يوم ارادوا غزو مصر بطريق الاسكندرية ورشـــيد

وفى خلال القرون التى حكم فيها العثمانيون مصر ، بعد فتحها فى القرن السادس عشر ، حفرت لهم فيها المقابر جيلا بعد جيل ، وشيد الاســـتقلال المصرى فوق تلك المقـــابر المتتابعة ..

عين الله الحـــارسة

بلاد حباها الله من نعمه ما جعلها هدفا للطامعين، وشعب يريد ان يحيا لانه يحب الحياة ويمقت الموت ، فكان حبه ومقته امضى ســـلاح للفتك بكل من اتخـــذ الغـــزو والفتح حرفة يحترفها .

نيل مبارك يغدق الخيرات فيثير حسد المحرومين .. وقنـــاة للملاحة اصبحت شريان الحياة بين الشرق والغرب ، فاراد الاستعمار أن يجعل منها اداة لخنق مصر وسلب حرياتها

لكن عين الله الساهرة على مصر ، حرستها بالامس ، وتحرســها اليـــوم ، وسوف تحرسها فى الغد من الطمع والفتح ، والاستعمار

وامام تمثال أبى الهول ، وانظاره الصامتة ، وابتسامته الساخرة، جاءت مواكب الفاتحين ، ثم رحلت ، او دفنت بين الرمال !

كانت مصر مقبرة للفاتحين

وتوالت فيها الجنازات واحدة بعد أخرى ، حول المقبرة ، التى ضمت جبـــابرة وضمت اقزاما ..

كانت الجنـــازة دائما حاميـــة

ولكن الميت لم يـــكن دائما اكثر من كلب تسلل الى عقر الدار في غفلة من الزمن ، ونبح ، ثم القم حجرا فسكت

ومصر سائرةفى طريقها ، تحفر المقبرة لكل راغب فى ان يتوارى فى طيـــاتها .

وقد يكون اسدا ، وقد يكون كلبا ، هذا لايهم !





ان لم تساهم المرأة فى القتــال
من اجل الوطن ، فلا اقــل من ان
تحرض رجلها على القتال !

الليل هادىء ساكن . والبدر الكامل يضفى ضوءه المائل الى الزرقة على مدينة « طيبة » القابعة فى وسط ذلك الهدوء والسكون على ضفة النيل المبارك . ومياه النهر تنساب بين الرمال والصخور ، شأنها اليوم كشأنها منذ آلاف السنين ومئات القرون وكشأنها فى الغد خلال مئات اخرى من الاجيال والقرون ، تروى الارض وسكانها لا فرق عندها بين عهد وعهد ، ولا يختل وفاؤها على كر الدهور ، سواء اكانت مصر ترتع فى نعيم الحرية ، او تئن من جور الحكم الاجنبى البغيض .

ذلك لان النيل لا يقصر نحو مصر وان قصرت مصر نحو نفسها ولا يعمد الى الامعان فى الارهاق بينما الغريب الغاصب يحط باثقاله على كواهل المصريين . فالنهر الوفى الامين يواصل اغداق خيراته على مصر لانها منحة منه لاهلها ، وهو يعلم انه الشريان الذى تستمد منه الحياة ، وانها ـ مهما تكن وطأة الويلات والكوارث ـ سوف تنفض عن نفسها غبار الخمول والاستكانة ، وتنهض من كبوتها فى يوم من الايام ..

فى ذلك الوقت ، وفى تلك الليلة بالذات ، كانت مصر تتألم وتتوجع ! فقد انكمشت الدولة التى كانت بالامس رحبة الجوانب مترامية الاطراف ، وتفككت أوصال الامة التى كانت من قبل متماسكة متراصة متآخية ، وافل النجم الذى طالما تلألأ فى فضاء المجد والعزة والاباء ، واصبحت مصر دولة لايحكمها ابناؤها ، وامة لايقودها الخلصاء من زعمائها .. فقد غمرتها موجة الفتح ، وتدفقت عليها قبائل الرعاة الهكسوس من الشرق ، وحل أولئك الفرسان من البدو محل ابناء البلاد ، فجلس منهم ملوك على عرش مصر ، واستقرت منهم اسر فى بيوت مصر ، واستأثرت ايديهم بخيرات الارض فى مصر ، وانتشرت قطعان ماشيتهم فى مراعى مصر . وأصبح السكان تابعين لهم فى المدن والحقول على السواء .. واما الذين أبت نفوسهم الخضوع والخنوع فقد نزحوا عن ديارهم ومزارعهم واستقروا فى اقصى الجنوب ، حول مدينة « طيبة » العريقة فى القدم ، حيث لجأت فلول الاسر المالكة ، والعائلات الكريمة ، والجيش المهزوم ، والفلاحين الذين فقدوا كل شىء ما عدا الامل فى مستقبل افضل من الحاضر .

***

هذا ما فكر فيه العاشقان ـ « سكنن رع » و « عاحوتب » ـ وهما يستنشقان النسيم العليل على ضفاف النيل ، فى ذلك الليل الهادىء الساكن ، وفى ضوء البدرالكامل المائل الى الزرقة ، فى «طيبة» عاصمة مصر الحزينة الجريحة .

قالت « عاحوتب » وهى تتكىء على ذراع رفيقها فى تلك النزهة الخلوية :

ـ اننى متعبة الليلة ايها الحبيب .. متعبة الجسم ، متعبة الذهن ، منقبضة الصدر . وبالرغم من اواصر الحب التى تجمع بين قلبينا ، فقد بدات اشعر واعتقد ان هذه الحياة لا تستحق ان نحياها نعم ، لقد سئمتها !..

فضم « سكنن رع » رفيقته الى صدره ، وسألها بلهجة افرغ فيها حنان الزوج والاخ :

ـ ما سبب هذا الحزن وهذا الضجر يا حبيبتى ؟ .. هل ينقصك شىء فى هذه الحياة التى تشكين منها ؟ ..

ـ كلا ... لا ينقصنى شىء .. فانت فى آن واحد اخى وزوجى ، تحبنى واحبك ، وتغدق على النعم بلا حساب .. لا لا ، لا ينقصنى شىء .. ولكن مصر بلادنا ينقصها كل شىء .. ومن اجلها انا متعبة وانا حزينة ، وانا منقبضة الصدر .

ـ صدقت أيتها الحبيبة .. فمصر رازحة تحت نير الحكم الأجنبى ... ولكننا لسنا مسئولين عن هذه الكارثة وحدنا دون سوانا ..

ـ ولكنك انت وحدك القادر الآن على ارسال الصيحة الاولى ، لكى تجعل مصر تصحو من غفوة اخشى ان تتحول مع الزمن الى سبات عميق !.. وانا الليلة عازمة على الافضاء اليك بأمر قد يرضيك وقد يغضبك ، لا ادرى ! ولكنه على كل حال سيرغمك على الخروج من عزلتك ، والاقدام على ما تتردد فى الاقدام عليه منذ شهور . وستفعل نساء مصر الليلة ما انا فاعلته ، وتفضى كل منهن الى زوجها بما انا مفضية به اليك .. وغدا عندما يطلع النهار على مصر ، سوف يجد الرجال انفسهم امام احد امرين لا ثالث لهما .

ـ وما هما الامران يا عاحوتب ؟

ـ لا .. لن ابوح لك بالسر هنا ، بل فى مخدعنا ، الليلة بين اربعة جدران ، وبعد ان اثبت لك اننى مازلت بالنسبة اليك الأخت المحبة ، والزوجة العاشقة

ـ لنعد اذن الى قصرنا ، ولنسرع الى مخدعنا ، فان بي شوقا عظيما الى معرفة ذلك السر الرهيب !

وضحك « سكنن رع » .. ولكن « عاحوتب » لم تضحك ، بل قطبت جبينها ، واتكات مرة اخرى على ذراع زوجها وعادت معه ادراجها الى القصر الرابض على حافة النهر ..

كان « سكنن رع » واحـــدا من عشرات الامراء والقــواد المصريين الذين قبعوا فى « طيبة » ، ورضوا بفتات العيش بعد رغده ، وخضعوا للامر الواقع ، وتركوا مصر نهبة للهكسوس ، واكتفوا برقعـة ضيقة من الارض حول « طيبة » فاقاموا فيها شبه دولة ، أو عـلى الاصح دويلات صغيرة لا تتجاوز مساحة كل منها مرمى البصر ، وكانوا كثيرا ما يتباحثون فيما بينهم ، ويتناقشون فيما آلت اليه بلادهم ، ولـكن حماستهم لم تكن لتتعدى حدود الكلام وتبادل الاراء ، فلا تنتقل من حيز القول الى حيز العمل ، وان عملوا فانهم لا يواصلون العمل بل يقعدهم القنوط دون السير فيه .

***

وكان « سكنن رع » أوفر أولئك الامراء والقواد جاها ومـالا ، وأبعدهم نفوذا ، واحبهم الى قلوب الشعب ، واجدرهم للنهوض بعبء الثورة على الاجنبى المغتصب ، وجمع الكلمة حوله ، والسير بامته الى مصير جديد .. ولكنه كان مترددا ، كثير الشكوك ، مفتقرا الى الثقة بالنفس ، التى لابد منها لدفع القائد الى الاقدام على المخاطر واقتحام السبل الى النصر ، وذلك بالرغم من أن الامراء والقواد جميعا كانوا يعترفون له بالمكانة الاولى ، ويقرونه على زعامته بل ويعدونه بمثـابة فرعون الجالس على العرش ، وان كان العرش متمايلا مفكك الجوانب فان اسرته تمت حسبا ونسبا الى الاسرة المالكة السابقة ، وآباءه حملوا لقب « فرعون » وكان هو نفسه يعرف بين اقطاب المملكة الصغيرة باسم « سكنن رع » الثالث ، وابنه « أحمس » الصغير يعرف بين أطفـال طيبة بانه « ولى عهد » أبيه ووارث عرش مصر السفلى من بعده !

أما « عاحوتب » الجميلة الفاتنة ، فهى أخته وزوجته وتلك كانت عادة الفراعنة منذ اقدم العصور : يتزوج الاخ اخته ، واذا مات اتخذها اخوها الآخر ـ واخوه أيضا ـ زوجة له !

وكانت « عاحوتب » امرأة مقدامة جريئة ، تضع اقدامها وجراتها فى خدمة هدفين علقت النفس بهما ، أحدهما يتعلق بشخصها ، والاخر يتعلق بوطنها ، فهى تريد ان تكون مصر حرة مستقلة ، مطهرة من كل رجس اجنبى ، لكى تتبوأ بجانب زوجها عرشا يضم بين دفتيه شمال

مصر وجنوبها .. تريد لشعبها الحرية ، وتريد لنفسها الملك على شعب حر !..

لهذا راحت توغر صدر زوجها « سكنن رع » على الهكسوس الغاصبين ، وتثير فى صدره الحماسة وتبعث فيه الثقة ، وتستنهض همته الفاترة ليعلن الثورة على ملوك الرعاة وأقوامهم واتباعهم وصنائعهم من أهل البلاد ، ويزحف على رأس الثائرين نحو الشمال ، ويسترجع البلاد لأهلها ، أو يموت فى هذا السبيل وتموت هى بجانبه ! ولما اعيتها الحيلة ، وعجزت عن اقناع زوجها بالاضطلاع بذلك العمل العظيم ، بحجة أن الجيش الذى لديه ضعيف قليل العدد ، وأن الشعب غير ناضج للثورة ، عمدت الى وسيلة للاقناع لم تخطر لاحد فى بال ،لامن قبل ولا من بعد ، وهى موضوع السر الذى عادت بزوجها الى القصر للافضاء به اليه فى مخدع النوم وبين أربعة جدران !

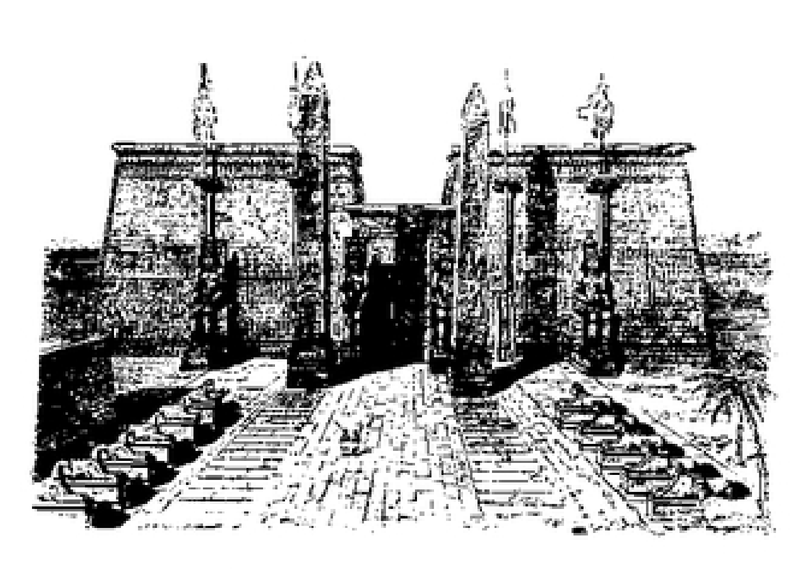
***

طلع النهار « وعاحوتب » بين أحضان زوجها « سكنن رع » ، تداعبه حينا ، وتنطلق معه حينا آخر الى منضدة تتوسط الحجرة ، لالقاء نظرة على اللوحات المبعثرة عليها والتى غطيت صفحاتها بالارقام والرسوم والأحاجى الهيروغليفية .. واخيرا قالت الزوجة لزوجها :

ــ حبيبى ، الآن وقد ارتشفنا كأس الغرام مترعة ، واثبت لك أننى مازلت اليوم كما كنت بالامس العاشقة المتيمة الولهانة ، فاننى أطبع على شفتيك قبلات حارة يجب أن تعلم انها قبلات الوداع !

وانتفض « سكنن رع » لسماعه هذه العبارة ، واراد أن يتكلم ولكن « عاحوتب » وضعت يدها الناعمة على فمه واستطردت تقول :

ــ لا تتكلم ، ولا تعترض ، ولا تستفسر عن شيء قبل أن أنتهى من الافضاء اليك بالسر الذى من أجله عدنا الى هنا .نعم أن هذهالقبلات ستكون الأخيرة .. ولكن الى حين ، ففى مقدورك أنت وحدك أن تستأنف تبادلها فى يوم من الايام .. أن كل امرأة مصرية فى هذه الليلة تقول لزوجها ما أقوله لك ، وتطلعه على سرها كما أطلعك ، وتوجه اليه الانذار الذى أوجهه اليك .. فاسمع يا سكنن رع ،ياأمير امراء مصر ، ووارث عرش الفراعنة : لقد اجتمعنا سرا نحن نساء عظماء المملكة ، واتخذنا قرارا بالاجماع لن تحيد عن تنفيذهواحدةمنا .. اننا نعلن منذ صباح هذا اليوم الذى يطلع فجره فى هذه اللحظة، اننا نقاطع رجالنا فلا نقترب منهم بعد الآن ولا نمارس معهم فرائض



من « طيبة » وهى اليوم « الاقصر » زحف المصريون
شمالا لتحرير وطنهم من الغزاة الهكسوس ..

الزوجية ولا نقبل منهم هدية أو عطاء ، ولا نخرج معهم فى نزهة ولا نرافقهم فى سفر ، ولا نؤم الهياكل بصحبتهم ، ولا نرضى بالاحتفاظ بالحلي وأدوات الزينة التى قدموها الينا بعد الزواج ولا نتجمل ولا نتبرج ، الا بعد أن ينطلق ازواجنا الى ميادين الحرب ، ليقاتلوا الاجانب الغاصبين ، ويجلوهم عن أرض الوطن ، ويعيدوا الى مصر كيانها ، وحريتها ، ومجدها ، وسيادتها ! واذا ادعى الرجال أنهم قليلو العدد، قلنا تنضم اليهم لنقاتل فى الميادين مثلهم .. واذا قالوا انهم يفتقرون الى مال فجواهرنا وحلينا تحت تصرفهم .. واذا تعللوا بخوفهم من بطش الهكسوس بالبقية الباقية من شعب مصر ، فجوابنا عليهم انه خير لنا أن نفنى دفعة واحدة فى ساحة الشرف ، من أن نفنى رويدا رويدا فى بؤرة الذل والخمول ! هذا ما قررناه .. هذا يا سكنن رع هو السر الذى عولت نساء مصر الليلة على الافضاء به الى أزواجهن ، وهذا هو الامر الرهيب الذى عقدنا جميعا النية عليه .. فالوداع يا حبيبى .. اننى لن اطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن اقابلك بابتسامة ، الا اذا كانت القبلة قبلة تهنئة بالنصر ، والابتسامة ابتسامة فرح بالحرية الغالية !

وفى تلك اللحظة ، بينما الفجر يكشف عن ثغره ، كانت كل امرأة فى طيبة تودع زوجها مرددة تلك العبارة ذاتها : « لن اطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن اقابلك بابتسامة الا اذا كانت القبلة قبلة تهنئة بالنصر ، والابتسامة ابتسامة فرح بالحرية الغالية ! »

وما كاد الاله « رع » يغدق على أرض مصر اشعته المنعشة، وما كاد ذلك النهار المشهود ينتصف حتى كان « سكنن رع » الثالث قد أعلن الثورة على الغاصب المحتل وتبعه أمراء « طيبة » فشقوا عصا الطاعة على الهكسوس وهب الشعب بأسره من رقدته ، وهرع كل مصرى الى سلاحه أيا كان ، ملبيا نداء الوطن وصائحا صيحته ، فى سبيل الحرية الغالية !

***

زحف المصريون من « طيبة » الى الشمال ، وداهموا مواقع الهكسوس ومعاقلهم وحصونهم المنعزلة فاستولوا عليها واحدا بعد واحد . ثم اصطدموا بحاميات المدن ففتكوا بها واحدة بعد واحدة . ولكن الهكسوس ، الذين فوجئوا فى بادىء الامر بهذه الثورة التي لم يحسبوا لها حسابا ، جمعوا جموعهم ، وسيروا جيوشهم لملاقاة الثائرين

وتضاعفت همة المصريين بمضاعفة الخطر ، وايقنوا ان التراجع معناه الهلاك ، وان فى هلاكهم فشل الثورة ، وفى فشل الثورة فناء مصر !

والتف الشعب بجميع طبقاته حول سكنن رع الثالث ونودي به فرعونا على مصر بشقيها الجنوبي والشمالي ، تيمنا بالنصر القريب واستعجالا له . وخضع الامراء والقواد جميعا لزعيم الثورة ، اعترافا منهم بمكانته وفضله ، واقرارا بأن جده « سكنن رع » الاول كان أسبق الامراء الى مناصبة الهكسوس العداء وان « سكنن رع » الثاني نسج على منواله ، ثم جاء الثالث فأعلن التحرير واستحق ان يتبوأ العرش بدون ان ينازعه فيه منازع .

كان اسلاف « سكنن رع » الثالث يقاومون فى الجنوب ويشتبكون احيانا فى مناوشات مع الهكسوس على طول مجرى النيل ، ولكن « سكنن رع » الثالث كان أول « فرعون » من الاسرة السابعة عشرة خاض ضد الرعاة حربا حقيقية هى فى الواقع أولى مراحل حرب التحرير فى مصر . وقد دفع امامه قبائل الهكسوس واجلاهم شيئا فشيئا عن مدن الوجه القبلى ، ومدن مصر الوسطى ، والمزارع والحقول الممتدة على ضفتى النهر ، واقام حاميات مصرية محل الحاميات الاجنبية ، وأعاد الفلاحين الى ارضهم ، وشيد الهياكل لآلهة مصر وسلمها للكهنة الذين جاء بهم من طيبة ، واستغرقت تلك المرحلة من الحرب بضعة اعوام حالف النصر فيها أعلام فرعون ، وعادت فيها الى نفوس المصريين ثقتهم بانفسهم ، وايقنوا ان الجلاء التام آت لاريب فيه ، وان مصر ستتمتع فى الغد القريب كما تمتعت فى الامس البعيد بحريتها الكاملة ، واستقلالها التام ، وسيادتها المطلقة .

وبعد نشوب الثورة ، واحراز الثائرين انتصاراتهم الاولى وتراجع الغزاة الأغراب خطوة بعد خطوة الى الوراء ، رات نساء مصر أنهن قد أصبحن فى حل من القسم الذى قطعنه على انفسهن وان رجالهن قد نفذوا الشروط التى فرضنها عليهم للعودة الى الحياة الزوجية ، والعدول عن المقاطعة العجيبة التى قررن تطبيقها بايعاز من « عاحوتب » ، زوجة فرعون قائد الثورة !

وكانت « عاحوتب » أسبقهن الى الدعوة بوجوب استئناف العلاقات مع الازواج ، ما داموا قد ثاروا لمصر وعقدوا العزم على تحريرها من النير الثقيل ، فزينت النحور والمعاصم من جديد بالحلى والجواهر ، وسكر المصريون من جديد ايضا بنشوة الغرام بعد ان سكروا بنشوة النصر !

ووصلت طلائع جيش الثورة الى منطقة « اواريس » وهى « الهوارة » الواقعة فى شرق الدلتا ، حيث كان الهكسوس قد اعدوا قاعدة حكمهم ، ومقر سلطانهم ، ومستودع كنوزهم .. فدارت بين

الفريقين معركة رهيبة أوشك الثائرون أن يحرزوا فيها النصر النهائي، لو لم تحدث مفاجآت غيرت مجرى القتال وأجلت النصر الى حين ..

فقد أصيب فرعون « سكنن رع » بضربة فأس فى راسه وبعشرات السهام التى أستقرت فى جسمه ، وهو فى طليعة جيشه يخوض غمار القتال غير هياب ولا وجل . فتضعضع الجيش بفقد قائده ، وارتد المصريون حاملين معهم فرعون الجريح الى حيث امنوه وامنوا انفسهم من الخطر .

وودع « سكنن رع » هذه الحياة الفانية الى حياة الخلد ، قرير العين بما صنع من أجل وطنه ، واثقا من أن إبنه الذى سيخلفه على العرش ، سيواصل القتال الى أن يتم له تحرير الوادى من أقصى جنوبه الى أقصى شماله .

وبموت « سكنن رع » الثالث ، انتهى عهد الاسرة السابعة عشرة، وتبوات الاسرة الثامنة عشرة العرش ، بارتقاء ابنه « احمس الاول » فى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد وهو الذى تم فى الواقع على يده طرد الهكسوس من مصر ..

***

اذا زرت المتحف المصرى بالقاهرة ، فعرج على القاعة التى رصت فيها جنبا الى جنب تلك الاجساد البالية الباقية فى آن معا ، أجساد الفراعنة المكفنين . فانك ستجد بينها مومياء « سكنن رع » الثالث، وتتبين فى راسه أثر الجرح العميق الذى اصيب به فى آخر معركة خاض غمارها بضربة فأس هكسوسى .

ثم عرج على القاعة التى تكدست فيها الجواهر والحلى فانك ستجد فيها مجموعة من ابدع وأدق ما صنعته يد الانسان من هذا القبيل : تلك هى المجموعة المعروفة باسم « عاحوتب » ، أخت « سكنن رع » ، وزوجته صاحبة الفضل الاول فى دفع فرعون والشعب الى الثورة ، والتى قدر لها ان تعيش طويلا لكى تشاهد رحيل الغزاة نهائيا عن ارض وطنها .

الثورة الأولى

جاءوا سعيا وراء الرزق ، ولما شبعوا تحولوا الى غزاة ، فثارت مصر وطردتهم من أرضها . فكان طردهم صفحة من صحائف المجد فى تاريخ مصر !..

دام حكمهم مائة سنة وبضع سنوات ، حاولوا خلالها بجميع الوسائل والاساليب ، العنيف منها والمسالم ، الصريح والملتوى ، ان يخطبوا ود السكان المصريين ويكتسبوا حبهم ويخاطبوا قلبهم بلغة يلين لها القلب ويقابلها بمثلها ..

حاولوا ، ولكنهم لم ينجحوا ، فباءت محاولتهم بالفشل ، وانتهى الامر بأن خرجوا من مصر وتركوها لاهلها يتصرفون فى شئونها كما يريدون .

الصق بهم المؤرخون اسم « هكسوس » والواقع انهم عرفوا ببضعة اسماء ، كل منها اغرب من الآخر ..

كانوا يسمون انفسهم « ميناتيو » ومعناها ــ الرعاة ــ وسماهم جيرانهم بسبب انصرافهم الى النهب (شاسو) ومعناها ــ اللصوص ــ او ــ البــــدو ــ ..

ولما اسسوا ملكهم فى مصر وانشأوا فيها عرشا سماهم المصريون « هيك خست » وهى الكلمة التى أصبحت « هكسوس » ومعناها « الملوك الاجانب »

تسرب الرعاة فى باديء الامر من الصحارى والقفار ، خلال سيناء الى ارض‌مصر ، حيث المراعى الشاسعة والتربة الخصبة والماء الجارى .

وجد الرعاة فى الارض الطيبة المباركة ، مايضمن لهم الغذاء ولمواشيهم المرعى فطمعوا فى البقاء ، ثم فكروا فى التوسع ، وتحولوا مع الوقت الى غزاة فاتحين .

جعلوا مقرهم ومركز ملكهم فى مدينة تانيس بالدلتاواسم هذا المكان اليوم « صان الحجر » وانشأوا معسكرا حصينا فى المكان المعروف بالهواره وهى اواريس القديمة ، وحشدوا جيشا بلغ عدده ربع مليون جندى . وكان غرضهم من ذلك صيانة الملك الذى انشأوه ومنع غيرهم من البدو الرحل او القبائل الضاربة فى شرق مصر ، من اجتياز البرزخ الفاصل بين البحرين ، والاندفاع خلال السهول المصرية الخصبة ..

بعد ان شبعوا ، ارادوا ان يمنعوا الجيـــاع الآخرين من ان يردوا موارد الرزق ، ويسلكوا طريق الغزو الـذى سلـكوه هم فيشبعوا مثلهم ..

استقر لهم الامر فى رقعة من الارض المصرية ، فارادوا ان يستقر لهم الامر ايضا فى نفوس المصريين وقلوبهم .

اخـذوا عاداتهم ، وتقاليـدهم ، وتزلفـوا اليهم بأن عبـدوا ربهم « شيت » اله الشر وسموه « شاتخو » وهو الذى اصبح فيمابعــد ولا يزال الان رمزا للروح الشريرة باسم « شيطان »

فعل الهكسوس كل مايمكن أن يفعله غالب لاسترضاء مغلوب ، ولكنهم اخفقوا فى كل ما فعلوه لهذا الفرض ..

كانوا فى نظـــر المصريين غزاة مغتصبـــين

كانوا الأغراب الذين سرقوا من الشعب ارضه ، وانتهكوا حرمة وطنه.

كانوا « المستعمرين » قبل ان يعرف الناس كلمة « استعمار » ويدخلوها على قاموس السياســة بعشرات الاجيـــال

واصبحوا ــ لهذا الاعتبار وحده ــ هدفا لكره الشعب المصـرى وحقده وتآمره .. ولجميع أنوع السهام التى كان بوســع هـذا الشعب ان يطلقها من جعبته ، على اولئك الاجانب القادمين من وراء البرزخ

البرزخ الذى فكر الفراعنة فيما بعد ، وفكر المماليك ، وفكـــر غيرهم ، فى شق قناة تخترقه من شماله الى جنوبه ..

كان ، وظل ، ولايزال الطريق الذى سلكه او يحاول أن يسلـــكه الغزاة والفاتحون والطامعون .

اول من سلكه الهكسوس الرعاة .. فى مجيئهم الى مصر ، وأول من طرد من خلاله ، الهكسوس ، فى رحيلهم عن مصر !

اصبح الوجه القبلى مقرا للملوك الوطنيين ومهدا للحركة التحررية التى دعوا اليها .

كان المصريون ، حتى ذلك الوقت ، يراقبون ملوكهم وامراءهــــم وحكامهم ، وينتقدونهم ، أو يثورون عليهم اذا مااخطأوا أو اخفقـــوا او تجبروا . لان الغريب لم يكن بعد قد حكم مصر .

ولما غزاها الرعاة الهكسوس ، تحول النقد ، وتحولت الثـــورة الى ناحيتهم ..

الشعب ، والحكام ، والملك الوطنى ، كلهم تفاهموا وتعـــــاونوا وتحالفوا على الاجنبى الغاصـــــــــب .

فكانت اول ثورة فى تاريخ مصر . ويالها من ثورة مشرفة رائعـــة فتحت فى تاريخ الشعب المصرى ، بل فى تاريخ شعوب الارض قاطبـــة منذ ذلك العهد البعيد بابا جديدا ولجته الشعوب الاخرى فيما بعـــد وسطرت فى سجل الشرف صفحة من نوع غير معروف ، عمـدت الامم الاخرى الى محاكاتها .

ســكنن رع ، خاميس ، احمس : هذه هى الاســماء الثلاثة التى فتح اصحابها ذلك الباب ، وسطروا تلك الصفحة ، بان قادوا الشعب فى عصيانه ثم فى ثورته لتحرير مصر من الهكسوس

والى هذه الاسماء الثلاثة ، يفرض العرفان بالجميل والاقـــرار بالفضل .. ان يضاف اسم رابع ، اسم امراة لعبت فى الثورة التحريرية دورا من الطراز الاول : تلك هى « عاحوتب » اخت فـرعون سكنن رع وزوجته فى آن واحد .

كانت عا حوتيب اول ملكة وقفت مع زوجها فى اول ثورة ضـــد « الاستعمار » فى اقدم عهد عرف فيه الاستعمار

مشى الرجال القادرون على حمل السلاح خلف فرعون الذى نادوا به زعيما للثـــورة وقائـدا لجيش التحـــرير

ومشت النسـاء القادرات على اداء اية خدمة للثائرين والمقاتلـــين خلف اخت فرعون وزوجته ، عاحوتيب لكى تسير بهن فى طريق الشرف والفـــــداء ..

تلك الثورة الاولى لم تكن من صنع الرجال فى مصر وحـــدهم بل كانت ايضـــا من صنع النســاء .

ولولا النساء لما توفر لفرعون قائد الثورة ان يصل بها الى مرحلة الفـــــــوز ...

فقد فتحت الملكة عاحوتيب خزائنها واغترفت من الصـــناديق التى كانت محفوظة فيها كل ما كانت تملكه من حلى وجواهر وحجـارة كريمة ، آلت اليها من الملوك والملكات ، او اهديت اليها من زوجهـــا او من رعاياها المخلصين .

ذلك « المصاغ » الذى تحافظ عليه كل ملكة . وكل امـــراة ، وتصونه بالمهجة والروح ، وتسعى دائما الى الاستزادة منه . عمـدت

عاحوتيب الى القائد عند قدمى زوجها ، قائلة بعبارة املتها عليهـــا وطنيتهــا الصـــادقة ، ولهجة استمدتها من وفائها لبلدها :

ــ « هذا من خير مصر ، فمن حقها على أن اضعه فى خدمتها لانقاذها من العــــــدو » .

اخذ فرعون « مصاغ » زوجته وضمن لنفسه نفقات الحرب التى فكر فى اثارتها على الهكسوس ، ونسجت نساء الامة على منـــــوال الملكة ، فتبرعن بحليهن وجواهرهن ، وتكدست لدى فرعون ثروة ضخمة هى كل ماتمتلكه النساء واضيف اليها ماجاد به الرجال عملا بنصيحـة النساء ونزولا على رغبتهن : ثروة الافراد كلها وضعت فى خدمة المجموع .. ثروة المصريين رصدت كلها لتحـــــرير مصـــــر .

اخذ ســكنن رع المــال الذى توفر له من تلك التبرعات العجيبة والأولى ايضا من نوعها فى التاريخ ، وراح ينفق بلا حساب لتسليـح شعبه ، وتقوية جيشه ، وتدعيم حصونه ، وتوسيع الدعاية ضـــــد خصمه ، وتدريب المتطوعين ، واعداد فرق الفدائيين واطـــــلاقهم فى الجهات التى يسيطر عليها الهكسوس ، لتمهيد السبيل للثورة فى داخل الدولة الغريبة ، واشاعة الذعر بين حاميات العـــدو .

ولما راى القائد الاعلى للشعب المتأهب للحرب ان الســاعة قد ازفت ، وان النصر أصبح مضـــمونا ، اطلق الثورة من عقالها ، ودعا المصريين كلهم ، الرجال والنساء وحتى الاطفال ، الى شق عصا الطاعة فى داخل دولة الرعاة بالوجه البحرى ومن اطراف الوادى فى جانبيه الشرقى والغـــــــــربى ..

وكانت الثورة المصرية الاولى على الغـــريب الغاصب ، وعـــلى الاجنبى المحتـــــــــل .

مات سكنن رع بعد ان حقق بعض اهداف الثــورة ، واحرز مــع الثائرين الذين قادهم بعض الانتصارات التى قوت عزائمهم وجعلتهم يثقون من الفـــوز النهائى لحركتهم المباركة .

وقاتلت النســاء ، وقمن بنصيبهن من الجهاد فى وسط المعـــارك وعلى هوامشها . وبعـــد أن جادت المراة المصرية بالمال ، جادت ايضا بالـــــــــروح ..

وتولى القيادة بعد موت فرعون سكنن رع ، ابنه خاميس، فأخذته امه عاحوتيب من يده ، وركعت معه على ركبتيها فى الهياكل واحدا بعد آخر ، ورددت معه الصلاة التى كانت قد وضعت كلماتها مع زوجهـــا الراحل يوم اعلن سكنن رع الثورة على الرعاة :

« مصر لآلهتها . ثم لشعبها .. فاذا خسر الشعب أرضه خسرت الآلهة موطنها فلتبارك الآلهة شعب مصر الثائر على من سلبه أرضه لكى يستعيدها من الغاصب فتستعيد بذلك آلهة مصر موطنها »

واصل خاميس القتال فى الميادين ، وشدد الهجوم على مواقع الهكسوس . ولكنه لم يحقق من الاهداف الباقية غير القليل ، لان عمره كان قصيرا ..

واخوه الذى خلفه ، احميس ، الابن الثانى لفرعون سكنن رع والملكة عاحوتب . هو الذى قدر له ان يحقق تلك الاهداف كاملة وان يقود الثورة فى مراحلها الاخيرة . نحو النصر الحاسم الساحق

سقطت حصون الهكسوس فى أيدى الثوار المصريين ، حصنا بعد حصن . وانهارت مقاومتهم أمام الجيش المصرى على طول حدود دولتهم ، فسدوا معاقلهم معقلا بعد آخر ، والقت حامياتهم السلاح ورضى جنودها بالأسر ، وذبح الذين رفضوا التسليم واعتقدوا ان المقاومة مجدية . واتسع نطاق الارض المصرية المحررة بنسبة انكماش الرقعة المحتلة .

وتجلت مواهب القائد الشاب ، فرعون احمس ، فى تلك الخطط البارعة التى رسمها ووضعها فى موضع التنفيذ

وكان الشعب فى الاقاليم المحررة يقابل منقذيه بالهتاف والتهليل ، ويهرع الى صفوف المقاتلين طالبا الانضمام اليهم والمساهمة فى تحرير البقية الباقية من ارض الوطن ، حيث جمع الهكسوس فلولهم واستعدوا للمعركة الاخيرة ...

سقطت تانيس فى قبضة أحمس ، وارتد الهكسوس الى معسكرهم الحصين : ضاعت عاصمة ملكهم ، فارادوا ان يحتفظوا على الاقل بالقلعة التى اعدوها لليوم العصيب : فى البرزخ المعهود .

ولم يتردد احمس فى مهاجمتهم بكل ما كان لديه من قوات ومعدات ...

وكان فرعون الشاب فى خلال الثورة قد انتهى من تنظيم كتائب الفرسان ، باستخدام « الحصان » ذلك الحيوان الجميل المفيد ، الذى كان المصريون يجهلونه ، والذى جاء به الرعاة معهم يوم غزوا مصر قادمين من وراء البرزخ خلال صحراء سيناء ..

كانت المعركة حامية حول المعسكر الحصين . ولكن الثورة كانت

من ناحيتهامندفعة اندفاعا لم يكن فى وسع القلاع ان توقف تياره ،وكانت الهزيمة قد فتت من عضد الرعاة فبداوا يفقدون الثقة فى انفسهم . . بنسبة ما كان يشعر به المصريون من حماسة متزايدة

وسقط المعسكر ، ولم يبق امام الرعاة الا ان يرحلوا عائدين من حيث اتوا ، بما يستطيعون سوقه امامهم من المواشى .

جاءوا قبل ذلك بأكثر من قرن ، وكانوا قبائل بدوية تنتقل من مرعى الى مرعى . وعادوا بعد ان فقدوا الملك الذى انشأوه فى مصر وهم قبائل بدوية تركت مراعى وادى النيل الخصبة ورجعت الىمراعى الصحراء المجدبة . .

تشاور احمس مع زعماء الشعب فيما يجب أن يصنعه المصريون بعد الهزيمة الماحقة ، فتم الراى على وجوب مطاردة الغاصبين الغازين للقضاء عليهم خارج حدود مصر ، بحيث لا تعاودهم الرغبة فى العودة على اعقابهم ومحاولة القيام بغزو مرة اخرى .

وفى ارض سورية ـ بالقرب من بلدة شاروحانه ، كانت المعركة الاخيرة . . .

معركة تشتت فيها شمل الرعاة نهائيا . فاختفى اسمهم من بين أسماء الشعوب فى الشرق الادنى ، واختلطت بقاياهم بالاقوام التى كانت تعيش فى المدن والقرى والبوادى . . بين نهر الاردن ونهر الفرات . .

كان ذلك فى سنة ١٥٨٠ قبل التاريخ الميلادى . . .

اول ثورة قامت بها مصر على الغريب الغاصب . . .

واول حركة وطنية فى التاريخ اشتركت فيها النساء مع الرجال جنبا الى جنب . .

واول حرب تحريرية قادها الجالس على العرش ضد شعب أجنبى . .

واول مرة نزلت فيها زوجة الملك الى ميدان الجهاد فى سبيل الوطن . .

وكان فرعون احمس ، القائد المحظوظ ، اول ملك اطلق عليه شعبه لقب « المنقذ » لانه طرد الاجنبى خارج بلاده ، وارغم جيوشه على الجلاء . . . .

الجلاء الذى تم فى نفس المكان الذى تم فيه ، بعد ٣٥٣٦ سـنة اى فى سنة ١٩٥٦ ، جلاء قوات غاصبة اخرى جاءت من الغرب لا من الشرق : قوات الانجليز الذين احتلوا مصر قادمين بطريق البـرزخ بعد ان شقت فيه «قناةالسويس » والذين خرجوا ، كماخرج الهكسوس بذلك الطريق ايضـا ..

ذهب هؤلاء ، وذهب اولئك ، وذهب الذين جاءوا غزاة فاتحين بين هؤلاء واولئك ..

وبقيت مصر الخالدة ، مقبرة الفاتحين ، تهزأ بهم . وتهزأ بالزمن !



امام نداء القلب ونداء الوطن ، لم يتردد فرعون : فقد آثر تلبية نداء الواجب الوطنى على تلبية نداء العاطفة نحو المرأة التى احبها !!

ترك احمس الاول مدعويه الكثيرين فى المكان الذى أعد فيه لهم مادبة فاخرة فراحوا يغنون ويرقصون ، وقصد كعادته الى الخلوة التى كان يأوى اليها فى قصره للتفكير فى مستقبل امته ووضع الخطط لانقاذ مصر من حكم « الرعاة » وطردهم الى ماوراء الحدود ..

كان الرجل قد عزم عزما صادقا على القيام بهجوم عام لاقصاء آخر عدو عن أرض وطنه ، فاعد العدة لذلك الهجوم الخطير ، ودعا قواد جيشه وحكام المقاطعات والاقاليم الى مأدبة فى حدائق القصر على ضفاف النيل المبارك . فلبوا الدعوة وأقسموا يمين الطاعة لفرعون والاخلاص للوطن ، وعاهدوه على الاستماتة فى الحرب الى ان تقضى الالهة بما تريد ..

ولكن واحدا منهم ، وهو عميد القواد وشيخ من شيوخ الحرب وبطل من أبطال الميادين ، وقف فى وسط ذلك الجمع المحتشد حول المائدة وصاح باعلى صوته :

ـ مولاى فرعون : لقد هرعنا اليك ووضعنا أنفسنا تحت تصرفك للقيام بواجب وطنى مقدس . وقطعنا كل صلة تربطنا باولئك الذين يرهقون بلادنا بالعسف ويستعبدوننا منذ مئة سنة ، فسر بنا الى مقاتلتهم ، ولكن فكر من جهتك فى قطع كل صلة تربطك بهم ، وانت تدرك ما اعنى ، وعليك سلام الآلهة ..

ششفقق

***

نعم ، ادرك فرعون ماكان ذلك القائد الشيخ يعنيه ، وفطن الى ان ما يطلب منه ليس آلا جزءا لايتجزأ من واجبه كملك ، وكمصرى

فاجاب قائلا :

ـ سيكون احمس ، ايها القائد المحنك والشيخ الحكيم ، عند حسن ظنكم به ، ولن يتوانى فى القيام بواجبه كاملا ، مهما يكن ذلك الواجب صعبا قاسيا مؤلما .

وبعد ان قال فرعون هذا ، خرج من المكان تاركا المدعوين فيه ياخذون نصيبهم من الفرح والمرح

ودخل خلوته وشفتاه ترددان اسما عذبا : « نور ! .. . نور ... ! »

هو اسم المراة التى كان احمس الاول يحبها وكانت تحبه ، والتى اشار القائد بوجوب قطع كل صلة بها ، لانها ابنة امير من امراء «الرعاة» اعداء مصر وغزاتها .

***

غزا الرعاة او الهكسوس ارض مصر ، وتدفقت عليها جموعهم من الشرق فى اواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد ، فانتشروا فى الوجه البحرى ، وتسربوا الى الوجه القبلى وشيدوا عاصمتهم فى جنوب بحيرة المنزلة ، وحكموا البلاد قرنا من الزمان او اكثر

واختلف المؤرخون فى وصف حكمهم ونوعه واسلوبه ، فقال بعضهم انهم كانوا متوحشين قساة القلوب ، وانهم استعبدوا الناس واسترقوا النساء والاطفال ، وخربوا المدن وظلموا العباد . وقال آخرون انهم لم يتعرضوا للسكان فى معيشتهم ودينهم ، بل حاولوا التقرب اليهم والامتزاج بهم وشيدوا المعابد لآلهة المصريين وتثقفوا بثقافتهم ..

غير أن الامر الذى لاشك فيه انهم كانوا اجانب ، وأن المصريين كانوا ينظرون اليهم نظرهم الى اجنبى غاصب دخل البلاد واحتلها بالقوة .

وعندما اشتدت سواعد المصريين ، واستعادت مصر قوتها السابقة ووحدتها الضائعة ، قام ابناء البلاد يناجزون أولئك الاغراب ويجاهدون فى سبيل اقصائهم عن ارضهم ووطنهم .

فالاجنبى الغاصب مكروه فى كل بلد يحل فيه ؛ ويفرض حكمه على اهله ، سواء أكان ذلك باساليب العنف والقسوة ، او بوسائل اللين والخداع والعطف الكاذب .

وحياة الامم سلسلة متواصلة الحلقات من الحروب والثورات فى سبيل الحرية العزيزة الغالية ..

وحياة الامة المصرية لم تشذ عن هذه القاعدة . فقد غزتها شعوب غريبة غير مرة فى التاريخ . وتالبت عليها جحافل الفاتحين وبسطت سلطانها على الوادى السعيد ، ولكنها اجليت عنه بعد كل غزوة ومحنة وعادت البلاد الى أصحابها ، وعاد النيل الى ابنائه ..

***

جلس احمس الاول على عرش مصر من حوالى سنة ١٥٨٠ الى حوالى سنة ١٥٥٧ ق.م. وعلى يده تم تحرير البلاد وانقاذها من النير الاجنبى .

كان اسلاف ذلك الملك الوطنى العظيم قد باشروا الحرب وشرعوا فى توحيد كلمة المصريين وجمع صفوفهم تحت راية الوطنية والقومية. فزحزحوا الهكسوس عن مواقعهم وزعزعوا مركزهم ، واضطروهم بعد حروب متواصلة دامية الى الاعتصام باقليم « جاسان » وما يجاوره من الاراضى الواقعة فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وهى التى تسمى اليوم مديرية « الشرقية »

وكان ملكهم منحصرا فى تلك البقعة من الارض المصرية عندما هبط يوسف الصديق وتبعه اخوته والاسرائيليون ، حسب رأى معظم المؤرخين .

نشب القتال بين المصريين والهكسوس ، وتخلله من الجانبين كر وفر ، وهجوم ودفاع ، وتقدم وتقهقر ، الى ان بزغت بجلوس احمس على العرش شمس عصر جديد ، عصر الحرية والاستقلال .

***

كان احمس شابا جميلا ، قوى العضلات مفتول الساعدين ، رابط الجاش ، واسع الآمال جريئا ، لاتخيفه الاهوال ولا تقف فى سبيله العقبات ..

وكان ذلك الشاب الجميل شاعرا يحب الجمال

هاجم بجيشه ذات يوم مدينة حصينة من مدن الهكسوس ، فاقتحم اسوارها ، وفتك بحاميتها ، وضمها الى ملكه ، وساق امامه الاسرى والسبايا الى قصره فى طيبة .

وما كان فرعون يدرى ان احدى الاسيرات اللواتى ساقهن امامه من تلك المدينة سوف توقعه فى اسرها ! ..

تلك الاسيرة هى « نور » ابنة القائد ـ طورس ـ الذى كان يحكم المدينة باسم ملك الرعاة ويتولى الدفاع عنها والمحافظة عليها ....

وقد خانه الحظ فوقع فى الاسر مع نسائه وابنته وصفوة أعوانه . ولكن الفتاة « نور » عرفت كيف ترسل سهام عينيها الى قلب فرعون وتحمله على معاملة أبيها ورفاقه بالحسنى ، ثم على اخلاء سبيلهم جميعا وتركهم يعودون احرارا الى ارض جاسان حيث اهلهم وعشيرتهم

احب فرعون الفتاة الغريبة حبا ملك عليه مشاعره ولبه ، ولم تكن الفتاة مخادعة مخاتلة بل احبته كما احبها ، وبادلته اخلاصا

باخلاص وامانة بامانة ، وعرضت عليه التوسط بينه وبين قومها ، وتمكنت بدهائها من تذليل صعاب كثيرة وعقبات جمة ، وخيل للهكسوس ان فرعون سوف يهادنهم بفضل تلك الحسناء ويتعاهد معهم على تقسيم مصر الى دولتين : دولة يحكمها الملوك المصريون ، واخرى يقيم فيها الرعاة خاضعين لملوكهم ..

وكان طورس ، والد الفتاة يتذمر احيانا ويصرح برغبته فى انقاذ ابنته من قصر فرعون ، ولكن رفاقه كانوا يهدئون روعه ويحملونه على العدول عن رغبته قائلين :

ـ انك تضمن سلامة قومك بمعونة تلك الفتاة التى تقيم فى قصر فرعون . فقد استولت على فؤاده ، ولن يهددنا خطر مادامت ـ نور ـ تعيش فى كنف احمس وتحتل قلبه

***

ولكن احمس كان قد دفع بالمصريين الى الامام كالسيل الجارف

فقد عزم فرعون على انقاذ وطنه من الحكم الاجنبى ، واقصاء الغاصبين عن مصر ، وهبت أمته هبة واحدة تشد ازره وتوافيه بالرجال والاموال والعتاد ، فلما حصر فلول الهكسوس فى شقة ضيقة على الحدود الاسيوية ، شعر بقدرته على طردهم من البلاد ، وعلى مطاردتهم خارج مصر الى الاقطار المجاورة .

وتنازعته رغبتان : رغبة القيام بواجبه الى النهاية ، وتحرير بلاده ومحو كل اثر للاجنبى فيها ، ورغبة ارضاء المراة التى احبها واحبته ، واخلص لها واخلصت له ، وشرب معها كاس الغرام مترعة ، واسمعته اعذب انغام الحب والهيام ، وارتشف من شفتيها فى الليالى المقمرة حلو الرضاب ..

كان صوت الوطن يهيب به فى النهار بألسنة القواد المتحمسين :

« هيا الى القتال فالسيوف متعطشة الى الدماء ، والنفوس تواقة الى النزال ، ومصر راغبة فى الحرية الكاملة والاستقلال التام »

وكان صوت الحب يهمس فى اذنه ، فى سكون الليل ، بلسان الحسناء الساحرة :

« دع عنك صليل البواتر ولمعان النصال وهدير الجيوش المتلاحمة وارفق بقوم لايلحقون بك اذى ولا يطلبون غير بقعة من الارض يقيمون فيها آمنين .. فمصر واسعة الأرجاء مترامية الأطراف .. وخير لك أن تكتسب صداقة عدوك من أن تثير عليك احقاده وضغائنه »



فرعون أحمس حرر الارض المصرية من الغزاة الهكسوس

وبين الصوتين ، وبين الرغبتين ، وبين الدافعين ، كان فرعـــون حائرا ، قلقا ، مضـــــــطربا ؟

***

عزم احمس على اتخاذ قرار حاسم ، واستشار امراء الدولـــه وقوادها واقطابها في الامر فدعاهم الى تلك المأدبة والتقى مثـــات منهم حول موائدها ، وكانوا جميعـــا على راى واحـد وعزيمة واحدة « الحـــــرب الحـــــرب !!! »

وكان ذلك المنظر الرائع ، منظر مصر بأسرها ممثـلة في قادتهـــا قد شجع فرعون على استئناف القتال ، والمضى في طريقه الى النهاية وقد وثق من النصر وثوقه من طلوع الشمس في كل صباح ،وغروبها في كل مساء . .

وارسل في طلب « نور » فوافته الى خلوته الهادئة حيث كان مباحا لها ذلك دون سواها من النساء . .

وكانت الفتاة قد فطنت الى الخطر الذى يهدد علاقتها بفرعون ومن ثم يهدد كيان قومها وبقاءهم في أرض مصر

دخلت على أحمس باسمة الثغر ، متشحة بثوب شفاف ، معطرة الجسم ، ذابلة العينين . فتلقاها فرعون بين ذراعيه ، وضمها الى صدره وطبع على فمها قبلة افرغ فيها كل ماكان يفيض بــــه قلبه من حب وغـــــرام . .

ثم دفعها عنه فجأة ، ونهض واقفا على قدميه ، وقال لهـــا بصوت لا أثر فيه للنبرات التى الفتهـا « نور » في صوته من قبل :

ـ نور ! هذه قبلة الوداع ياابنة طورس . فعلى فرعون بعد الان ان ينصرف بكليته الى تنفيذ ارادة مصر المستمدة من ارادة الالهـــة عودي الى اهلك فائت رة . . ولـكن قولى لابيك ان كل صـلة بيننـا قد انقطعت منذ الآن ، وأن السيف وحده يحكم بيننا . .

فاغرورقت عينا الفتاة بالدموع وقالت لحبيبها :

ـ ولكن اى ذنب اقترفت « نور » يأحمس ، واى ذنب اقترف اهلها . لكى تحكم عليهم بهذا المصير ؟ دعنى اطلعك على ما يعرضـــه عليك ابى باسمه وباسم مليكه وشعبه !

ـ ماذا يقترحون ؟

ـ انهم يدعونك الى الاجتماع بهم ، ومفاوضتهم فى امر الجلاء عن الارض التى ترغب فى امتلاكها ، والبقاء فى المنطقة التى تخط حدودها بنفسك . أترفض مقابلتهم يا احمس ؟

ـ نعم .. فمصر تأبى على ان افرط فى حقوقها وان اساوم على أرضها . ليس للرعاة ما يطالبون به هنا . وليس لاجنبى فى وداى النيل ان يطمع فى امتلاك ذرة من ضفتيه أو نقطة من مائه ! فاذهبى وقولى لقومك . « أرحلوا الى أرض لا صاحب لها ولا مالك يحتلها .. أما هذه الارض فان اصحابها يريدون العودة اليها واسترجاعها من غاصبيها ! »

ـ أهذه كلمتك الاخيرة ؟

ـ نعم : الجلاء عن مصر بلا مفاوضة ولا مساومة ولا جدال ولا ابطاء .. والا فالحرب التى لاتبقى ولا تذر ، ولتكن ارادة الالهة القاضية بيننا !

ـ وانا ؟ انا يافرعون ؟ أتطردنى من قصرك بعد ان كنت احتل فيه المكان الاول من بعدك ؟

ـ نعم .. اطردك منه يا « نور » وفؤادى يقطر دما والصدر يتمزق ! اطردك منه بالرغم من اننى أحببتك وما زلت احبك ! اطردك منه لان مصر تأمرنى بان اقطع كل صلة بالغرباء الذين أستعد لمهاجمتهم فى الارض المصرية التى يقيمون فيها ..

ـ واذا طلبت منك البقاء ؟

ـ لن أجيبك الى طلبك ، لان مصر أعز على منك ، ولان واجبى نحو بلادى اهم عندى من واجبى نحوك ، ولانه ينبغى للقائد يانور أن يصغى الى صوت الوطن ويصم اذنيه عن اى صوت عداه ايا كان مبعثه !

ـ انك تحتم اذا جلاء الهكسوس عن مصر .

ـ واحتم جلاءك انت ايضا عن قلب فرعون فالجلاء الاول يتطلب الجلاء الثانى . فحكمى العقل كما حكمته انا .. وانصحى قومك بأن يحكموه من ناحيتهم ، فيرحلوا بمواشيهم وامتعتهم واسلحتهم ، فانا لن نتعرض لهم بأذى اذا نزلوا على رغبتنا !

***

حملت « نور » ارادة فرعون الى أبيها ، وابلغها الاب الى مليكه، وأذاعها الملك على الشعب ، فاختلفت الآراء وتضاربت الرغبات ، وسادت الفوضى بين جموع الرعاة .

أسرع بعضهم الى الرحيل بعد ان أدركوا عجزهم عن المقاومة وعزم المصريين على الحرب والنضال .. وبقى البعض الآخر على امل ان يعدل المصريون عن عزمهم او يفشلوا فى مهاجمة المدن والحصون

لكن أحمس كان صادقا فى عزمه وكانت جيوشه جديرة بالثقة التى وضعها فيها ...

فان الهكسوس لم يقووا على الدفاع ، ولم يصمدوا بنجاح للجيوش الزاحفة ، فسقطت حصونهم ، وانهار معسكرهم المنيع بجوار تانيس .

فارسلوا الى احمس وفدا من زعمائهم برياسة طورس ، يطلب المفاوضة فى امر الجلاء .

وكانت « نور » بين الرسل الموفدين الى فرعون

ولكن احمس رفض مقابلتهم وارسل الى الفتاة التى احبها رجلا من اخصائه يقول :

« ان مولاى يكرر للوفد يانور ماقاله لك من قبل : فليرحل القوم عن مصر بلا مفاوضة وبلاحرب اذا شاءوا ! »

فعاد المندوبون ادراجهم ...

***

وبدأ رحيل القوم ، قبيلة بعد قبيلة ، وعشيرة اثر عشيرة

رحل ملكهم بعد ان اطمأن على سلامة قومه ، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا فى تاريخ مصر ..

فقد مر ملك الهكسوس واسرته ونساؤه ورجال بطانته امام أحمس الاول ، فرعون مصر الوطنى المظفر ، فرفع الملك يده بالتحية ورد فرعون عليه تحيته ، وانسابت صفوف الرعاة انسياب الافاعى متجهة نحو الشرق ، من حيث اتت .

وبينما فرعون واعوانه من حوله ينظرون الى ذلك الكابوس الحى يزول شيئا فشيئا ، اذا بصوت يرتفع وسط الصفوف وصيحة ممزوجة بالزفرات تنفجر فى سفح التل الصخرى الذى كان فرعون واقفا عليه .. :

ــ الوداع يافرعون ! الوداع ياأحمس لتكن حياتك طويلة وأيامك سعيدة ، ولتبارك الآلهة مساعيك ، ولتحقق آمالك واmانيك !

عرف فرعون صوت الفتاة « نور » ورآها تخترق الصفوف وتجثو على ركبتيهـــــا امامه ، فاشار اليها قائلا :

ـ انهضى ايتها المحبوبة العزيزة وأذهبى بسلام مع اهلك الى حيث تريد الآلهة .. وليحرسك آمون ، ويدفع عنـك الاذى ، ويبعث اليك من يملا قلبك حبا وحياتك سعادة !

وتغلغلت الفتاة بين الامواج البشرية المنسابة نحو الشرق ..

***

غير أن الرعاة لم يركنوا الى السكينة والهدوء بعد ان اجلاهم المصريون عن أرضهم . بل عادوا يشاغبون ويعيثون فسادا ، فقـرر أحمس ومستشاروه ان يطاردوهم ويقضوا عليهم خارج حدود مصر..

وقـــد تم لهـم ذلك فى ارض ســـــورية .





ان ابناء الجزر البريطانية
وبناتها قد عرفوا الهزيمة وذاقوا
مرارة الاسر في الشرق ، قبل ان
يحاولوا غزوه وفتحه بالاف السنين!

نادى المنادون طوال الليل فى شوارع صيدون وميادينهـــــا وازقتها ، وانطلق الرسل الى الضواحى وسفوح الجبال وبساتين الفاكهة ، وعلى طول الشاطىء شمالا وجنوبا ، معلنين بصوت جهورى رنان ، ان السفن التى اقلعت من الميناء منذ ثلاثة اعوام اواكثر بقيادة « دنيكرت » الصيدونى ، قد عادت جميعها سليمة من كل اذى وانها مقبلة من عرض البحر وسوف تلقى مراسيها فى مرفأ المدينة بعد الفجـــــر ..

هذا هو النبأ العجيب المفرح الذى نادى به المنادون وحمله الرسل الى الجهات الاربع ، على أثر وصول مركب سبق الاسطول بيوم كامل ينبىء الصيدونيين بعودة ابطالهم من تلك الرحلة الطويلة الشاقة

***

وما طلع الفجر حتى كانت رمال الشاطىء وسطوح المنازل وارصفة الميناء وجميع الطرقات المؤدية الى المدينة العظيمة تعج بالناس كبارا وصغارا . رجالا ونساء . هرعوا جميعا لتحية القادمين ، والترحيـب بهم ونثر الازهار والرياحين فى طريقهم ..

وكان الاستقبال رائعا : فقد كان لكل اسرة صيدونية قريب او صديق أو نسيب ، بين بحارة السفن العائدة من مجاهل الغـرب . وكانت عشرات من الصيدونيات فى انتظار ازواجهن او اخوتهن اوابنائهن على احر من الجمـــــــــــــــر ..

وظل الناس يغنون ويرقصون ويهزجون ثلاثة ايام بلياليهـــــا ، ابتهاجا بذلك الحادث العظيم !

خمسون سفينة تنطلق على صفحة اليم . وتختفى وراء الافق ، وتنقطع اخبارها اكثر من ثلاثة اعوام . ثم تعود جميعها محملةبالذهب والفضة والحجارة الكريمة والسلع النادرة والتحف الثمينة ، يضاف الى ذلك كله الف اسير من الرجال وخمسماية سبية من النساء

ودوت فى الفضاء ، مدة ثلاثة ايام بلياليها ، هتــافات الصيدونيين لعميد بحارتهم « دنيكرت » المقدام واخته « ملكيسار » المتربعة على عرش الجمال فى صيدون ، وزوجها المصرى ــ حوتبسو ــ الضـــابط فى جيش فرعون رعمسيس الثانى .

ذلك هو الثالوث الذى رحب به سكان صيدون وجيرانهم ، والذى وصل بأسطوله الى الميناء الفينيقى العريق ، تدفعه الرياح المواتية،قبل ان يصل اليه فرعون قادما من وراء جبال لبنان ، محمولا على اجنحة النصر بعد معركة قادش .

فما الذى جاء بفرعون الى صيدون . ومن هو البحار الفينيقى الذى استحق أن يأتى الفاتح المصرى العظيم الى الميناء الفينيقى لتحيته ، ومن هما رفيقاه : المصرى حوتبسو ، وزوجته ملكيسار ؟

***

تبوأ رعمسيس الثانى ، اللقب بحبيب آمون ، عرش مصر خلفا لابيه سيتى الاول ، سنة ١٢٩٢ قبل الميلاد ، وكان فى الثامنة عشرة من العمر . ولكن مطامعه كانت واسعة . وجراته جديرة بمطامعه . وما آل اليه الامر حتى شرع فى العمل لبلوغ اهدافه فى الداخل وفى الخارج .

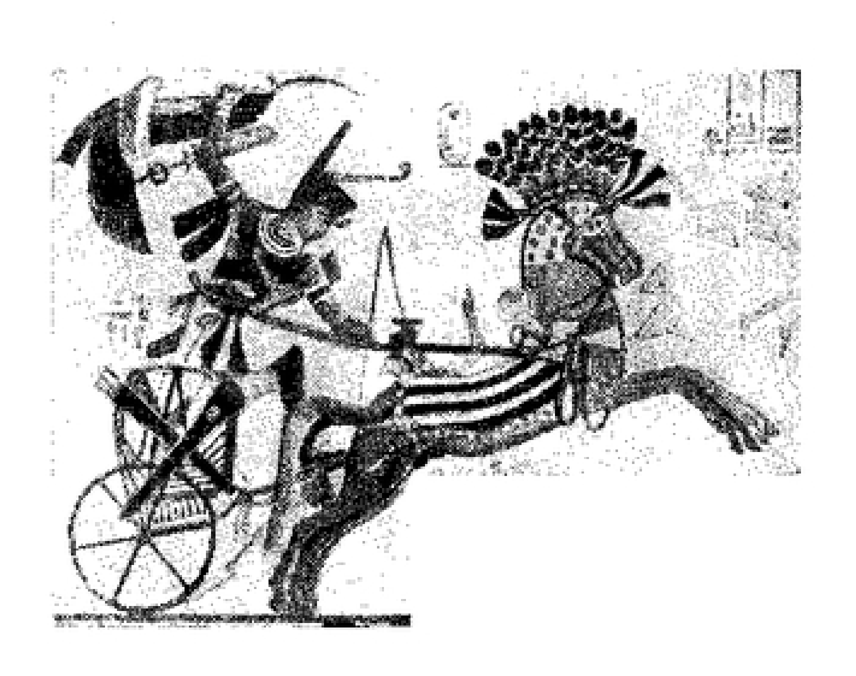
ومما كان فرعون يفكر فيه ، ايفاد السفن الى البلدان المجهولة لجلب ماقد يكون فيها من خيرات ، والاستعانة بالبحارة الفينيقيين حلفاء مصر واصدقائها فى السراء والضراء ، والذين طالما تعاون معهم اسلاف رعمسيس فى اعداد حملات بحرية تكللت كلها بالنجاح واسفرت عن نتائج باهرة .

وشاءت المصادفات أن يكون فى قصر فرعون ، فى ذلك الوقت ضابط من ضباط الحرس يدعى « حوتبسو » زوجته فينيقية من صيدون . تعرف باسم ـ ملكيسار ـ منحها مواطنوها تاج الحسن والجمال ولها اخ يدعى « دنيكرت » اقر له الفينيقيون جميعا ، فى صيدون وصور وبيبلوس وغيرها من دولهم البحرية ، بانه أجرأ من ركبه البحر واقتحم الانواء ، وامهر من قاد سفينة فى مجاهل المحيطات واوسع الربابنة علما فى شئون الملاحة !

وافضى حوتبسو لفرعون بما كان يعرفه عن أخى زوجته ، وأضاف قائلا ان دنيكرت يعد العدة للقيام برحلة بحرية الى أقاصى الارض المعروفة نحو الشمال .. بعد اجتياز مضيق الظلمات عند اعمدة ملكارت .

وتحمس رعمسيس للمشروع وعهد الى الضابط فى ان يخابر البحار الفينيقى ، واوفده الى صيدون مع رسل يحملون الهدايا الى شيوخها وأشرافها ، ويعرضون عليهم أشراك فرعون معهم فى اعداد اسطول من السفن يقوده دنيكرت الى حيث تشاء الالهة أن يصل

وافق الصيدونيون . وجهز دنيكرت خمسين سفينة اقلعته



فرعون رعمسيس الثانى يتقدم جيشه فى مركبته الحربية

من الميناء الفينيقى الى ساحل مصر ، حيث التحق برجالها حوتبسو ضابط الحرس ، وزوجته ملكيسار اخت دنيكرت الصيدونى ، وهى الخبيرة فى استطلاع الغيب ، وعلم الفلك ، والتنبؤ بالتقلبات الجوية من مراقبة الرياح وحركات الطيور ..

***

كانت رحلة من اعجب الرحلات التى عرفها التاريخ .. رحلة لم تفقد فى خلالها سفينة واحدة من السفن الخمسين التى اشتركت فيها . ولم يفقد غير بضعة رجال قتلوا فى أثناء الأعاصير التى هبت على الاسطول فى عرض البحار ..

ابحر دنيكرت ورفاقه فى سنة ١٢٩١ وعادوا فى سنة ١٢٨٨ قبل الميلاد ..

وصلوا الى ساحل مصر فقيل لهم أن فرعون رعمسيس خرج على راس جيشه لملاقاة أعداء من الشرق تحالفوا عليه وحشدوا جحافلهم للوثوب على مصر . فرأى فرعون أن يذهب اليهم قبل أن يأتوا اليه .....

تلك هى الحرب التى دارت رحاها بين المصريين من ناحية والحثيين وحلفائهم من ناحية اخرى ، والتى انتهت بانتصار رعمسيس فى معركة « قادش » فى سنة ١٢٨٨ ، وفرضه الصلح على الحثيين ومن تعاون معهم ، واخذه واحدة من بنات الامير الحثى « خاتيسارو » زوجة له ..

علم دنيكرت وحوتبسو وملكيسار بزحف رعمسيس شمالا فقرروا مواصلة الرحلة من ناحيتهم والذهاب الى صيدون ، على أمل أن ينتقلوا منها بطريق البر الى حيث يرابط فرعون مع جيشه . ونفذوا قرارهم بلا أبطاء ..

وحمل الرسل خبر عودتهم من رحلتهم البعيدة الى رعمسيس وهو فى ميادين القتال ، فطرب للخبر السار وعده فالا حسنا قبيل نشوب المعركة الفاصلة بينه وبين أعدائه . ولما تحقق الفأل ، وكتب لرعمسيس النصر ، وتبع النصر عقد معاهدة صلح ، وعقد زواج فى آن واحد : عول الفاتح المنصور على الذهاب بنفسه الى صيدون لتحية القادمين اليها بعد غيبة ثلاثة أعوام ، وشكر الصيدونيين على وفائهم بالعهود ، وبقائهم على الحياد فى خلال الحرب ، ومحافظتهم على الصداقة التى كانت تربط مدينتهم بمصر فى عهد سيتى الاول ، والتى أراد رعمسيس أن تمتد وتستمر فى عهده ..

وهكذا وصل فرعون على رأس كتائبه المظفرة الى صيدون ، بعد بضعة أيام من وصول السفن الى مينائها ، وعلى ظهرها دنيكرت وحوتبسو وملكيسار !

***

وقص الرفاق الثلاثة على فرعون ضيف صيدون ، وعلى شيوخ المدينة وزعمائها وكهنتها ، قصة رحلتهم المدهشة !

سارت بهم السفن تدفعها الرياح برقة بضعة أيام حتى بلغت المضيق الاسود والصخور العالية القائمة الى جانبيه والتى أطلق عليها الفينيقيون اسم أعمدة ملكارت ـ وهو رب القوة والجبروت عندهم

ونفذت بعد ذلك الى بحر الظلمات فانطلقت شمالا ، فى محاذاة سواحل وشواطىء بعضها عامر وبعضها مقفر ، الى أن بلغت أرضا تحيط بها المياه من كل جانب ، ويبدو من رؤية سواحلها انها جزيرة وسط المحيط . ولما نزل البحارة من سفنهم الى تلك الارض ، هرب السكان من امامهم مذعورين ولكنهم راحوا يطاردونهم ، فامسكوا منهم الف رجل وخمسمائة امرأة وفتاة ، وفهموا من اشاراتهم وكلماتهم أن بلادهم تدعى « تولى » وانها فى الواقع جزيرة فيها من الخيرات الشىء الكثير ..

وحمل البحارة الى سفنهم ما استطاعوا حمله من ذهب وفضة وصوف واخشاب وحجارة كريمة واثمار وغير ذلك مما وصلت اليه ايديهم ، وعادوا بتلك الغنائم وبالاسرى والسبايا الى صيدون . على أن يكرروا الرحلة فى المستقبل بعد أن يعدوا العدة لها ويجهزوا سفنهم بما يلزم من ادوات ..

ظل الثلاثة يتحدثون عن مغامرتهم ويصفون تفاصيلها يومين كاملين، وكان العمال فى أثناء ذلك منهمكين فى تفريغ حمولة السفن ووضع كل شىء فى المكان المعد له فى مستودعات الميناء . وبعد أن تم احصاء الغنائم كلها ، عهد الى «امين الخزانة» بأن يأخذ حق الدولة ويوزع الباقى على الذين اشتركوا فى الرحلة ، كل منهم حسب مقامه ومركزه ومقدار مسئوليته ...

واخذت صيدون ما لها . واخذ فرعون ما له . واخذ البحارة ما لهم ، أما الاسرى والسبايا ، فقد قسموا الى شطرين ، وبقى نصفهم فى فينيقية ، ونقل نصفهم الى مصر مع الجيش العائد اليها بعد النصر .

وكان الاسرى من الرجال بيض الوجوه شعورهم حمراء ، وكانت

الاسيرات من النساء شقراوات ، شعورهن الذهبية مسترسلة على ظهورهن .

أما الصيدونيون ، فقد وزعوا النساء على السفن ليخدمن فيها ، ووزعوا الرجال على مقالع الاحجار في سفوح الجبال .

وأما المصريون فقد ارسلوا الرجال الى جبال سيناء ليشتغلوا في التنقيب عن المعادن ، واخذ قواد الجيش النساء الى بيوتهم لخدمة زوجاتهم ...

***

ان مضيق الظلمات أو المضيق الاسود الذى اجتازته سفن دنيكرت والصخور التى سماها الفينيقيون اعمدة ملكارت ، هى التى عرفها اليونانيون فيما بعد باسم «اعمدة هرقل» ثم جاء العرب فسموها «جبل طارق» باسم القائد المغوار الذى اقتحمها فى طريقه من أفريقيا الى أوربا.

وأما جزر «تيلى» التى وصل اليها الفينيقيون والمصريون ، ورزعوا سكانها ، واقتادوا منهم الف رجل وخمسماية امرأة ، وحملوا معهم الأسلاب وعادوا الى بلادهم ، فهى الجزر التى عرفت فى عهد اليونانيين باسم «البيون» ثم سماها الناس فى العهد الحديث «الجزر البريطانية» .

والأسرى الذين عملوا فى مقالع لبنان ومناجم سيناء هم الذين عرف احفادهم باسم «الانجليز» والاسيرات اللواتى وزعن على السفن الفينيقية للترفيه عن البحارة الفينيقيين ، وعلى بيوت القواد المصريين لخدمة زوجاتهم هن اللواتى عرفت حفيداتهن باسم « الانجليزيات »

جاؤا..وجئن أسرى وأسيرات، فى ذلك العهد البعيد ، فعاشوا وعشن فى فينيقية ومصر ، وفى البلدين حفرت قبورهم وقبورهن . وبعد أجيال عديدة ، جاء من بلادهم غزاة حفرت ايضا فى الشرق قبورهم !



أراد أعداء مصر أن يغزوا أرضها ،
فغزا المصريون أرضهم ، وســـاقوا
منهم الرهائن الى وادى النيل .

ظل أمير «سيهول» يطارد الاسود والغزلان عشرين يوما فى هضاب لبنان ووهاده وأدغاله ، حتى أدركه ورجاله التعب ، فأصدر أمره بالعودة الى قلعته المنيعة ، فى أعالى الجبال ، حيث تنتظره زوجته المحبوبة «صارية» مع ولده وابنتيه .

ولما بدا الامير على ظهر جواده ، فى سفح الجبل الذى تكلل هامته أسوار القلعة فتحت الابواب وأسرعت الزوجة الى استقبال بعلها فرحة ضاحكة . .

وبعد أن ضم أمير سيهول أولاده الى صدره ، واستراح من عناء الطريق ، طوقت صارية عنقه بذراعيها ، وقالت له بصوت حاولت عبثا أن تجعله هادئا :

ـ أى زوجى المحبوب . . لقد طالت على غيبتك ، وأوشكت منذ يومين أن أبعث الرسل فى طلبك والبحث عنك . ان لدى أمرا خطيرا ينبغى أن أطلعك عليه فى الحال .

فتقطب جبين الامير وسألها بلهفة ممزوجة بالقلق :

ـ هل حدث فى غيبتى ما جعل حياتك فى خطر ، أو عكر عليك صفو الايام والليالى ؟

فهدأت صارية روعه باشارة ، وقالت :

ـ كلا . . لم يحدث شىء من هذا أيها الحبيب . فاستمع واصغ الى : منذ أيام جاءنى رسول من مصر ، يحمل الى أخبارا من بلاط فرعون .

ـ تحوتمس .

ـ نعم ، تحوتيمس الثالث ، الذى أصبح كما تعلم سيد مصر الأوحد والجالس على عرش الفراعنة ، بعد موت الملكة حتشبسوت زوجة والده التى كانت تشاركه السلطة بعد وفاة زوجها .

ـ وماذا حمل اليك الرسول من أخبار يا صارية ؟

ـ قبل أن أفضى اليك بمضمون الرسالة ، دعنى أذكرك بالعهود التى قطعتها على نفسى عندما رضى فرعون أن أصبح زوجة لك . فانك لا تجهل أيها الحبيب انى ربيبة تحوتميس وأهل بيته ، واننى مدينة

بالحياة والثروة والجاه الى الملكة حتشبسوت الراحلة ، والى تحوتميس الثالث ، المالك اليوم على مصر . وعندما هبطت مصر زائرا حللت ضيفا على قصر الملكة ، ووقع نظرك على فاخترتنى زوجة لك ، ولكن تحقيق هذا الحلم لم يكن أمرا سهلا ، وكان لا بد من قبول فرعون وحتشبسوت ورضاهما . وقد تحققت امنيتنا فيما بعد ، ورحلت معك عن مصر ، وأصبحت زوجة لك ، واقمت معك منذ ذلك الوقت فى هذه الجبال الوعرة . ولكننى لم انس الشروط التى تم بموجبها هذا الزواج ، والعهود التى أقسمت بآلهتنا على تنفيذها عندما يرغب الى فرعون فى ذلك .

ـ نعم ، لا اجهل تلك العهود والشروط ..

ـ قال لى تحوتميس ، على مسمع ومرأى من زوجة أبيه وشريكته فى الحكم حتشبسوت : « صاربة ، لقد وقعت أسيرة بين ايدى جنودنا فى احدى الغزوات البعيدة ، فأنقذت حياتك : وادخلتك الى هذا القصر حيث رعتك الملكة بعطفها وشملتك بحبها ، فأنت اذن مدينة لنا بكل ما تملكين ، بلا استثناء الحياة !! واذا كنا الآن نرضى بالزواج الذى ترغبين فيه ، وبرحيلك عن هذه الديار الى مملكة نائية ، فاننا نشترط عليك شرطا لن تستطيعى الفرار من تنفيذه عندما أدعوك الى ذلك . صاربة : يجب أن تقطعى عهدا على نفسك بأن تمنعى زوجك ورجاله ، فى كل آن ومكان ، من خوض غمار الحروب فى صفوف أعداء فرعون . واذا شاءت الآلهة أن يشهروا يوما من الايام سلاحا ، ففى وجه خصومنا لا فى وجهنا يشهرونه . هذا كل ما اطلبه منك مقابل الزواج الذى رضيت به الملكة ورضيت أنا به . فليكن زوجك دائما ابدا ، أيا كانت الظروف والاحوال ، صديقا لنا . واذا أبى أن يكون حليفنا فى الحروب فليبق على الحياد ويتجنب الانضمام الى الاعداء . اذهبى بسلام ولتحرسك الآلهة ! »

ـ نعم ، هذا ما قاله تحوتميس ، أعلم ذلك ..

ـ وقد جاء الوقت لكى أبر بالوعد وانفذ العهد ايها الحبيب ..

ـ كيف ذلك ؟

ـ اليك الآن مضمون الرسالة التى يحملها الينا خادم من قصر فرعون : « لقد ماتت الملكة حتشبسوت ولحقت بآبائها وأجدادها فى العالم الآخر ، وارتقى تحوتميس الثالث عرش مصر ، لا يشاركه فى الحكم والسلطان انسان . ولما كان ملوك آسيا وأمراؤها قد طغوا وتجبروا ، وتعددت غزواتهم على حدود مصر ، وامتنعوا عن دفع الجزية لفرعون ، وتطلعوا الى المساواة به ، واعتدوا على الشعوب الآمنة الخاضعة له ، فان تحوتميس الثالث يجرد الآن جيشا لجبا سوف يجتاز المسافات

الشاسعة ، بقيادة فرعون نفسه ، لتأديب اولئك المغرورين وسحق جيوشهم ، واجتياح ممالكهم واماراتهم ودك حصونهم وبسط سلطان مصر على الشعوب التابعة لهم . ففرعون يا صارية قد اوفدني رسولا اليك ، لكي اطلعك على عزمه ، واذكرك بالعهد الذي قطعته على نفسك : يجب أن يظل امير سيهول زوجك بعيدا عن ميادين القتال ، لان فرعون لن يعفو عن أحد ، ولن يترك للرحمة منفذا الى قلبه . فاذا بقي امير سيهول على الحياد ، فان تحوتميس لن يلحق به ضررا ولن يسيء الى احد من اتباعه . واذا اراد زوجك أن ينضم برجاله الى جيش فرعون ، فان تحوتميس ينادي به بعد النصر ملكا على هذه الديار ، عندما تنهار عروشها وبشتت ملوكها وامراؤها أو يساقون اسرى الى مصر ! »

سكتت صارية ، ونظرت الى زوجها فاذا به قد استغرق في افكاره ..

ثم استطردت قائلة :

ـ هذا ما حمله الى الرسول أيها الحبيب . واذا صدق ظني فان جيش فرعون في طريقه الآن الى هذه الديار ، ولن يمضي وقت طويل حتى يكون نصيب أصدقائك من ملوك وامراء مطروحا في كفة الاقدار !

سكتت صارية ثانية . وحدقت البصر في الامير فاذا به على حاله من التفكير

أدركت أن عاملين يتنازعانه : عامل القرابة والجوار ، الذي يدفعه الى التضامن مع الملوك والامراء الاسيويين في محاربة فرعون . وعامل الحب والوفاء ، الذي يفرض عليه البقاء على الحياد ، لكيلا يقال عن زوجته المحبوبة أنها خانت العهود وحنثت بالوعود

أدركت صارية ان هذين العاملين يتنازعان زوجها . ولكنها لم تدرك ان هناك عاملا ثالثا سيرجح كفة الميزان وهو عامل الخوف !

فان أمير سيهول كان يعلم علم اليقين أن تحوتميس الثالث سيهزم أعداءه في الميادين ، وان النصر سيعقد له في المعارك . فاذا انضم الامير الى اعداء مصر فانه يسير الى الهلاك بقدميه !

فرفع رأسه ونظر الى زوجته . وطوقت صارية عنقه بذراعيها وسألته وقد ترقرق الدمع في عينيها :
ـ ماذا أنت صانع أيها الحبيب ؟
فضمها الامير الى صدره ، وقبلها ، وقال بعد سكوت قصير :
ـ لقد تعهدت لفرعون يا صارية بأن يبقى زوجك صديقا له ويمتنع عن محاربته فلن احاربه ماحييت !

ارتقى تحوتميس الثالث عرش الفراعنة فى سنة ١٤٩٣ قبل الميلاد، وظل ردحا من الزمن يحكم البلاد بالاشـــتراك مع زوجة ابيه الملـــكة حتشبسوت الى ان انفرد بالسلطة فى سنة ١٤٧٢ قبل الميلاد ، اى بعد وفاة هذه الملكة العظيمة

وكان أول عمل فكر فيه ، ضرب ملوك آسيا وأمرائها ضربة قاضية، وبسط سلطانه على البلدان الشاسعة الخصبة الواقعـــة بين البحـــر المتوسط والبحر الاحمر ومجرى الفرات

وكان الد اعداء فرعون ، واشد الملوك والامراء غطرسة ملك «قادش» فى سورية فقد حض ذلك الملك جيرانه على العصيان والانتقاض ، وجعل يمنيهم بحلو الامانى اذا هم هاجموا مصر معه وفتحـوها بحـد السيف وقوضوا عرشها واستولوا على كنوز الفراعنة . وما زال بهم ، يستثير الضغائن ويستنهض الهمم ويوغر الصدور ، حتى التفوا حوله جميعـــا كتلة واحدة ، واقسموا بين يديه انهم سائرون معه الى النهاية ،بجيوشهم وعتادهم ، ونادوا به قائدا عاما عليهم ، وطلبوا منه أن يمشى فى طليعتهم الى الغزو فالنصر فالعز والمجد !

وبينما رسل ملك قادش يطوفون الجبال والســـهول والمــدن والصحارى ، من شاطىء البحر الى اطراف البادية ، لدعوة الناس الى السلاح ونشر تلك البشرى المفرحة ، اذا بالاخبار ترد على الملك من مصر، منبئة بأن فرعون لم ينتظر زحف اعدائه عليه ، بل انه مسرع اليهم، زاحف بجيش عرمرم لمقاتلتهم فى بلادهم !

ذعر ملك قادش فى بادىء الامر من هذا النبأ الفجائى ، ولـــكنه تمالك نفسه ، وارسل فى طلب حلفائه ، ودعاهم لعقد اجتمـــاع عام فى مدينة « مجدو » الحصينة .

فوافوه جميعا الى تلك المدينة ، ماعدا امير ســـهول الذى تخلف عن الحضور ..

ونظر الحلفاء فى أمرهم ، وقرروا حشد جيوشهم فى سهل «مجدو» المترامى الاطراف ، وانتظار جيش فرعون فى ذلك الميدان ، وضربه هناك ضربة لن تقوم له بعدها قائمة !

***

أما سهل مجدو هذا ، فانه يعرف الان بسهل « ابن عامر » وهو يمتد من ساحل البحر المتوسط الى ما وراء بحر الجليل ونهر الاردن ، وتتخلله جبال الكرمل ، وهو من الوجهة الحربية خير ميدان للقتال

والناظر الى ذلك السهل ، بربواته وأخاديده ومنعرجاته ، يخيـل



فرعون تحوتميس الثالث قاهر أعداء مصر فى الميادين !

اليه أن الطبيعة قد أوجدته فى ذلك المكان لكى يصمد فيه عدو لعـــدو ، ويلتحم فيه جيش بجيش ، وتطلق فيه للخيل الاعنـــة ، فتشـــتبك السيوف بالسيوف والرماح بالرماح !

هناك ، فى ذلك السهل ، جمع ملك قادش جموعه ورتب جيشــه فى انتظار تحوتميس فرعون مصر

كان امام الجيش المصرى ثلاثة سبل للوصول الى مجدو وسهلها ، واعتقد ملك قادش أن عدوه سيهاجمه من الجنوب ، لـكن تحـوتميس خيب ظنه ، وقام بحركة التفاف تدل على خبرة واســـعة فى الشئـون الحربية ، فداهمه من الوراء وقطع عليه خط الرجعة فحال بينـه وبين اسوار مجدو !

***

فى يوم مشهود من صيف سنة ١٤٧١ قبل الميلاد ، وقعت معركة من أكبر المعارك الحربية التى دونها التاريخ القديم ، فى سهل مجدو ، المعروف اليوم بسهل ابن عامر ، والذى جاء ذكره فى التـــوراة باسم « قر مجدون » أى « الحرب العظمى ! »

ففى صباح ذلك اليوم ، نهض تحوتميس الثالث من فراشـــه مبكرا ، وأصدر امره بالهجوم على العـــدو ، واعتلى مركبتـه والرمح بيمينه وسار فى مقدمة جيشه يطلب النزال والطعان ..

وما رأى الجنود فرعون العظيم يتقدمهم الى القتال معرضاصدره للنبال والسيوف ، حتى اندفعوا خفافا وقد ملاوا الارجاء بصياحهم، فماج السهل الممتد حول مجدو بالمقاتلين ، وانعكست اشعة الشـمس على الدروع والنصال المسلولة ، فبدا السهل كاتون تتأجج فيه النيران ويلمع فيه وميض البرق ، وارتفع صهيل الخيول وقد حثها الفرسان بالمهاميز حتى سالت دماؤها ، واشتبك الجيشان فى معركة كتب فيها النصر لفرعون وكتبت فيها الهزيمة لاعدائه !

حاول ملك قادش أن يدفع العار عن جيشه وعن حلفائه ، لكنه ادرك عجزه ، وانه هالك اذا لم يلتجىء الى اسوار المدينة قبل أن يسدل الظلام سدوله على ميدان القتال ..

وبينما جيوش الملوك والامراء تولى الادبار وتطلب النجـــاة من حيث تجدها ، كان ملك قادش وامير مجـــدو ومعهمـــا بعض الرجال الاشداء يخترقون صفوف الجيش المصرى ، وسيوفهم تقطـــر دما ، متجهين الى أبواب المدينة ..

وصلوا اليها ، لكن السكان رفضوا فتحها فى وجوههم ، خوفا من

لحاق المصريين بالفارين ، ودخولهم المدينة على أثرهم ، فألقوا من فوق الاسوار حبلا ، ورفعوا الملك والامير ورجالهما بدون أن تفتح الابواب !

وغنم المصريون فى تلك المعركة الفين ومئتى جواد ، وخمسمائة قوس ، والفى خروف ، وتسعمائة وعشرين مركبة ، ومائتى درع ، وعشرين الفا من الماعز ، وكثيرا من المعدات الحربية والمؤن الاخرى ..

وكان الملوك والامراء الذين انهزموا فى معركة مجدو ينتظرون أن ينفذ تحوتميس الثالث وعيده ، ويطاردهم فى معاقلهم ويقطع رؤوسهم أو يسوقهم امامه اسرى الى ارض مصر ..

لكن تحوتميس كان حليما حكيما سياسيا ، فقد عفا عن اعدائه ، لكنه اشترط عليهم أن يرسل كل واحد منهم أحد ابنائه الى مصر « لتلقى العلوم فيها » ومعنى هذا أن أولئك الابناء يظلون رهائن تحت يد فرعون ، ضمانا لبقاء آبائهم فى حظيرة الطاعة !

***

وارسل فرعون قائدا من قواده الى امير سيهول حاملا اليه تحية تحوتميس الثالث ، وقراره بجعله ملكا على الملوك والامراء ، ومراقبا عليهم من قبل فرعون وزوده فوق ذلك بالتحيات العطرة لزوجة الامير ، صاربة الحسناء ، التى حملت زوجها على البقاء بعيدا عن ميادين القتال ..

وصل القائد رسول فرعون الى قلعة سيهول ، فاذا به يصل الى مأتم ..

كان الامير قد فارق الحياة منذ يومين ، فمثل القائد بين يدى صاربة زوجة الامير الراحل وأفضى اليها برسالته ، فبكت ولطمت خديها ، ثم قالت لرسول فرعون :

ــ عد الى تحوتميس وقل له أن صاربة تحييه وتهنئه على انتصاره الباهر . ولكنها تبكى فى آن واحد زوجها ونصيرها . فان أمير سيهول قد اغتالته يد آثمة والمجرم الذى سدد الى صدره ضربة الخنجر القاتلة جندى من جنود قادش ، صاح وهو يضرب الامير انه ينتقم لقومه وعشيرته من الخائن الذى امتنع عن تلبية النداء والسير الى القتال . وقد القى ذلك الجندى بنفسه من فوق اسوار القلعة ، بعد اقتراف جريمته ، وسقط ميتا على الصخور !

وهنا خنقتها العبرات فسكتت .. لكنها تجلدت واستطردت قائلة :

ــ عد اذن الى فرعون ايها القائد وقص عليه ما حدث . واذا كان تحوتميس قد بر بوعده ونادى بأمير سيهول ملكا على ملوك هذه الديار فان ربيبة فرعون صاربة قد برت أيضا بوعدها ، فكلفها وفاؤها ثمنا غاليا : حياة زوجها ، وسعادتها ، ومستقبل ابنائها !



كان عرش مصر فى مهب الرياح ، فتسارع اليه الطامعون وتسابقوا .. ولعبت المرأة فى تلك المحنة دورها .

عاش الامير « نملوت » المصرى فى عصر ضعفت فيه هيبة العرش وضاعت سلطته ، وتضعضعت فيه قوى مصر وتفككت وحدتها . فقام كل أمير من أمراء الاقاليم يشبع ظمأ نفسه التواقة الى الحكم والاستقلال المحلى ، ويسعى الى تحقيق مطامعه واغراضـــه فانقسمت الدولة الى دويلات ، والامة الى شيع واحزاب .

كان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد . وقد نشأت تلك الحالة عن سلسلة متواصلة الحلقات من الحروب الاهلية والاخطاء المتكررة التى ارتكبها الفراعنة منـذ القرن العاشر قبل الميلاد . فاصـبحت مصر فريسة للاجنبى بعد ان كانت قوتها مضرب الامثال ، وسطوتهـــا تبعث الرعب فى صفوف الاعداء ؛ وجيوشها المظفرة تغزو بلادهم وتدك عروشهم وتخضع ملوكهم لفرعون العظيم .

وكان الامير « نملوت » المصرى أحد أولئك الراغبين فى الجـلوس على عرش مستقل ، وان كان عرشا صغيرا متداعى الاســاس واهى الدعـــائم !

اما الشعوب التى طمعت فى الاستيلاء على مصر واقتسامها . . فكانت ثلاثة شعوب قويت سواعد ابنائها بما انتاب الدولة المصرية مـن خور ووهن : وهى الشعب الحبشى الباسط سلطانه فى الجنــوب ، والشعب اللوبى الضارب فى الغرب ، والشعب الاشورى القـادم من الشــرق ....

وشعر كل من أمراء الاقاليم المصرية بأن لابد له من التحبب الـى تلك الشعوب الثلاثة القوية والتحالف معها ، ووقع اختيار « نملوت » على اللوبيين فانضم اليهم وتطوع لخدمتهم مقابل وعد قطعه له ملكهم وهو أن يتركه حرا فى اقليمه ، ويعترف بسلطته فى امارته . .

وتم الاتفاق بين الفريقين على ان يغزو اللوبيون وادى النيل مـــن الغرب ، وأن يعترف « نملوت » بسيادتهم فى اقليم الدلتا الخصب .

وزحفت جيوش لوبيا على مصر بقيادة الملك « طفنخت » الـذى كانت نفسه تتوق الى التمتـــع بتـــاجين : التـاج اللوبى . . والتاج المصرى ! . .

ولم تجد الجيوش الزاحفة فى طريقها جيشا يصدها فاحتـــلت جزءاً كبيرا من البلاد واقامت فيه الحكام والقواد . وكان نملوت المصرى احد الامراء الذين عينهم طفنخت من قبله لادارة شـئون البـــلاد المحتــــلة . .

وادخلت الحوادث الغم والكدر على نفس سيفين زوجة نملوت الباسلة الحكيمة العاقلة . فقد ساءها أن يخرج زوجها على بنى قومه ، وأن يكون عونا للاجنبى على استعباد وطنه وتشتيت شمل امته. وحاولت منذ البداية أن تثنيه عن عزمه وتمنع تحالفه مع اللوبيين وانقياده لمشيئة طفنخت قائلة :

ــ اذا كان لابد لك من الخضوع لسيد فليكن خضوعك لسليل الفراعنة ، وليكن جهادك فى سبيله . ولو فعل جميع امراء الاقاليم كذلك لما استطاع الغريب أن يتغلب على مصر ، وما بسط الاجنبى سلطانه على ذرة من وادى النيل !

لكن ــ نملوت ــ لم يعر اقوال زوجته اذنا صاغية ، بل اعرض عنها واندفع فى تنفيذ الخطة التى عول عليها ، وبرر عمله بقوله :

ــ ان المرأة قصيرة النظر لاتحسب للمستقبل حسابا . الا تعلمين ان ملك اللوبيين سوف يقسم هذه البلاد الى ممالك وسوف يجلس زوجك ياسيفين على عرش مملكة حرة قوية ! . .

فسكنت سيفين على مضض . . ورفعت يديها الى السماء داعية :

ــ ليكن آمون فى عونك يانملوت وليدفع عنك الاذى ، وليحرس هذه البلاد من ظلم الظالمين ويرد عنها كيد الكائدين !

***

وما كاد الملك طفنخت يجتاح الدلتا ويزحف الى الجنوب ، حتى انكشفت طويته وظهرت اغراضه ، فقلب لحلفائه من الامراء المصريين ظهر المجن ، وعاملهم معاملة السيد لتابعيه والحاكم لمحكوميه ، وكان نصيب نملوت من معاملة الملك الظافر ان عينه حاكما على احدى المدن الصغيرة باسم اللوبيين وبالنيابة عنهم . فاتضح للرجل ان زوجته كانت صادقة فيما ذهبت اليه !

وكاشفها ذات يوم بما يخالج نفسه من مخاوف . واعترف امامها بخطئه ، فلم تشمت المرأة فيه بل طيبت خاطره وقالت :

ــ ان الفرصة مازالت سانحة ، وامامك يانملوت متسع من الوقت لاصلاح ذلك الخطأ والعودة الى سواء السبيل ، فان الاخبار الواردة علينا من الجنوب تنبىء بأن ملك الاحباش والنوبيين قادم الى مصر لطرد اللوبيين منها .

ولكن نملوت قاطع زوجته قائلا :

ـ كنت ياسيفين تلومينني على انضمامى الى اللوبيين الاغراب فهل تريدين منى الان ان أكرر الخيانة وانضم الى الاحبـــاش ، وهم عنا غرباء أيضا مثل اللوبيين ! ..

ـ هذا ماأريده منك . ولكنك مخطىء فى ادعائك أن الاحبــــاش غرباء عنا مثل اللوبيين فان الفراعنة يصاهرون ملوك الحبشة والنوبة، وهؤلاء يصاهرونهم ايضا منـــذ مئات السنين ، فقرابة الدم تجمع بين مصر والنوبة والحبشة ، وملوك القوم قد تثقفوا ثقافتنا واتخـــذوا «آمون» لهم ربا يعبدونه ، فالدم المصرى يجرى فى عروقهم واصــبح دين المصريين دينهم . وامتدت اليهم ثقافة مصر . وهاهى ذى عاصمتهم « نباطة » فى بلاد النوبة يدل مظهرها على أنها مدينة مصرية اكثـــر منها حبشية : فمعابدها وهياكلها وقصورها وبيوتها وتماثيلها ولغتهـا كل ذلك مطبوع بالطابع المصرى ، رافل فى ثوب الحضارة المصريـــة .. ففكر فى هذا كله يانملوت . اما انا فقد عولت على محالفة القادمين الينا من الجنوب ، وعلى المساهمة فى انقاذ مصر من النير اللوبى على يد اقربائنا الاحباش والنوبيين ..

وتركت « سيفين » زوجها غارقا فى افكاره ، لايدرى الى ايةجهة يدير دفة سفينته ، وقد اكتنفتها أمواج المطامع والغايات من كل صوب !

***

كان الملك « بعنخى» يسير بالحبشة والنوبة فى ذلك العهد من نصر الى نصـــــر .

وكانت عاصمته « نباطة » القريبة من الشلال الرابع فى أعـالى النيل سيدة المدن وام العواصم ، تقوم فيها الاهرام والتماثيل المصرية والقصور الفرعونية ، وترتفع فيها الاصوات بالتهليل والصلاة لامــون القادر على كل شىء .

ووصلت أخبار الغزوة اللوبية الى مسامع ـ بعنخى ـ فثار ثائره وأدرك ان فرصة سانحة قد افلتت منه . ولـكنه لم يفقـــد الامل فى ادراكها ، وشعر انه أولى من غيره بفتح مصر وبسط سلطانه عليهـا لانه نشأ على ثقافتها ، ولان الدم الذى يجرى فى عروقه هو مـــزيج من دم آبائه الاحباش ودم الفراعنة ملوك مصر . فعول على الزحفالى مصر بجيش لجب لاحتلالها وطرد اللوبيين منهـا ، فبعث الى الامراء والاقيال والقواد التابعين له يقـــــــول :

« اجمعوا جموعكم ، وقاتلوا عدوكم وعدو مصر ، ولا تتركوا احـدا

من جنـوده يفر واستولوا على المؤن والاسلحة والسفن . هكذا يريد بعنخى فافعلوا مايريد ! » ..

وزحف الجيش بخيله ورجله فاجتاز الحدود المصرية ، واسرع فى التقدم شمالا فى طلب اللوبيين ، واذاع العاهل الحبشى على جنوده نداء جاء فيه :

« ليست الحرب التى تخوضون غمارها الان شبيهة بلعبةتتسلون بها فى أوقات الفراغ . فيجب أن تقاتلوا فى الليل وفى النهـــار ، وأن ترغموا العدو على منازلتكم وتبحثوا عن جيوشه لقهرها ، فانتقـــوا احســن ما عندكم من جياد ، وأجمعوا جموعكم ، فانتم لاتجهــلون أن آمون هو الرب وانه هو الذى اختارنا وبعثنا .

« واذاما بلغتم مدينة طيبة فاغتسلوا فى النهر المقدس وارتدوا أجمل ثيابكم ، وامتنعوا عن شد أقواسكم ، ولا تفاخروا بقوتكم لانهـا مستمدة من قوة آمون وليس لاحد قوة الا به ، فهو الذى يجــعل الضعيف قويا والقوى ضـــعيفا ..

« اسكبوا الماء المقدس على اجسامكم فى هيكله ، واضرعوا اليـــه قائلين : اهدنا يارب ســـواء الســبيل لكى نقهر الاعـــداء فى ظـــل سـيفك »

***

بينما كانت طلائع الجيوش الحبشية والنوبية تدخل المـــدن المصرية ، كان الملك « بعنخى » يغادر عاصمته نباطة على رأس جيشـه الكبير ، فى مئات من السفن التى اعدها لهذا الغــرض ، والتى راحت تمخر عباب النيل المقدس فى طريقها الى طيبة ومنف ..

فارتد اللوبيون امام الجيش الغازى ، وامام السكان الـــذين انضـــــموا اليـه فرحين مهللين ..

***

وبلغ « بعنخى » اسوار المدينة التى كان الامير « نملوت » يحكمها ويقود حاميتها باسم الملك « طفنخت » اللوبى ..

كانت تجرى ، تلك اللحظة ، وفى داخل قصر نملوت ، مأســاة مروعة بين الزوج وزوجته ورجال القصر ونسائه ، اذ كان الأمير يريد البقاء على أخلاصه لملك اللوبيين ، فى حين ان زوجته سيفين كـــانت تلح عليه بأن يفتح ابواب المدينة لملك الاحباش والنوبيين ، ويرحببمقدم قوم لايضمرون لمصر والمصريين عداء ، على اعتقادها .

واحتدم الجدل بين الامير وزوجته .. فصاح بها مهددا :

ـ هؤلاء اغراب ، واولئك أغراب ، فدعيني ياسيفين احـــارب الاحباش ماداموا يريدون اخضاع مصر كمـا فعل اللوبيون ، فالاجنبي يريد أن يحل محل الاجنبي . وانا لاأرضى بان تعترضني زوجتي في اعمالي .. اغربي عن وجهي والا فالويل لك ولمن يرى رأيك من النساء. وعودي معهن الى الخدور ودعي الحرب للرجال ! ..

فثارت زوجة الامير واقتربت منـــه كاللبـــؤة الكاسرة صائحة:

ـ هؤلاء أغراب واولئك أغراب .. نعم . ولكن على المرء أن يختار من الشرين أهونهما ، ومن البليتين اخفهما ، ومن القريبين أقلهما أذى فمن الخطأ أن يحارب المصريون الاحباش ويناصروا عليهم اللوبيين . فالى اللقـاء يانملوت .. وســوف تعلم ان الحق فى جانبى ، وتدرك أن زوجتك تعمـــل الان لانقاذك وصـــيانة كرامتك وسمعتك !

***

وخرجت سيفين من قصر زوجها ونادت النساء فالتففن حولها وانطلقن جميعا فى انحاء المدينة داعيات جنود الحامية الى التمـــرد والعصيان ، فدب الاضطراب فى الصفوف ، وارتفعت من بينها أصوات تقول : « لانريد ان نحارب الاحباش ! لانريد أن نطلق النبال على النوبيين المـــرافقين لبعنخى ! »

واندفعت سيفين على رأس فريق من الجنود المصريين ، وقـــد اختلطت بهم النسـاء ، الى مقر الجنود اللوبيين الذين كانوا معتصـمين بحى من أحياء المدينة ، فسلم اولئك الجنود انفسهم بلا قتال ،وساقت سيفين أمامها قائدهم اللوبى ، وخرجت مع رفاقها ورفيقاتها من المدينة الى السهل الذى ضرب فيه بعنخى خيامه .

وقصدت النساء الى المكان الذى كان الملك جالسا فيه . يحيط به قادة الجيش ورجال الحرس ، فخاطبته سيفين بجرأة قائلة :

ـ ايها الملك الصديق ! كان فى استطاعة الامير ـ نملوت ـ حاكم هذه المدينة ان يقاوم جيشك ويصدك عن الاسوار خاسرا خائبـــا . ولكنه يصغى الى صوت الدم ويؤثر التعاقد مع ملك يمت بالنســـب الى ملوك مصر ، على البقاء وفيا لملك غريب عن الديار . فاقطـــع على نفسك عهدا بان لاتلحق بنا أذى ، ونحن نسلم اليك المدينة ونتصافى ونتحالف . وهاأنذا زوجة نملوت ، واولئك هن نســاء القصر وزوجات القواد وبناتهم . ويتقدمن اليك طالبات منك الامان والسلام !

فنهض بعنـــخى وبســـط ذراعيه قائـــلا :

ـ عليكن السلام ، ولكن الامان !

ودخل الملك المدينة بلا قتال وقصد الى قصر « نملوت » فوجد الامير المصرى فى انتظاره أمام الباب الكبير ، وحوله قواد الجيش والاعيان فبادره الملك بقوله :

ـ من اضلك يانملوت ؟ من أضلك ؟

ـ خدعت ايها الملك وظننت اننى أسير فى سبيل المجد ... !

وتصافح الرجلان فقال الملك :

ـ نحن لانضمر لهذه البلاد شرا ، وماجئنا الا لننقذ أبناء العم من النير الاجنبى ونقيم فى البلاد حكما عادلا ..

وحل الملك « بعنخى » فى تلك الليلة ضيفا على الامير نملوت ، واتفق الاثنان على استئناف الزحف فى اليوم التالى لمطاردة الملك « طفنخت » وفلول جيشه .

ولكن الامير المصرى طلب من الملك الحبشى معاملة الحامية اللوبية بالرفق والحسنى ، فأقره الملك على طلبه ، وسمح له باطلاق سراح الجنود اللوبيين الباقين فى المدينة مع قائدهم ، على أن لايحاربوا الاحباش ولا يعتدوا على المصريين فى المستقبل .

وعندما طلع فجر الغد ، أرسل نملوت فى طلب القائد اللوبى الذى اسرته زوجته ـ سيفين ـ فى اليوم السابق ، ولكن الرسول عاد يقول :

ـ لم نجد القائد ايها الامير ! .. ولم نجد فى الحصن اللوبى احدا من الجنود !

دهش «نملوت» وهم بالخروج من القصر ليتحقق بنفسه من اختفاء اللوبيين ، ففوجىء بصياح منبعث من الجناح الخاص بالنساء .. واذا ببعضهن يهرعن اليه باكيات ويقرعن الصدور ، فسأل الامير مذعورا :

ـ ما الخبر ؟

فالقت احدى النساء بنفسها على قدميه ، وعفرت جبينها بالتراب منتحبة قائلة :

ـ مولاى ! مولاتى سيفين ! اواه أواه .. !

ـ مولاتك ؟ ما بها ياامرأة ؟

ـ ماتت ! ماتت ...

ـ سـيفين ماتت ... ؟

ـ قتلوها !.. فلتعش انت من بعدها يامولاى !

أسرع الامير المصرى الى حجرة زوجته ، فاذا به امام جثة هامدة طوق عنقها بشعرها فماتت خنقا .. وأبصر الزوج فى ركن من اركان الحجرة رجلا غريبا لايعرفه . احاطت به النساء وأوثقنه ، فسأل غاضبا ، وعيناه تقدحان شررا :

ـ من الرجل ؟

فأجاب الغريب برباطة جاش وبصوت جهورى :

ـ عبد من عبيد القائد اللوبى ـ فخت ـ امره سيده بان يخنق المراة فنفذ الامر . ويقول سيدى أن هذه المرأة كانت سببا فى ضياع المدينة ودخول الاحباش اليها امنين مطمئنين . وقد انتقمنا لانفسنا . ورحل رجالنا عن دياركم بعد أن اخذنا بالثأر ..

فامر نملوت بضرب عنق القاتل . وركع أمام جثة زوجته الحكيمة الباسلة فبكى بكاء مرا ، ثم بسط يده فوق رأسها قائلا :

ـ سوف انتقم ياسيفين ، وسوف اغسل بالدم العار الذى لحق بى ، لانى لم اصغ فى بادىء الامر الى نصائحك !

وانطلق « نملوت » على راس جيش من جيوش الاحباش والمصريين فى طلب الاعداء ..

واستانف « بعنخى » الزحف الى الامام فمزق فلول اللوبيين فى المعارك ، وما مرت شهور حتى كان الملك « طفنخت » قد لجأ الى الصحراء وانفض من حوله الانصار فبعث الى بعنخى يقول :

« اننى أشقى الرجال أيها الملك . وقد تولانى الخوف والجزع .. وانا الآن فريسة الجوع والعطش . فقل لى انك عفوت عنى لكى اسلم نفسى اليك أيها الملك العادل المظفر »

فعفا عنه بعنخى ، وطلب اليه أن يعود الى بلاده ، ففعل .

اما « نملوت » فقد أجابه « بعنخى » الى رغبته ، وسلمه القائد اللوبى « فخت » فذبحه الامير المصرى ذبح الانعام فى المكان الذى قتلت فيه زوجته سيفين ..

وعاش الاحباش والنوبيون والمصريون فى أمان ووئام مدة من الزمن



ان قوة من السماء تحمى مصر ،
والرب يرعاها وينقذها من الخطر ،
اذا ماتضعضعت فيها القوى البشرية،
ولم يبق لها مرجع غير القوى الالهية!

صعدت « امنيريتس » محفوفة بالجلال درجات السـلم المؤدية الى المنصة ، حيث يتجلى « آمون رع » على عرشـه ، يشع منه النور وتنبعث من جبينه الرهبة . وجثت على ركبتيهامسدلة على وجهها خمارها الناصع البياض ، وتمتمت دعاء بينها وبين الرب الباسط حمايته على وادى النيل ، من ساحل البحر الى مجاهل الجبال والوهاد الافريقية . ثم نهضت ، ولمست بيدها قاعدة التمثال النير ، والتفتت الى الكاهنات التابعات لها ، والجاثيـــات على بلاط الارض داخل هيكل آمون رع فى مدينة « نباطة » عاصمة الدولة النوبيـــة فى مصر العليا ، حيث يجلس على العرش كهنة آمون ، فيجمعـون فى يد واحدة السلطتين الروحية والمدنية .

وقالت امنيريتس ، كبيرة الكاهنات ، وزوجة « شاباكا » الـكاهن الاعظم ، وصاحب العرش فى آن معا ، مخاطبة زميلاتها الكاهنات :

ــ تعلمن ايتها الاخوات العزيزات ان زوجى الملك الكاهن زاحف الآن على راس جيشه لتوطيد دعائم سلطته فى الوجهين الشمالى والجنوبى فعلينا نحن ان نرفع اكف الضراعة الى آمون رع القادر على كل شىء ، ليدفع عن كاهنه كل خطر ، ويأخذ بيده ، وينصره على أعدائه . وما اجتمعنا فى هيكل الرب العظيم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، الا لكى نصلى ونتعبد ونحرق البخور لآمون !

وارتفعت ترانيم الكاهنات فى فضاء الهيكل الفسيح ، حيث المشاعل ترسل نورا مضطربا ترقص فى تموجاته سحب الدخان ، فتتكون منها رسوم واشباح تفسرها كبيرة الكاهنات تفســيرا تؤكد انه من وحى آمون نفســـه ..

ان الرب يستمع الى صلاة كاهناته ، ويعد بأنه ســيستجيب دعاءهن ، لان دخان هذا المشعل ينعقد فى صورة يد مبســوطة ، ولان دخان ذلك المشعل ينعقد فى شكل رأس تنحنى رويدا رويدا ، ومعنى هذا أن آمون سيخضع النصر لعبده وكاهنه شاباكا

ومضى الليل والكاهنات فى تعبد ، يصلين ويحرقن البخور ..

وكان شاباكا فى طريقه الى الشمال ، لاحتلال المدن والمقاطعـات التى شقت عصى الطاعة بعد موت فرعون « كشتا » ابن فرعون بعنخى وقد ترك الكاهن الملك زمام السلطة فى عاصمته نباطة أمانة فى يد اخته وزوجته امنيريتس ، كبيرة الكاهنات ، وصاحبة الرأى السديد ، والفكر الثاقب ، والنظر البعيد ..

انها فى آن واحد الاخت ، والزوجة ، والصديقة ، والزميلة ، والمرشدة ، والرفيقة الصالحة الامينة . وهى التى حرضت زوجها ـ وهو ايضا اخوها ـ على استئناف السياسة التى سار عليها الجد بعنخى الملك الكاهن الحبشى النوبى ،الذىجعل عرشه رفيع العماد مرهوب الجانب ، ووحد وادى النيل فى دولة شملت مصر السفلى ومصر العليا وبلاد النوبة واثيوبيا ، وترك فى كل اقليم اميرا يحكم ويؤدى الجزية ، ولكن اولئك الامراء شقوا عصا الطاعة بعد موت الملك فتفككت أوصال الدولة ، واضطرب الامن ، واختل النظام ، وسادت الفوضى . .

ولكن الرب « آمون رع » ابى ان تنهار مصر فى هوة الهلاك ،فقيض لها من ينقذها فى ساعة الخطر ، واستجاب دعاء كبيرة كاهناته « امنيريتس » اخت الكاهن الملك « شاباكا » فانتصر الجيش الزاحف على الامراء والعصاة والمتمردين . وما اقبلت سنة ٧١٢ قبل الميلاد ، حتى كان فرعون شاباكا ، كاهن آمون النوبى ، قد وحد الوادى بشطريه : ضم الشمال الى الجنوب ، واعاد الكيان المصرى النوبى الى ما ارادته الطبيعة ان يكون ، دولة واحدة يسكنها شعب واحد وتخضع لسلطة واحدة ويدافع عنها جيش واحد . هذا ما صنعه الملك الكاهن النوبى، وهذا ما صنعه غيره ، قبله وبعده ، من الملوك الشماليين او الجنوبيين على السواء

***

لما استتب الامر لشاباكا النوبى فى نباطة وطيبة ، جمع فرعون حوله اعيان البلاد وذوى الراى الراجح وطلب منهم أن يعاونوه فى تطبيق سياسة الاصلاح والانعاش التى كان الفراعنة الوطنيون يطبقونها من قبل ، والقائمة على نشر العلم وشق الطرق وفتح الترع واقامة السدود وتشجيع الصناعة والزراعة وتقوية الجيش . فلبى القوم نداء فرعون وعرفت البلاد عهدا من الرخاء والهدوء دام بضعة أعوام

ولكن الغزاة الذين انطلقوا من بلاد « أشور » كانوا فى أثناء ذلك يتقدمون جنوبا وغربا ، ويجتاحون الاقطار والامصار ، فغلبوا الحيثيين على امرهم ، وتدفقت جموعهم على سهول سورية وجبال لبنان وساحل فينيقية وهضاب فلسطين ، فاستنجد سكان هذه البلدان بفرعون مصر شاباكا وطلبوا منه المعونة لصد ذلك الطوفان الجارف . . وتبادل فرعون الراى مع اخته وزوجته امنيريتس ، داخل هيكل آمون رع ، وقررا ان يلبيا النداء وان يزحف فرعون على راس جيشه لنجدة الجيران المهددين بالفناء . .

وكانت الانباء التى وصلت الى شاباكا عن قوة الغزاة وعددهم وعدتهم خاطئة لاتتفق مع الحقيقة والواقع ، فاستخف فرعون بالجيش

الاشورى الزاحف ، وهب للقائه قبل ان يستكمل الجيش المصرى عدده وعدته . وكان فرعون يرمى الى هدف مزدوج : انقاذ البلدان المجاورة من الوقوع فى قبضة الغزاة الاشوريين ، من ناحية ، وابعاد الخطر عن حدود مصر باقامة حاميات مصرية فى تلك البلدان بعد تحريرها ، من ناحيـــة أخرى.

ومشى شاباكا على راس جيشه ، فاجتاز الصحراء الشرقية ، فى طريقه الى فلسطين . وقبعت امنيرتس كبيرة الكاهنات فى هيكل آمون رع ، ودعت رفيقاتهـا الى استئنـــاف الدعاء والتضرع الى الرب ، ليشمل زوجها وجيشه بعين عنايته ، ويبعد الضرر عن مصر الآمنـــة المطمئنة . .

ورددت الكاهنات ترتيل امنيرتس كبــيرتهن وزوجة الــكاهن الملك :

« ايها الرب القادر على كل شيء ، يا مانح النور ومبدد الظلام ، يا باعث الحرارة فى الاجسام،ومنبت الزرع من الارض ، وموزع الخيرات على البشر بالعدل والانصاف . يارع آمون ، ملك الملوك وسيد الاسياد، وساكن السماء ، وحارس الارض ، كن لجيش مصر عونا ، ولقـــائده نصيرا ، واستجب لدعائنا اليوم كما استجبت له بالامس ! . . انقـــذ مصر من عدوها الزاحف من الخارج كما انقذتها من الخراب والانهيـــار فى الداخل ! »

واستجاب آمون رع النداء مرة ثانية ، فقد راى شاباكا حلمـــا مزعجا وهو فى طريقه الى مدينة غزة على حدود مصر :

راى كرة نيرة تقترب منه رويدا رويدا ، وكلمـــا اقتربت خف لمعانها وضعف نورها ، حتى اذا ما لامست جبينه ، اصبحت قاتمـــة باردة كانها كرة من رخام . . ثم جعلت تبتعد من جديد وتصعدمرتفعة فى الفضاء ، وكلما ابتعدت ، عاد اليها النور واشتد الوهج المنبعث منها . . ثم اختفت فجأة واستيقظ فرعون من نومه مذعورا . .

وقال العرافون : « ان هذا الحلم معناه ان العودة الى مصر خــير واوفى . . فاذا بقيت هنا مع جيشـــك فان نورك سوف ينـــطفيء ، وستتطرق اليك برودة الموت . . اما اذا ابتعدت قبل ان تصل الجحافل الجرارة الزاحفة علينا ، فانك ستحتفظ بنورك وبحياتك : وتســـتعد لاستئناف الحرب بعد ان يستكمل جيشك عدته ! »

وادرك فرعون أن الذين افضوا اليه ببياناتهم عن قوة الغزاة قد خدعوا عن قصد أو عن غير قصد، وان آمون رع ، الذى يشمل مصر برعايته ، اراد أن ينقذ كاهنه الاعظم وجيشه الصغير من هلاك اكيد . .

وكانت طلائع الجيش قد التقت فعلا بالغزاة عند مدينـة غزة ، وعرفت مبلغ قوتهم وقدرتهم ، فرأى فرعون أن يعمد الى الحيـلة ـ والحرب أحيانا ليست أكثر من حيلة ـ فترك حامية لتشغل الزاحفين عند حصن « رافيا » ـ ونسميها اليوم « رفح » ـ وعاد ادراجـه واعتصم فى أرض مصر للدفاع عنها فى حالة هجوم الغزاة عليها

ولكن الاشوريين لم يواصلوا الزحف ، بل اعتقدوا أن انسحـاب فرعون خدعة يراد بها استدراجهم الى كمين : ليقعوا فى فخ تصبـه لهم المصريون ..

وهكذا كان تقهقر الجيش المصرى فى الواقع نصرا له ، فقد وقف زحف الاشوريين عند الحدود ، واتيح لفـرعون أن يسـتكمل عدته استعدادا للطوارىء

وارتفعت فى فضاء الهيكل الحان التراتيل ، وشـكرت امنيريتس وكاهناتها مرة أخرى الاله آمون رع على استجابة الدعاء ودفع الخطر عن الوادى !

ظل شاباكا ساهرا على سلامة دولته الى أن وافته المنية فى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ، بمدينة طيبة عاصمة المملكة . واقتسم الملك من بعده ابنه « شاباتوكا » واخوه « بعنخى الثانى » فاستأثر الابن بالوجه البحرى واستأثر الاخ بالوجه القبلى وبلاد النوبة ، محتفظا بالعاصمتين : نباطة وطيبـة ..

وبقيت امنيريتس فى هيكلها ، على رأس الكاهنات المتعبـدات حارقات البخور امام آمون رع . وخلف بعنخى اخاه شاباكا فى منصب الكاهن الاعظم ايضا ، كما خلفه على سرير الملك ، وبسط يده لمصافحة كبيرة الكاهنات ، امنيريتس ، اختـه وزوجة اخيه ..

ووعدته امنيريتس بأن تكون له صديقة وفية ومرشدة امينة كما كانت بالنسبة الى اخيه شاباكا . ولكن بعنخى كان يريد اكثر من هذا : كان يريد امنيريتس زوجة له ايضا كما كانت زوجة لاخيه عملا بالتقاليد المتوارثة فى ذلك العهد ، والمرعية بين افراد الاسر المالكة ، وهى تقـضى بأن يتزوج الملك اخته ، وان يتزوجها اخوه من بعده ، وأبن احـد اخوته اذا مات عنها الاخ الثانى ..

ولم تكن امنيريتس تشعر بميل الى بعنخى ، بالرغم من انه اخوها مثل شاباكا زوجها الاول . غير أنها اجابته الى رغبته ، ورضـيت بأن تصبح زوجة له كما كانت زوجة لسلفه ، لانها ادركت مبلغ الضعف عنده بالنسبة الى ذلك السلف ، وانه سينوء تحت العبء اذا ما ادلهم الخطب وهدد البلاد خطر جديد ..



فرعون والـكهنة فى داخل الهيكل

ارادت امنيرتس أن تظل رقيبة على الملك ، ساهرة على سلامة الوطن ، فرضيت بان تصبح زوجة لاخيها الثانى ، لكى تضمن قيامه بواجب الدفاع عن بلاده ، كما فعل اخوه وسلفه شاباكا .

ولم تكن مخاوف كبيرة الكاهنات فى غير محلها . فقد تحرك الاشوريون مرة اخرى وهموا بالزحف على مصر ، فتشاور بعنخى الثانى مع زوجته ، وقررا ان يفعل فرعون ما فعله سلفه من قبل ، فيسير على راس جيشه لملاقاة العدو خارج الحدود .

***

وزحف بعنخى الثانى سالكا الطريق الذى سار فيه من قبل اخوه شاباكا ..

وقبعت اخته وزوجته ، امنيرتس ، فى هيكل امون رع مرة اخرى وحولها رفيقاتها الكاهنات المتعبدات ، وارتفعت فى الفضاء انغام الصلوات وتصاعد دخان البخور بين الاعمدة الملساء ، ورددت الكاهنات دعاء كبيرتهن وتضرعها الى آمون بان يرعى الملك الكاهن بعين عنايته ، ويبعد عنه الضرر ، وعن جيشه الهزيمة ..

ومضت إيام لم تصل فيها انباء من الجيش الزاحف . .

وفجاة ، وفد على مصر الرسل ، حاملين من الاخبار مالا يدعو الى الغبطة والارتياح : أن حلفاء المصريين قد انهزموا قوما بعد قوم .. والجيش الاشورى اللجب يتدفق كالسيل الجارف من كل فج وصوب وعدده يبلغ اضعاف الجيش المصرى ، بالرغم من انضمام قوات الشمال التابعة لفرعون شاباتوكا الى قوات الجنوب التابعة لبعنخى ..

اذن ، قد تقع الكارثة بين عشية وضحاها . وقد يقتحم الاعداء حدود مصر ، وتتدفق جحافلهم على الدلتا ثم على الجنوب ..

وانت يا آمون رع تنظر الى هذا كله وتنير العالم بأشعتك المنعشة ؟

ورفعت الكاهنات المتعبدات اصواتهن بالصلاة والتضرع ،وعمدن الى الصوم فامتنعن عن تناول كل طعام وكل شراب عدا الماء القراح والتمر الجاف .. ورددن مع كبيرتهن امنيرتس الدعاء الحار الاتى :

« يا آمون رع ! .. لقد انقذت وادينا من الانهيار الداخلى ، ثم انقذته من الخطر الخارجى ، وليس لنا اليوم من شفيع غيرك ،فاجعل جيشنا الصغير يتغلب على جيش الاعداء الكبير ، واجعل معداتنا القليلة أشد فتكا من معداتهم الكثيرة !.. يا امون رع ، اذا لم تكن القوة البشرية

كافية لدفع الخطر عن حدود مصر فى هذه المرة ، فارسل الينا قوة من عندك ، واطلق الاوبئة من عقالها ، لكى تفتك بالعدو الزاحف وتوقفه فى مكانه خائر القوى ، فاقد العزم .. ياآمون رع »

واستجاب الاله النير ، دعاء الكاهنات فى هذه المرة أيضا كما استجابه فى المرتين السابقتين .

واطلق آمون رع وباء الطاعون من معقله ، فانقض على الجيش الاشورى وهو يقترب من الحدود وفتك به فى بضعة ايام ، فتشتت شمله ، وتضعضعت كتائبه ، وتراجعت فلوله عائدة من حيث اتت

وابتعد الخطر عن مصر ... وابتعد ايضا عن بلاد حلفائها وجيرانها ...

وحبست امنيريتس نفسها فى هيكل آمون ، وقضت البقية الباقية من حياتها فى العبادة والصلاة . ودعت نساء الوادى ، من شماله الى جنوبه ، الى تقديم القرابين للاله حارس البلاد ، وتقديم حليهن لاعانة الجيش ...

فمصر فى حماية هذا وحماية ذاك .. وان عجز الجيش عن انقاذها فالرب ينقذها .. لتبقى فى عالم الفناء خالدة الى ابد الابدين





يقول المثــل السائر ـ وهـو صـــادق : « انا واخي على ابن عمي، وانا وابن عمي على الغريب »

دخل اعضاء الوفد النوبى واحدا بعد واحد الى القاعة الكبرى ، حيث استوى « قمبيز » على عرشه ، وخروا امامه ساجدين وقبلوا الارض بين يديه . فأشار اليهم ملك الملوك بأن يقفوا ، واذن لهم بأن يبسطوا الغرض من مثولهم فى حضرته ، فتقدم واحد منهم ، ولثم طرف الطيلسان الملكى ، ورفع يده بالتحية على الطريقة المصرية ،وقال:

ـ ايها المولى المعظم الشجاع ، جئنا اليك عشرون من ابناء « كوش » المقيمين فى مصر ، ومعنا امراة واحدة ليست أقل شأنا من الرجال ، فهى كاهنة وابنة كاهن ، وساحرة واخت ساحر ، وطبيبة وزوجة طبيب . والخطة التى جئنا نعرضها عليك ، انما هى من بنات افكارها ..

فقد رأت « داشيتا » ، الكاهنة الساحرة الطبيبة ، أن يذهب وفد من النوبيين النازلين فى أرض مصر ، مزودا بثقتك ايها المولى المعظم الشجاع ، والسيد المنتصر المطاع ، الى ارض « كوش» الواقعة جنوبا ، لينصح ملكها بان يقدم لك فروض الطاعة والخضوع ، ويبعث اليك بالهدايا دلالة على تلك الفروض ، ويعبىء جيشه ، ويضعه تحت تصرفك اذا اقتضت الحاجة ذلك ، ويوفد من ناحيته الرسل الى بلاد الحبشة وارض « ميروا » وما وراءها من بقاع واصقاع داعيا الشعوب والقبائل الضاربة فيها الى أن تنسج على منواله ، وتصنع ما هو صانع !

وسكت الرجل .. فرفع « قمبيز » راسه ، وحدق ببصره فى الجماعة ، وسال بصوت جاف قاطع :

ـ اين داشيتا ؟

فخرجت من بين الجماعة امراة فى مقتبل العمر ، عليها مسحة من الجمال المقرون بالجلال ، وانحنت أمام الملك ثم رفعت يدهابالتحية، وأجابت على السؤال :

ـ أنا هى : الطبيبة الساحرة الكاهنة ، التى حدثك عنها هذا الرجل يا قمبيز . وانتى لاأشك لحظة واحدة فى قدرتى على اقناع ملك « كوش » بالاذعان الى مانحن معولون على طلبه منه . فهو رجل عاقل رزين . وهمه الوحيد ، منذ أن تولى عرش بلاده ، أن يجنبها

ويلات الحروب ، ويضمن لها العيش الرغد والطمأنينة والسلام . ولن يتحقق له ذلك ، فى عرفنا ، الا بالخضوع لسلطانك والطاعة لارادتك بعد أن احرزت ما أحرزته من انتصارات فى مصر !

وسكتت المرأة ، فعاد قمبيز يسأل :

ـ وماذا تطلبون منى مقابل قيامكم بهذه المهمة وادائكم هذه الرسالة ؟

فاجابت داشيتا :

ـ ان توفر لنا وسائل الانتقال ، وتمنحنا رضاك !

وحدق قمبيز البصر مرة اخرى فى المرأة ورفاقها ، ثم اشار اليهم بالخروج قائلا :

ـ غدا ، فى مثل هذه الساعة تأتون الى لسماع رأيى فيما تقترحونه على ! . .

***

كان قمبيز ملك الفرس قد هاجم مصر واقتحم حدودها ودك حصونها وقلاعها فى عهد فرعون « بسماتيك الثالث » . ودافع المصريون عن بلادهم دفاع الابطال المستميتين . وقاتلوا قتالا مجيدا فى كل شبر من ارض ابائهم واجدادهم . ولكن الجيوش الفارسيةالجرارة كانت تدفعهم أمامها دفعا بكثرة عددها ووفرة عدتها ، ولما سقطتاقاليم مصر السفلى فى أيدى الغزاة الفاتحين ، جمع بسماتيك البقية الباقية من فلول قواته ، واعتزم ان يموت تحت انقاض عاصمته « منف » ، قبل أن تدنسها اقدام الفرس ويتربع فى قصرها الملكى سيدهم وقائدهم .

وشعر ـ قمبيز ـ بأن اخذالعاصمة المصريةعنوةسيكلفه ثمنا باهظا، فاوفد رسله الى فرعون يعرضون عليه التسليم والصلح ، ولكن « بسماتيك » أمر بذبح الرسل ورفع اشلائهم على الاوتاد فوق الاسوار ، وتلك كانت عادة الملوك فى اعلان رفض الشروط التىيعرضها عليهم ملوك اخرون فى سبيل وضع حد للقتال . فثارت ثائرة الفاتح الفارسى ، والقى بجيشه كاملا الى المدينة ليقتحم اسوارها ، وبعد معركة استمرت عشرة ايام بلياليها ، كان النصر حليف الغزاة ، ووقع فرعون فى الاسر ، وحكم عليه « قمبيز » بان يشرب دم ثور اسود ، فشرب ومات ، واستوى الفارسى منذ هذا الوقت على عرش الفراعنة الذى توالى عليه ملوك من غير ابناء مصر مائة واحدى عشرة سنة

اى من عام ٥٢٥ الى عام ٤٠٥ قبل الميلاد ، وهم الذين عرفوا باسم الاسرة السابعة عشرة .

وبعد ان استقرت الامور لقمبيز فى مصر وفر الباقون من انصار « بسماتيك » وذويه واعوانه فاختبأوا فى المستنقعات الممتدة على ساحل البحر المتوسط ، راح الفاتح يفكر فى غزوات جديدة ، ويطمع فى بسط سلطانه على ما تبقى من ممالك فى القارة الافريقية ، فى غرب مصر وجنوبها ..

فى تلك الظروف ، تقدم اليه فريق من النوبيين مع المرأة « داشيتا » ، عارضين عليه خدماتهم ، فى سبيل تحقيق ما كان يطمع فيه ويتطلع اليه .

لم تكن داشيتا نوبية كما تبادر الى ذهن العاهل الفارسى من خطابها وخطاب رفيقها النوبى ، بل كانت مصرية صميمة ، تمت الى الاسرة المالكة : فهى ابنة عمة فرعون « بسماتيك الثالث »

اراد « فرعون احميس » ابو بسماتيك ، ان ينشر عبادة الهة مصر فيما وراء شلالات النيل ، حيث كانت الديانة المصرية قد اكتسبت اتباعا عديدين ، فزوج أخته لكاهن من المقربين اليه ، اسمه «بانيحور» كانت أخته من ناحيتها زوجة لملك كوش ــ وهى شمال النوبة وجزءمن السودان . وجاءت داشيتا ثمرة ذلك الزواج بين الكاهن واخت فرعون ..

ورزق « بانيحور » من زوجته الاميرة ابنا احترف السحر ومخاطبة الارواح .. ولما بلغت الفتاة « داشيتا » سن الزواج ربطت حياتها بامر من فرعون ومن ابيها الكاهن ، بطبيب كوشى كان موضع ثقة قومه ، ومن المقربين الى الملك زوج عمتها اخت الكاهن بانيحور

وهكذا اصبحت الفتاة ، كما وصفها المتكلم بلسان الوفد النوبى امام قمبيز : ابنة كاهن ، واخت ساحر ، وزوجة طبيب .. وكانت مثلهم طبيبة وساحرة وكاهنة ..

هذا ما لم تقله « داشيتا » لقمبيز المنتصر المتغطرس . ولم تقل له ايضا ان اباها الكاهن ، واخاها الساحر ، وزوجها الطبيب ، قتلوا جميعا بايدى الفرس ، وهم يدافعون عن مدينة «منف» عاصمة مصر . فقد كانوا دائمى التنقل بين جنوب الوادى وشماله ، بين وطن لهم فى كوش ، ووطن لهم فى مصر : فالعشيرة بعضها هنا وبعضها هناك . . والالهة هناك وهنا واحدة . وفى كوش كانوا يغتسلون فى مياه النهر المبارك ، ثم يتبركون بها فى مصر ، يوم تغدق خيرات فيضانها

على الوادى المقدس .. وفى كوش تنشر الاسرة تعاليم دين تستلهم مبادئها من مهابط الوحى فى « منف »

وقد فاجأ القوم الغزو الفارسى فى احدى رحلاتهم الى مصر فحملوا السلاح مع المصريين للدفاع عن الشطر الشمالى من الوادى اقتناعا منهم بان الدفاع عنه انما هو دفاع عن الشطر الاخر ، الشطر الجنوبى ، وهذا وذاك عليهما عزيزان !

مات الثلاثة ميتة الابطال : الاب الكاهن ، والزوج الطبيب والاخ الساحر . وبقيت « داشيتا » يتيمة وحيدة ثكلى ، تنشد الثأر للضحايا الثلاث ، ولاتجد اليه سبيلا ، بعد ماحل بمصر ، أحد وطنيها ،من احن وويلات .. ولكنها راحت تفكر وتطيل التفكير ، وتبحث وتمعن فى البحث ، حتى هدتها الالهة الى راى ما ، افضت به الى جماعة من الكوشيين المتخلفين فى مصر ، حتى وافقوها عليه وتعهدوا لها بأن يساهموا معها فى وضعه موضع التنفيذ .

ويرمى ذلك الرأى الى ايقاع الفاتح الفارسى فى شرك ينصب له . فقد وضح لكل ذى بصيره ، بعد سقوط « منف » وقيام الحكم الفارسى فى مصر ، أن ـ قمبيز ـ ينوى المضى فى طريقه الى فتوحات جديدة ، وان النوبة وكوش وما وراءهما من بلدان معروفة أو مجهولة ، ستكون هدفه القادم ان عاجلا او آجلا . فلا بد اذن من تمهيد السبيل لتكون تلك البلدان مقبرة لجيوشه الجرارة ، وذلك بتحريضه على دفع تلك الجيوش الى المجاهل الافريقية ، من ناحية ، والتامر عليه من ناحية اخرى مع ملك الكوشيين وزعماء القبائل المجاورة له ، لكى يتظاهروا بالطاعة والخضوع ، فى حين أنهم فى الواقع يخلون البلاد من أهلها ، ويجردون الارض من نباتها ويقطعون غاباتها ، ويردمون ابارها ويحولونها الى صحراء قاحلة .

ووقع « قمبيز » فى الفخ ، وزود الوفد النوبى بالمال والركائب والهدايا ، وراح يعد جيوشه لاستئناف الزحف

قابل ملك كوش مواطنيه القادمين من مصر بالترحاب . واصغى الى ما أطلعوه عليه من حقائق ووقائع . وأدرك أن خلاصه وخلاص قومه وبلاده وجيرانه فى العمل بالنصائح الغالية التى حملتها اليه « داشيتا » الوفية الامينة . فأوفد فى الحال رسلا الى مصر يدعون قمبيز الفارسى للسير الى كوش ومنها الى الحبشة وارض « ميروا » . وأوفد فى آن واحد جماعات من رجاله الى القرى والمزارع الواقعة على الطريق ، حول مجرى النيل أو فى بطون البادية أو وسط الغابات فأخلوها من سكانها وأضرموا فيها النيران ، وقطعوا الاشجار ولم يتركوا اثرا لماء فى بئر أو فى عين . وارغموا الوحوش والطيور على

الخروج من الادغال والفرار امام النيران الملتهبة . ولما تقدمت جيوش الفرس بمعداتها ، على أمل ان تجد الشعوب فى طريقها ساجدة تقدم الهدايا وتتسابق الى خدمة الفاتحين وتوفير أسباب الراحة لهم ، اذا بها لاتجد غير قفر موحش لا ماء فيه ولا نبات ، ولا أنس ولا حيوان ولا طير ..

واستمعت الآلهة الى دعاء « داشيتا » ، ابنة الكاهن واخت الساحر وزوجة الطبيب ، فانطلقت قوى الطبيعة من عقالها وهبت الرياح العاصفة الهوجاء من كل صوب ، وسلط الآله المتربع على عرش الشمس أشعته الحارقة على رءوس الجنود الاغراب فكانت أشد وطأة عليها من السهام الفتاكة ، وانطلقت فى الجو سحب من الرمال تسفيها الرياح فى وجوه الزاحفين ، ثم تركمها وتلقيها عليهم تلالا فوق تلال ، فخيل الى قمبيز أن الجحيم قد تفتحت ابوابه ومنافذه ، وأدرك أن نجاته فى العودة على أعقابه من حيث اتى ..

ولكن ، كيف السبيل الى العودة وقد قطعت جيوشه تلك المسافات الشاسعة واصبحت فى اعتقاده قاب قوسين أو أدنى من الهدف المنشود ؟! ..

ولما ايقن الفاتح العظيم أن انتصاره فى مصر يتحول هنا شيئا فشيئا الى كارثة ماحقة ، وان المرأة التى جاءته مع وفد من النوبيين قد غررت به وخدعته ، وانه وقع فى فخ نصب له ، وانقاد لمكيدة حاكت خيوطها انامل كاهنة ساحرة تفقد عقله فاذا بعقله قد ضاع ، وحاول ان يفكر فى طريقة تخرجه من ذلك المأزق الحرج فاذا بذهنه عاجز عن التفكير ..

نعم : اصيب قمبيز بالجنون وسط العواصف والأعاصير والرياح العاوية كالذئاب ، فى الصحراء النوبية القاحلة الجرداء !

ولم تكن الجماعات الفارسية التى وصلت الى مصر عائدة من تلك الحملة المرعبة ، جيشا يخشى جانبه ، بل كانت فلولا متقطعة الاوصال ، واشباحا لرجال كانوا بالأمس فى مصاف الابطال !

ولم يكن القائد الذى عاد الى مصر مع تلك الفلول غير شبح ايضا . شبح الفاتح العظيم الذى دوخ العالم وهزم الجحافل فى كل مكان ، فدوخته حيلة امرأة ، وهزم جيشه بلا قتال ، فى أرض لا اثر لعدو فيها !..

واعتقد قمبيز أن الهة مصر حالفت المصريين عليه ، فأمر بهدم هياكلها وتحطيم تماثيلها ، ودفعه جنونه الى ذبح العجل أبيس ، الذى

شاءت الظروف أن يولد فى اليوم الذى وصل فيه ملك الفرس الى منف عائدا من غزوته الخائبة !

ولم يعش قمبيز أكثر من عام واحد بعد تلك الصدمة ، فقد مات فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد ..!

اما « داشيتا » ، فقد بقيت فى وطنهـا الثــانى « كوش » حيث احاطها القوم بمظاهر التبجيل والتكريم ، لانها فى نظرهم قد انقـذت وطنهم من الوقوع فى عبودية الفرس ، بحملها الملك على تنفيذ الخطـة التى تفتق عنها ذهنها . وأحاط المصريون أيضا ذكرها واسمها بالاجلال والتقدير لانها كانت سببا فى اهلاك الجيش الفارسى ، ودفع العاهل الفاتح قمبيز الى الجنون فالموت ، مما ادى الى اضعاف حملة الارهاب الرامية الى افناء السكان .

وعاشت « داشيتا » الكاهنة ابنة الكاهن ، الساحرة أخت الساحر، الطبيبة زوجة الطبيب ، بقية ايامها قريرة العين مرتاحة الضـمير . فقد ثارت لاحبائها الثلاثة ، الاب والاخ والزوج ، الذين قتلوا فى سبيل مصر ، وثارت للوطن الاول الذى انجبها ، ودفعت الشر عن الوطن الثانى الذى احتضنهـا !





فى وسع المذنب ان يكفر عن ذنوبه فى ميدان البطولة ، وخير تكفير عن الذنوب هو الاستشهاد فى سبيل الوطن !

في سنة ٥٢٥ قبل الميلاد وقعت مصر تحت حكم الفرس الذين غزوها بقيادة ملكهم قمبيز الجبار العاتي . ودام هذا الحكم الاجنبي البغيض اكثر من قرن من الزمن . ولكن تخللته ثورات متواصلة قام بها المصريون لاسترجاع حريتهم واسترداد وطنهم من غاصبيه .

في النهاية خرجت فلول الفرس من وادي النيل ، بعد أن مات منهم من مات فكانت مصر مقبرة لهؤلاء ، كما كانت وكما ظلت فيما بعد،مقبرة لغيرهم من الغزاة والطامعين .

ثورتان من تلك الثورات المصرية المتلاحقة لعب فيهما نزلاء السجون دورا وطنيا رائعا ، كفروا به عن ذنوبهم ، ومحوا به عارهم واستعادوا بهائه سمعتهم التي لطختها الاعمال التي اقترفوها من قبل واستحقوا من اجلها أن يدخلوا السجن عقابا وتأديبا .

من سنة ٤٦٢ الى سنة ٤٥٦ قبيل الميلاد : اي خلال ستة اعوام كاملة ، رفعت مصر لواء العصيان على الاجنبي الحاكم ، وتحالف اللوبيون واليونانيون مع المصريين لمحاربة الفرس ، باعتبارهم العدو المشترك . وقاد تلك الثورة الرائعة الشاب « ايناروس » وهو من أسرة لوبية تمت بالنسب الى الاسرة المالكة بمصر والتي شتت الفرس شملها يوم اجتاحوا البلاد بجحافلهم .

لم يكن عند « ايناروس » يوم بدأ ثورته عدد كاف من الرجال وكمية كافية من السلاح . فعمد الى خدعة كان نصيبها النجاح وأدت من ناحيتها الى نجاح الثورة .

أوفد ايناروس رسله الى الجنود المصريين الذين كان الفرس يسوقونهم بالقوة الى صفوف الجيش ، ليحاربوا من اجلهم من ناحية ولكي تحرم البلاد من شبابها من ناحية اخرى ، فلا تثور عليهم .

كان معظم الشبان المصريين اما جنودا في الجيش الفارسي ، واما عمالا يشقون الطرق ويشيدون الحصون لحساب العدو تحت حراسة قوية ، واما في غياهب السجون . ولم يكن جميع السجناء مذنبين . بل كان الكثيرون منهم ابرياء لم يرتكبوا عملا يؤاخذون عليه غير كرههم للاجانب الحاكمين الغاشمين .

الى اولئك الجنود والعمال ، والسجناء ، أوفد ايناروس رسلة

ليحرضهم على العصيان أولا ، وعلى الالتحاق به لشد ازره فى ثورته ثانيا . ونجحت خطته .

بدأ التمرد فى صفوف الجيش واختفى الجنود واحدا بعد واحد وفعل العمال مثلهم . وكان هؤلاء وأولئك يفرون ومعهم سلاحهم وادوات عملهم ليضعوا انفسهم تحت تصرف قائد الثورة الذى رأى رجاله يزدادون عددا يوما بعد يوم .

ولكن العمل الذى قام به الجنود وكان له فى الثورة اثر بعيد ، هو اغراؤهم حراس السجون من زملائهم على فتح ابوابها لكى يخرج منها السجناء المذنبون منهم والابرياء .

ثلاثمائة رجل أو اكثر ، كانوا مدفونين احياء وراء اسوار السجن الكبير بمدينة منف عاصمة البلاد ، لايدرون من أمر الدنيا شيئا ، بينهم القاتل وبينهم السارق ، وبينهم الذى لم يقتل ولم يسرق ، ولكنه حاول ان يسرق أو يقتل . وبينهم من كان ضحاياه من الفرس، ومن كان ضحاياه من المصريين . وبينهم البرىء الذى لايعرف لماذا جىء به الى السجن ولماذا يقيم فيه !

هاجم الثوار المصريون وخلفاؤهم الليبيون واليونانيون اسوار العاصمة التى كان الفرس قد ضاعفوا تحصينها واقاموا فيها حامية قوية من رجالهم ، وابعدوا عنها العنصر المصرى خوفا من انقضاضه عليهم .

واحتدم القتال عند ابواب المدينة ، وعول الثوار على ان يأخذوا منف مهما يكلفهم الامر ، لان فى الاستيلاء عليها نصرا لايقاس مداه ، من الناحيتين العسكرية والمعنوية .

وقاوم الفرس بعناد وتحطمت على الاسوار هجمات الثوار المتلاحقة ..

واوشك ايناروس ان يفقد الامل فى احراز النصر واقتحام اسوار المدينة ، وفكر فى الانسحاب على ان يعاود الكرة فى فرصة اخرى .

ولكن « راعيتو » قائد جماعة الفدائيين فى جيش الثورة ، وذراع الزعيم اليمنى ، طلب اليه التريث ومواصلة الهجوم اياما اخرى .

وقال راعيتو :

ــ دعنى ايها القائد اتسلل الى المدينة واحاول مرة أخرى اثارة هجوم من الداخل ، يدعم هجومك انت من الخارج !



شاب من اشراف منف للفنان « الما تاديما » وقد انضم ابناء
العائلات الكبيرة الى الجنود والعمال لمحاربة الفرس وطردهم

وعمل ايناروس بنصيحة راعيتو ، وانتظــــر .

وتسلل الرجل الى داخل منف ..

وما انقضى يومان حتى تغير الوضع وانقلبت الحالة راســـا على عقب .

كان راعيتو قد حاول من قبـــل تحريض الحـــراس فى الســجن الكبير على اطلاق سراح المسجونين ، كما فعل غيرهم فى المدن والاقاليم التى عمتها الثورة . ولكنه فشل . وكان عذر الحــراس ان الرقابة شديدة عليهم ، وان جيش الثورة لا يزال بعيدا ، وهم يخشـــون أن يبطش الفرس بهم وبالمسجونين على الســـواء .

ولكن المحـاولة الاخيرة أسفرت عن نجاح مبين .

انراعيتو واحد من أولئك الذين هربوا من السجن وحملواالسلاح فى سبيل الوطن ومن اجل الحرية . ولم يكن صعبــا عليـه ان يقنع الحراس بأن واجبهم يقضى عليهم بأن يخدموا وطنهم لا الفرس أعداء وطنهم . وبأنهم اذا فتحوا للمسجونين أبواب السجن ، يســاهمون فى حرب التحرير ويســاعدون نزلاء السجن لكى يكفروا عن جرائمهم اذا كانوا مجرمين ، او يضـــيفوا الى براءتهم روعة البطولة فى الجهـــاد اذا كانوا ابرياء ..!

وبعد يومين وليلة ، من دخول راعيتو الى العاصمة منف ، فتحت أبواب السجن الكبير ، وتدفقت منها جموع الحراس مختلطة بجمـوع السجناء ، هاتفة للحرية مهللة للثورة ، عازمة على خوض المعركة فى سبيل الوطن !

ثلاثمائة أو اكثر من المسجونين يضاف اليهم نصف هذا العدد من حراس السجن الكبير ، ومن انضم اليهم من رجال الشعب ونسائه، ومن ابناء العائلات الكبيرة واشراف المدينة كبــارا وصـــغارا ، كل هؤلاء وثبوا وثبة جارفة على الفرس المدافعين عن ابواب المدينة ، والذين اخذوا على غرة ، ففتكوا بهم ، وشتتوا شملهم ، وفتحواالابواب للثوار المحاصرين فتدفقت أيضا جموعهم من خلالها ..!

والتقى الهجوم الخارجى بالهجوم الداخلى ، واستبيحت دمـــاء الاعداء فى ذلك اليوم الرهيب ، فاصطبغت بها الارض ، وتلطخت بآثارها الجدران ، وسكر برائحتها الثائرون للوطن وللحرية ، فما غربت‌الشمس وراء الرمال والآكام ، حتى كانت فلول الفرس قد تراجعت مذعورة ، ولجأت الى القلعة مقر الحكام ، وأغلقت أبوابها ، وباتت ترقب مصيرها

وانتشرالثائرون فى المدينة..وطاف الشعب فى‌أثناء الليل بالمصابيح

والمشاعل ، ينشد الاناشيد احتفالا بتحرير العاصمة من الغـاصبين

وأعلن زعيم الثورة ان الفضل فى احراز هذا النصر العظيم يعـود الى السجناء الذين فتح لهم الحراس ابواب السجن ، ففتحوا هم أبواب المدينة لجيش الحرية !

وبهذا العمل المجيد ، أصبح السجناء ابطالا ، واستحقوا من الوطن شكره ومن المواطنين عفوهم !

مر على ذلك الحادث نصف قرن أو اكثـر ..

واسترجع الفرس مافقدوه فى خلال الثورات الشعبية ، وظنوا ان الروح الوطنية قد اخمدت فى صدور المصريين ، وان البـلاد التى اخضعوها لن تقوم لها قائمة فى المستقبل ..

ولكن المستقبل كذبهم مرة اخرى ، فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد ..

ففى عهد ملكهم « ارتا خشرتا » نشبت ثورة فى الوجه البحرى ، بقيادة شاب من الاسرة المالكة المصرية : عاونه والتف حوله رهط من ابناء الشعب المغامرين الشبان ، فانطلقت جموع الثائرين من مزارع الدلتا وحقولها ، ووجهتها العاصمة والمدن الكبرى ، التى اعتصم فيهـا الفرس ، وحشدوا خلف اسوارها الحاميات .

وتذكر زعماء الثورة فى سنة ٤٠٥ ما صنعه زعماء الثورة السـابقة قبل ذلك بعشرات السـنين ..

وشاءت الصدف ــ وللصدف مثل الاقدار ، احكام يحـار العقل فى تعليقها وتفسيرها ــ أن يكون بين الثائرين الزاحفين على العاصمة شاب قوى العضلات ، جهورى الصوت ، شديد الحماسة والاقدام ــ يدعى « عمر تيس » ذكر المؤرخون اليونانيون اسـمه وعجزوا عن ذكر اسم الفرعون الذى قاد تلك الثورة ، او على الاصح اختلفوا فى تحديد اسـمه .

ولم يكن « عمر تيس » الثائر فى سنة ٤٠٥ غير حفيد « واعيتو » الثائر سنة ٤٦٢ ..

وتذكر الشاب ما صنعه جده فى الثورة السابقـة ، وكيف ان السجناء فى منف فتحوا ابواب المدينة لجيش التحرير الزاحف بقيادة اينـاروس .

وعول على ان يفعل ما فعله جده ، وان يحمل السجناء وحراسهم على الاقتداء بأولئك الابطال الذين استرجعوا اعتبارهم بالمساهمة فى تحرير الوطن !

وضرب الثائرون الحصار على منف وتسلل « همرتيس » الى داخل المدينة ، وبعد يومين ، اعاد التاريخ نفسه ..

« فتحت ابواب السجن الكبير ، وتدفقت منهـــا جموع الحراس مختلطة بجموع السجناء ، هاتفة للحرية ، مهللة للثـــورة ، عازمة على خوض المعركة فى سبيل الوطن » ..

وما حدث بالامس حدث ايضا فى ذلك اليوم ..!

فتح الحراس ابواب السجن للسجناء ففتح السجنـــاء ابواب المدينة لجيش التحرير ..

وتكللت الثورة الوطنية بالنجاح . واعترف قادتها بفضل السجناء فى الاستيلاء على العاصمة وعلى غيرها من المدن والقلاع ..

واصبح السجناء فى تلك الثورة ايضا ابطالا مثل الذين سـبقوهم فى ميدان البطولة ، واستحقوا مثلهم شكر الوطن ، وعفو المواطنين ..

ولم يسترجع الفرس المدن التى فقدوها فى تلك الثورة ، بل اضطروا الى الرحيل عنها واحدة بعد واحدة . ثم رحلوا عن البلاد واجتازوا الحدود عائدين من حيث اتوا قبل ذلك التاريخ بأكثر من قرن.

وطوت الارض المصرية ـ مقبرة الفاتحين ـ ما طوته من اشلائهم ..



جثة الفاتح

فتح العالم المعــروف فى زمانه ،

ثم استقرجثة هامدة فى مكانمجهول،

بارض مصر ..

صور

يا مسقط راس حيرام مشيد الهياكل لسليمان الحكيم يا موطن البحارة الشجعان ، الذين ضاقت بهمتهم اسوارك فركبوا متن اليم وعمروا في مجاهل الغرب قفر الديار ! ياأخت المدنية وحاملة حضارة مصر الى قصى الامصار ! يامدينة دثرت معالم مجدها بعد عز وسلطان ، فبقيت أعمدة هياكلها وحجارة قلاعها دليلا على أن دولة المادة زائلة ودولة الفكر على ممر الدهور باقية !

صور ! يا فخر فينيقية وسيدة البحار وقاهرة العجاج ! هل لحجارتك الصماء ، أن تقص علينا اقاصيص الغرام والانتقام ، وأن تفضي الينا بأحاديث الحروب والفتوحات ؟

انت أيتها اللوحة المرمرية ، الملقاة هناك ، التي طالما اهرقت على صفحتك البيضاء دماء البنين والبنات ، يرفعها ابناء فينيقية ذبيحة على هيكل الاله الاكبر « ملكارث !» هل لك أن تخبرينا عن تلك الفتاة المصرية الحسناء ، التي فرت من بلادها واحتمت وراء جدران هيكلك، فلاقاها الهلاك من حيث طلبت النجاة ، ثم انقذها الاسكندر من بين مخالب الكهنة القساة القلوب ؟

***

اليك ايها القارىء ما ترويه تلك اللوحة الاثرية ، التي تغمرها المياه وتعبث بها الامواج :

وصلت الى المدينة قافلة فينيقية قادمة من مصر ، وحطت رحالها امام الهيكل الاكبر ، ومعها عدد لايحصى من الجوارى والعبيد ، ارسلهم تجار مصر الى تجار صور ، للمقايضة على الاثواب المزركشة والجواهر الثمينة ..

ودخل احد رجال القافلة على كاهن « ملكارث » وقال :

ـ أيها السيد . احمل اليك تحية زميلك المصرى كوفيس . وقد عهد الي بمهمة شاقة اقسمت له برفات اجدادى انني قائم بقضائها!

ـ ارد على صديقي كوفيس تحيته بأعطر منها وازكى . والآن : تكلم . اية مهمة عهد بها اليك اخى المصرى ؟

ـ دفع الى فتاة صغيرة وقال : «خذها معك يا عبدومين الى

صور . وقل لاخى خادم البعل ملكارث اننى أضعها عهدة فى كنفه وامانة بين يديه . ليحتفظ بها فى الهيكل ، حتى اذا ما حان وقت عودتها الى وطنها ، طلبت اليه ان يرد الامانة الى اصحابها ! » فحدثتك بالفتاة ايها السيد ، وهى فى الخارج مع زوجتى وابنتى .

ـ ادخلها ولا تبح لاحد بشىء مما قلته لى .

***

اقامت الفتاة « ميليتا » فى هيكل البعل تسعة اعوام ، ودخلت فى سلك الكاهنات ، فكانت تسهر على احراق البخور امام الاصنام وتشترك مع اخواتها الفينيقيات فى أناشيدهن وتضرعاتهن الى تموز رب الجمال ، وعشتروت ربة الحب !

لكن الهدوء الذى كانت تعيش فيه فى هيكل هادىء ، والامان الذى كانت تنعم به بلاد آمنة ، لم يدم عهدهما طويلا .

ذلك لان الحرب حلت محل السلام ، بقدوم الاسكندر المقدونى الى البلاد غازيا ، واحتلاله المدن والامصار فاتحا .

وصل أمام صور وأقام حولها الحصار وشدد عليها الخناق ، فراى الكهنة ان صلواتهم وتضرعاتهم لاتجدى نفعا ، فعمدوا الى الاستعاضة عنها بكثرة الذبائح والضحايا ، ظنا منهم أن الالهة ـ وقد اسكرتها نشوة الدماء المسفوكة ـ ستدفع عنهم غضب الفاتح وترد جيشه على أعقابه !

وملكات اله يحب الدماء الحمراء ، ويتلذذ برؤية الاعناق تحزنها يد الجلاد ! . .

تقرر أن تصعد كل يوم على المذبح ضحية عند شروق الشمس ، واخرى فى منتصف النهار ، وثالثة بعد الغروب !

وكان الاباء يقدمون راضين مرتاحين بناتهم العذارى ، لان ملكارث لا يتقبل على مذبحه غيرهن فى أوقات الاحن والحروب !

وسالت الدماء الزكية ، وعلا البكاء والعويل ، وتعاظم الخطب ، وعم الحزن المديد . .

والاسكندر يعاند الصوريين وآلهتهم ، ويهاجم الاسوار ويحاول اقتحام الامواج . .

وجاء دور الكاهنات . .

ثلاث فتيات منهن يصعدن كل يوم الى المذبح ، ويسلمن اعناقهن للخناجر المقدسة !

ومضت خمسة ايام والعدو لم يتقهقر ولم يظهر عليـــه وهن ولا اعيــــــــاء ..

طلعت شـــمس اليوم السادس ، ودخلت إشــــعتها من خـــلال النافذة الى مخدع ميليتا ..

حدقت الفتاة بصرها فى تلك الخيوط الصفراء،التى جاءت تنذرها بقـــرب الاجـــل ..

اليوم يومها .

عندما ينتصف النهار ، ستودع الحياة الوداع الاخير ، وترتدى ثوبها الابيض الناصع ، وتذرف الدموع الاخيرة على شـــبابها الغـض وجمالهـــــا الذى لم ينعم به رجــــل .

ذكرت بلادا رات النور فيها ، وبيتا لعبت فيه طفلة ، وابا كان يحبها ، واما كانت تضمها بحنان الى صدرها ..

ثم ارتسم أمام عينيها ذلك المنظر الفظيع : رات اباها يعنف امها، ثم يثور ثورانا شديدا ، فيتناول هراوة ويهوى بها على رأس زوجته

رات أباها القاتل ! ورات الجنود يقبضون عليه ويسوقونه الى ســــــــاحة الاعدام ..

واجهشت المسكينة بالبكاء ..
باللذكريات !

***

ـ ميليتا .. ! تقدمي أيتها العذراء ، فقد اختارك الاله من بين اخواتك ذبيحة طاهرة ! اصعدى الى المذبح كالحمل الوديع ، وقبـلى النصل المقدس الذى صنع ألاله قبضته بيديه !

انتفضت ألفتاة وانتابتها رعشة شديدة . ثم دارت الاشياءحولها، فرات بقعا حمراء فى كل مكان ..

وصعد الدم الى راســـها فصاحت بالقوم قائلة :

ـ أيها القساة الاجلاف ! لست من بنات جلدتكم ، ولست من عبدة الهتهم ! لن أسلم عنقى لكاهن منهؤلاء الكهنة ، ولن اجثـو امام هذا الاله الذى لايرضيه غير منظر الدماء ! دعونى أخرج الى العـدو فهو أرحكم منكم بضعف النســـاء ..! دعونى ارجـع الى بلادى فاخدم الهـــة اقل قســـوة من الهتكم !

فدوى المكان بصيحات منكرة ، وارتفعت الاصوات باللعنة على الكاهنة المجدفة .. !

ووثب عليها الكاهن الاعظم ـ ذلك الذى تعهد بالاحتفاظ بها امانة بين يديه ـ فقبض على عنقها ، وساقها الى المذبح حيث سقطت على الارض شاكية باكية !

واحاط بها الكهنة كالذئاب ، واشاروا الى الشعب بان يلزم الصمت، فهدات الاصوات .

لكن صياحا عاليا ارتفع فجاة فى خارج الهيكل ، تبين القوم من خلاله عويل النساء وولولتهن .

انصت الجميع باهتين لاهثين ..

وما هى الا لحظة حتى اقتحم با بالهيكل مقتحم وصاح مذعورا :

ـ الاعداء ! الاعداء ! الاسكندر فى المدينة !..

ماج الحاضرون دفعة واحدة طالبين النجاة من الباب . لكن الكاهن الاكبر رفع عقيرته صائحا بهم : « أيها المجانين ، الى اين تذهبون ؟ افى المدينة ملجا أفضل من هذا ؟ لن ينالكم المقدونى بضرر ما دمتم فى الهيكل مقيمين ! »

فلم يخرج من الباب أحد . بل ظلوا جميعا فى إماكنهم ، وعادوا الى تضرعاتهم للكارث ، اله النار الملتهبة والدماء المسفوكة !

ترجل الاسكندر امام الباب عن صهوة جواده ودخل الهيكل .

فخر الحاضرون على وجوههم وسجدوا الى الارض .. ماعدا ميليتا ..

كانت الفتاة ملقاة على سلم المذبح تنوح وتبكى . ولكنها رفعت راسها عندما دخل الاسكندر ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة أمل ورجاء ..

فاسترعت نظر الفاتح الشاب ، واقبل عليها ، رائق النظر ، باسم الثغر ، ومد اليها يده ، فطبعت عليها الفتاة قبلة ، وانحدرت معالقبلة دمعة حارة من عين المصرية الحسناء ..

وقال الاسكندر :

ما اسمك ؟..

ـ ميليتا ..

ـ فى اى بلد ولدتك امك ؟

ـ فى مصر ..

ـ ما جاء بك الى هنا ؟ ..

ـ القدر الساخر !

فنادى الاسكندر كاهن ملكارث سائلا :

ـ من جاءك بهـــذه الفتـــاة .. ؟

ـ كان ابوها خادما لالهة مصر . ضلت زوجته فقتلها ، وسلم للجلاد جزاء جرمه . وقد اوفد الى صديقى كوفيس هــذه الفتـاة لكى أجعل منها خادمة لملكارث ، كفارة عن ذنوب ابيها !

ـ متى كان الابناء يؤخذون بجـــريرة الاباء ؟ ومتى كان البرىء يكفر عن المذنب ؟ ..

نزع القائد الكبير رداءه عن كتفيه ، والقاه على الفتاة قائلا :

ـ انت حرة طليقة يا ميليتا ، واذا أردت العودة الى وطنك مصر ، فسيكون لك ما تريدين !

ـ كلا ! .. بل اريد ان اتبعك ايها القائد المظفـــر ، الى حيث تذهب ، وان اعيش فى ظلال عظمتك ، وان اموت يوم يصيبك مكروه !

وانطلق القـــائد الى فتوحات جـــديدة .

وظل اسمه حديث الناس فى فينيقيةالتى مر بها ، وفى مصر التى عرفتـه قبـــل فينيقيـــــة ..

***

« أواه ! .. أواه ! .. أواه ! .. »

نهض الكاهن الاعظم « آرام » من فراشه مذعورا على صــوت ابنته ، وأسرع مهرولا الى حجرتها ، فاذا به امام الفتـــاة وقد القت بنفسها على الارض . وجعلت تقبل بلاط الحجرة امام تمثال عشتروت وتذرف الدموع وتقرع صدرها بيدها صائحة باعلى صوتها :

« أواه ! .. أواه !.. أواه !.. »

اخذ الكاهن ابنته المحبوبة بين ذراعيه ، وغمر رأسها بالقبـــلات وهى تصيح مرتعشـــة :

ـ رحماك يا ربة الحب والانتقام ! سأصنع ماتأمرينني به !

جعل الكاهن يهدىء روع الفتاة سائلا عما اصابها ، مســتفهما عن ســـبب ذعـــرها ..

فقالت الفتاة « زامورات » لابيها :

ـ ابتاه ! لقد اعددتني زوجة لابن اخيك « حارام » النوتي ؛ ومنذ الساعة التي اتخذت فيها قرارك هذا لم يغمض لي جفن ولم اذق راحة ولم اهنأ بعيش ! ابتاه ! انني لا احب ابن عمي حارام ، ولا اريده زوجا لي ، بل ان الالهة التي نعبدها والتي تقوم انت بخدمتها ، لن ترضى بهذا الزواج ولن تقره ! . .

سكتت الفتاة لحظة ، وتنفست طويلا ، ظنا منها ان الكاهن سيغضب وينزل بها نقمته . لكنه ظل صامتا ينظر اليها بحنان، فاستطردت قائلة :

ـ انك خادم معبد عشتروت ورئيس كهنة فينيقية في معابد ببيلوس وهياكلها ، وقد علمتني ان استشير ربتنا القديرة الجبارة في كل ازمة نفسية تساورني ، وكل ملمة تحدق بي !

وهنا قاطعها الكاهن قائلا :

ـ نعم يا ابنتي ! فان الربة عشتروت لخير مرشد نفزع اليه !

ـ ابتاه !.. لقد عملت دائما بوصيتك ، واتبعت نصائحك وارشاداتك . وها قد مضت على ثلاثة ايام بلياليها ، وانا ارفع اكف الضراعة لعشتروت ، لكي يهبط على وحيها ، وتنزل على ارادتها ، وتغمرني نعمتها ورحمتها !

فقاطع الكاهن ابنته ثانية سائلا :

ـ وهل أجابتك يا أبنتي ؟

ـ نعم . تجلت لي الربة المعبودة الليلة ، في هالة من النور تحف بها الكاهنات العذارى ، وسمعت صوتها يهيب بي قائلا : « زامورات ، لن تتخذي لك من ابناء قومك بعلا ، فاما ان تكوني للاسكندر المقدوني، واما ان تقدمي طهرك وعفافك ذبيحة على هيكلي في صيدون الظافرة ! »

سكتت الفتاة ثانية . ونظرت إلى ابيها . فاذا به صامت لا ينبس. فقالت زامورات :

ـ هذا ماقالته لي الربة عشتروت الليلة يا أبي . فهل تريدني ان اكون لارادة عشتروت عاصية ، ومن واجب الطاعة لالهتنا العظام مارقة ؟

اطرق الكاهن الاعظم لحظة ؛ ثم رفع راسه وطبع قبلة حنان على جبين ابنته ، وقال :



الإسكندر ، الفاتح المقدوني يلقي رداءه على جثة عدوه « دارا »
ملك الفرس بعد أن اجتياح بلاده

ـ كلا يا ابنتى ! لن أريدك كما تقولين . فانت منذ هذه اللحظة ملك الالهة دون الناس . ادخلى المعبد ولا تخرجى منهالا للقاء الاسكندر المقدونى ، الذى اختارته لك عشتروت زوجا وسيدا .!.

فقبلت الفتاة يد ابيها ، ثم استطردت قائلة :

ـ وقد ختمت الربة حديثها بهذه الكلمات يا ابى : « ستظلين فى هيكلى مقيمة ، الى أن يأتيك الفاتح ويفك اسرك ، أو تموتى فى اليـــوم الذى يقع فيه نظرك على جثة الاسكندر ، اذا قدرت الآلهة رحيله عن هـــذا العالم قبـــلك !

***

شتت الاسكندر شمل الفرس فى افسوس ، وسحق جيوش «دارا» الجرارة فى اربيل ، ودان له الشرق ، وحمل اليـــه الامراء والاقيـــال والملوك مفاتيح مدنهم ، وأعلام ممالكهم ، وخزائن جواهرهم .

وكان ذلك القائد لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من عمره!

أسلمه النصر قياده ، وخنع له المجد صاغرا ، فأسكرته نشـــوة الظفر المتواصل ، وجنحت به عن طريق الصواب .

سار من موقعة الى موقعة ، ومن ميدان الى ميدان ،ومن سلطنة الى سلطنة ، يسوق الابطال امامه ، ويقيد باغلال الرق من كانوا بالامس يسترقون العباد !

ويدمن على الخمر ادمانه على النصر !

عبثا حاول حكماء اليونان الذين كانوا يسيرون فى معيته أن يحولوه عن الشراب ، وعبثا حاولوا ان ينقذوا تلك العبقرية العظيمة المنتجـة من الضـــــياع ..

تنـــاول ذات يوم كميـــة هائلة من الخمر ثم نـزل الى النهر للاســـتحمـــــام ..

وخرج من الماء مريضا ، وبعد ايام بكته جيوشه المظفرة ، وبلاده الثكلى .

وكانت الفتاة المصرية ميليتا قد تبعته من صور ، تلازمه فى سفره ، وتقدم له الطعام فى مضربه .

فلما مات الاسكندر دفنت معه آمال ميليتا فى الحياة !

ولما رفع الجيش مضـــاربه ، حاملا جثـة الفاتح العظيم والمليك المحبوب ، عثر الجند فى خيمة صغيرة ، على ضفاف النهر ، على جثـة المصرية الحسناء ، وقد اخترق صدرها خنجر ذو قبضة ذهبية مرصعة بالجواهر ، عليها رسم الاله ملكارث المتعطش دائما الى الدماء !

مات الاسكندر المقدونى فى الثالثة والثلاثين من عمـره ، وكان جالسـا على عرش ابيه فليبوس منـذ ثلاث عشرة سـنة .

وقبل ان تفـارق روحه الجسـد ، صاعدة الى عالم الخلود ومقر الالهة ، جمع حوله الاخصاء والمقربين ، وأفضى اليهم بارادته الاخيرة :

« اريد أن تنقل جثتى الى بيبلوس فى فينيقية ، وتغسل بمـاء نهر ادونيس المقـدس ، وتعرض على انظار النـاس عشرة أيام فى هياكل الآلهة ، ثم تنقل الى مصر وتدفن فى واحة آمون ، بجانب الاله أبى ! »

***

قضى ارباب الفنون والصنائع سنتين فى اعداد الناووس والمركبة التى تنقله الى مقره الاخير ، وتحرك الموكب فى سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، سائرا من بابل الى مصر ، بطريق فينيقية وبلاد موآب .

وكان يوما مشهودا ، ذلك اليوم الذى ارتفعت فيه اصوات الابواق فى فينيقية ، تنبىء بأن جثة الاسكندر ، قاهر «دارا» وفاتح الهند ، قد اجتازت تخوم البلاد فى مركبة يجرها اربعة وسبعون من الثيران القوية!

وتدفق السكان من الثغور والقرى والجبال ، لرؤية المشـهد الرائع ، حاملين غصـون الارز مبللة بميـاه نهـرى أدونيس وليقوس ، وجرارا مملوءة بتلك المياه ، وقد اخذت من منبع النهرين فى بطن الجبل، واقاموا فى طريقهم اعمدة من الصخور الصماء على قمم لبنان دلالة على حزنهم !

واجتازت المركبة الجبل فى ظلال الارز ، وغسلت الجثة فى ميـاه النهر المقدس ، وعرضت على الانظار فى هياكل عشتروت !

وكان بطليموس حاكم مصر قد غادرها على رأس جيش كبـير ، لتسلم جثة الفاتح العظيم والسير بها الى مدينة الاسكندر : الاسكندرية!

وخرج كهنة الفينيقيين للقاء الموكب الحافل ، فتجمعوا فى مدينة صور ، يحيط بهم عظماء البلاد وقوادها وزعماؤها ويتبعهم الشـعب الحزين الباكى .

وهجرت الكاهنات العـذارى معابد تموز وعشتروت وملـكارث واسرعن مع الكهنة الى تحية رفات الاسكندر ..

وكانت زامورات بينهن ، تذرف الدموع وتصعد الزفرات !

***

كان امرها قد اشتهر بين الناس ، فاطلق عليها ابوها الكاهن الاعظم اسم « حبيبة الاسكندر » فعرفت بهذه التسمية فى المعابد وخارجها.

ظلت الفتاة خاضعة لارادة عشتروت ، ربة الحب والانتقام ،التى حرمت عليها الزواج وامرتها بأن تحتفظ بنفسها للاسكندر المقدونى دون سواه من الرجال ، والا تتخذ لها من بين ابناء قومها بعلا ، وان تموت فى اليوم الذى يرحل فيه الفاتح عن هذا العالم ، اذا قدرت الالهة القوية الجبـــــارة ذلـــك .. !

وكانت زامورات فى اثناء تلك المدة تصلى للآلهة ، وتحرق البخور على هيكل عشتروت ، وتخرج مع رفيقاتها الكاهنات العذارى الى سفوح الجبال ، لجنى الاثمار ، وقطف الازهار ، وجمع الرياحين لا دونيس او تموز كما كان الفينيقيون يسمونه ، فى الشهر الذى لا يزال القوم الى الان يطلقـــون عليـه اسم معبود بيبلوس «تموز» وهو الشـــهر الســـــابع من الســـــنة .. !

وكانت الفتاة ، قبل ان تجنح الى فراشها وتلقى بنفسها فى احضان الهة الظلام ، تركع على ركبتيها ، وتقرع صدرها بيديها ، أمام تمثال الربة عشتروت الرهيبة طالبة منها ان تقرب اليوم الذى تصبح فيـه الفتاة زوجة للاسكندر ، او رهينة الموت على هيكل الالهة فى صيدون الظـــــافرة !

وأجابتها عشتروت الى سؤالها !

فها ان الاسكندر قد رحل الى جوار ابيه آمون ، ونقلت جثتـــه لكى تدفـن فى ارض الفــــراعنة .

اذن ، ينبغى للفتاة ، ابنة الكاهن الاعظم آرام ، حبيبة الاسكندر، ان تلحق بحبيبها الذى لم يعرفها ، عملا بارادة الالهة وتنفيذا لمشيئتها.

وذلك فى اليوم الذى يقع فيه نظرها على جثة الفاتح ، العائد من فتوحاته نعش ذهبى تجره الثيران !

***

قال الكاهن الاعظم آرام لابنته :

ــ بنيتى ! أواثقة انت من ذلك ؟ أتلك هى ارادة عشتروت التى لا مرد لامرها ؟ أم انك واهمة ، فربـسة حلم مزعج ووهم طائش ؟

فأجابت زامورات :

ــ ابتاه .!. ان امر الربة المعبودة كان واضحا جليا . وكانت ارادتها صريحة قاطعـة . فالوداع اذن ! لقـد وقع نظرى على جثة الاسكندر ، ورايت النعش الذهبى الذى يضم رفاته الطـاهر ! تذرع بالشجاعة والصبر يا ابى ، ولا تترك للوهن والشك الى نفسك منفذا. اتكون كاهن عشتروت الاعظم ، وتتردد فى تنفيذ رغبة عشتروت ؟

قالت الفتاة ذلك ، واخذت ذراع ابيها بيدها ، وصعدت معه درجات الهيكل ، حيث تقيم عشتروت وراء الحجب والمآزر المقدسة..

وأشارت إلى الخنجر الذهبي ، المعد لنحر الذبائح على هيكل الآلهة ..

لكن الكاهن تردد وتراجع ، فما كان من الفتاة الا أن تناولت بيدها ذلك الخنجر الذهبي ، وأمسكت به من نصله ، وقدمت قبضته المرصعة بالجواهر لابيها الكاهن آرام .

وقالت زامورات ، بصوت متهدج :

ـ اسرع يا ابي ، ونفذ ارادة الآلهة !

وارتفعت في ارجاء المعبد أصوات الكهنة والكاهنات ، تضرع الى الهة الدماء بأن تتقبل الذبيحة الطاهرة ، وتبسط رواق رحمتها على المدن والحقول ، وتعيد الى الموانىء سفن الفينيقيين من رحلاتها البعيدة ، وتأخذ بيد تجار اللؤلؤ والزجاج الضاربين في طول الممالك وعرضها ، وفي مشارق الارض ومغاربها ، وترد عن الاوطان غزو الغزاة وكيد الكائدين ، وتحل السعادة في صدور الافراد والجماعات ، وتبعث للعذارى بأزواج صالحين ، وللشبان الاقوياء بزوجات صالحات !

وفي وسط تلك الضوضاء رفع الكاهن الاعظم آرام ذراعه اليمنى ، فأخذت أعين الحاضرين وميض نصل يلمع في قبضته ..

لكنهم لم يسمعوا الصرخة المفجعة التي أرسلتها الفتاة زامورات

عندما اخترق النصل الذهبي صدرها واستقر في قلبها ، لان تلك الصرخة ضاعت بين اصوات المصلين وضجيج الهاتفين ..

***

ماتت المصرية الحسناء ميليتا يوم مات الاسكندر . وماتت الفينيقية الحسناء زامورات يوم وقع نظرها على جثة الفاتح ..

وفي مصر دفن المقدوني العظيم ..

فقد اقام فيها حيا ، وعاد اليها ميتا ، وحوت أرضها جثمانه في مكان مجهول !!



.... واجتازت القبيلة العربية نهر النيل الى الضفة الاخرى ، فسمي ذلك المكان « الجيزة » ولايزال هذا اسمه !

جلست مرتا على شاطئ النيل ، أمام بيت أبيها ، وألقت صنارتها في النهر كعادتها كل يوم ، ثم التفتت الى عمها الشيخ الجالس بقربها ، وقالت مشيرة الى حصن بابليون الرابض هناك كالضبع الاشهب ، تحيط به الخنادق والصخور والرمال :

ـ اذن ، لقد خرجت يا عمي من هذا الحصن على أن لا تعـود اليه أبدا ؟

فأجابها الشيخ قائلا :

ـ نعم يا بنيتي . لقد خدمت فيه عشر سنوات مع أبيك.ولكنني لم أعد أطيق البقاء فيه بعد موت أخي المحبوب فهجرته وتركت الخدمة وعزمت على الاقامة معك في منزلنا الصغير هذا ، ولكن ينبغي أن تصغي الي وتعملي بنصيحتي وتتزوجي الرجل الذي اخترته لك ..

ـ اتريد ذلك حقــا يا عمي ؟

ـ نعم لانني اشعر بدنو اجلي ويؤلمني ان ارحل عن هذا العـــالم قبل ان يطمئن بالي من ناحيتك ، وأعلم انك في مأمن من عاديات الزمن

ـ ليكن لك ماتريد ياعمي العزيز ، لن ارد لك طلبا ولن اعصي لـك رغبة ...

وفي اليوم التالي عقدت خطبة الفتاة القبطية مرتا على الضابط الرومي ليون الازميري ..

وكانت الفتاة في الثامنة عشرة من عمرها ..

***

سنة ٦٣٨ ...

مات عم الفتاة وبقيت مرتا يتيمة وحيدة في المنزل الذي فيـه رأت النور ، وفيه مات أبوها قبل عمها ..

والح الضابط ليون على الفتاة في أن تذهب معه الى الكاهن لكي يعقد لهما ، ويعيشا معا في هناء وصفاء . لكن مرتا أبت الا أن تلبس الحداد على عمها سنة كاملة ، ثم تفكر بعد ذلك في الزواج .

ولكن الاقدار شاءت أن لا يعقدذلك الزواج وان تسير مرتاالقبطية في طريق غير الذي اراده لها عمها قبل موته .

جلست ذات يوم فى مكانها على شاطىء النيل ، حيث وافاها خطيبها ، وكان مضطربا قلقا شارد الفكر .

ـ ما بك اليوم يا ليون ؟

فمسح الرومانى بطرف قميصه العرق المتصبب من جبينه ، وتنهد وقال :

ـ لقد حمل الينا الرسل اليوم اخبارا مزعجة يا مرتا . واخشى ان تتطور الحوادث وان يقع ما يودى بسعادتنا وراحتنا !.

ـ افصح يا ليون

ـ لقد حدثتك قبل اليوم عن أولئك العربان الذين تدفقوا من جوف الجزيرة ، ففتحوا الاقطار والامصار ، ودكوا الحصون والقلاع ورفعوا على الحواضر والبوادى أعلاما لم نعهدها من قبل ، وفرضوا الجزية على الشعوب التى أخضعوها لسلطانهم ـ كل ذلك باسم رسول جديد ودين جديد .

ـ نعم ، لقد حدثتنى عنهم يا ليون : أولئك هم العرب ودينهم هو الاسلام ...

ـ انهم قادمون الى مصر يا مرتا .. آه .. لقد صدق المنجمون وحدث ما توقعناه عندما اندس بيننا ذلك التاجر البدوى ... الذى يقود الان جيوش المسلمين لفتح مصر واخضاعها للدين الجديد !

ـ أى بدوى تعنى ؟ . .

ـ كنا منذ سنوات نقيم مهرجاننا السنوى كعادتنا ، والشعب فى فرح ومرح ينظر الى « الكرة » التى كان الشبان يتقاذفونها ويلعبون بها ، والتى يعتقد المصريون ان الرجل الذى تقع الكرة فى كمه سيكون على هذه الديار سيدا واميرا . فقد سقطت الكرة فى كم ذلك التاجر البدوى ، وضحك الناس كثيرا عندما رأوه حائرا بينهم ، يجر أطماره البالية ، وقد أخذته الدهشة واستولى عليه الذهول ..

ـ وهل اعتقد الناس ان ذلك الرجل ..

ـ أصغى الى الى النهاية . اخذ الشبان الكرة من كم البدوى ، ودفعوها الى بعيد ، وعادوا يتقاذفونها ، فاذ بها ترتفع فى الفضاء وتسقط مرة اخرى فى كم الرجل !

ـ عجيب هذا !

ـ نعم . حينذاك اخذ البدوى الكرة بيده ، ونظر الى الجموع

المحيطة به بعينين يتطاير الشرر منهما ، وصاح بصوت قاصف كالرعد : « انني راحل عنكم يا قوم ! وقد اعود اليكم سيدا وأميرا ، كما انبأتكم هذه الكرة ! وستذكرون غدا ما حدث اليوم لعمرو بن العاص ! »

ـ اهذا ما قاله لهم ؟

ـ نعم ... أو تعلمين الان من يقود جيوش المسلمين لفتح مصر ؟

ـ من ؟

ـ عمـــــرو بن العـــــاص يا مرتـــا ! ..

***

كان التاجر البدوى عمرو بن العاص قد طاف الامصار العامرة فى ذلك العهد ، حاملا تجارته من دمشق الى غزة الى مصر الى السودان فالحبشة ، ثم عاد مهاجرا الى النبى الكريم ، فاكتسب ثقته ، واشتـرك فى حروب المسلمين فى بلاد العرب وفلسطين ، ونازل جيش الارطبون فى معركة دامية كان النصر حليفه فيها ، مما جعـل عمر بن الخطـاب يقول : « لقد رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب ! »

وبعد ان تم لجيش المسلمين الاستيلاء على فلسطين كلها ، طلب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر ان يأذن له بالزحف على مصر ، وكتـب له يقول : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الارض اموالا واعجزها عن القتال والحرب ! »

وزحف عمرو بن العاص على وادى النيل بأربعة آلاف رجـل !

العريش ـ صحراء التيه ـ الرمال المحرقة والمياه المالحـة ـ بلبيس ـ لم يقف عمرو بن العاص امام كل تلك العقبات غير الوقت الـــكافى لتذليلهـــــا واجتيـازها .

وها هو ذا الان أمام الحصون المنيعة ، والقلاع الضخمة ، الـتى أقامها الروم فى مصر للاحتفاظ بها والدفاع عنها ..

لكنها قلاع وحصون لم تجد امام شجاعة الفرسان ومهارة القواد نفعا ، فان العرب إستولوا عليها ، ورفعوا أعلامهم على ابراجها

ووصل عمرو بن العاص الى « قصر الشمع » أو حصن « بابليون » حيث حاول المقيمون فى داخله الدفاع عنه فى بادىء الامر ، لكنهم ما عتمـــوا ان اخلوه للغـــزاة الفاتحـــين .

وكان ذلك فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ، الموافقـة لسنة ٦٣٩ للميــــــــلاد ..

ولم يعط الروم للقبط ابناء البلاد سلاحا لمحاربة العرب خوفامن

أن ينقلبوا عليهم ويحاربوهم بذلك السلاح ، ولم يكن القبط راضين عن معاملة الروم لهم فى أثناء حكمهم الظالم ، فظلوا بعيدين عن الحرب، بل أنهم فى كثير من المواقع ساعدوا العرب على الروم ، وانتهى الامر بأن انحاز زعيمهم المقوقس الى المسلمين ، وعقد معهم معاهدة صلح فرضت بموجبها الجزية على سكان مصر القبط ، على كل شخص ديناران واستثنى الشيوخ والنساء والصبيان ، وتعهد العرب مقابل ذلك بألا يتعرضوا لدينهم وأملاكهم وأموالهم وارواحهم ..

ولكن ، ماذا حل بمرتا ، الفتاة القبطية ، وبخطيبها الرومى ليون ، فى أثناء ذلك كله ؟

لقد حارب الرجل فى صفوف الجيش الرومى وقام بواجبه الى النهاية ، لكن خلافا نشأ بينه وبين خطيبته مرتا ، التى ابت أن تظل مخلصة امينة ، حافظة عهد الضابط الرومى بعد أن حل الجفاء بين زعماء الروم وزعماء مصر ، وطاف الشيوخ القبط على مرابع القوم ومساكنهم فى المدن والحقول ، قائلين لهم انه خير لمصر أن يحكمها المسلمون اذا كانوا سيعدلون فى حكمهم ، من أن تظل رازحة تحت نير الروم القساة الظالمين ؟

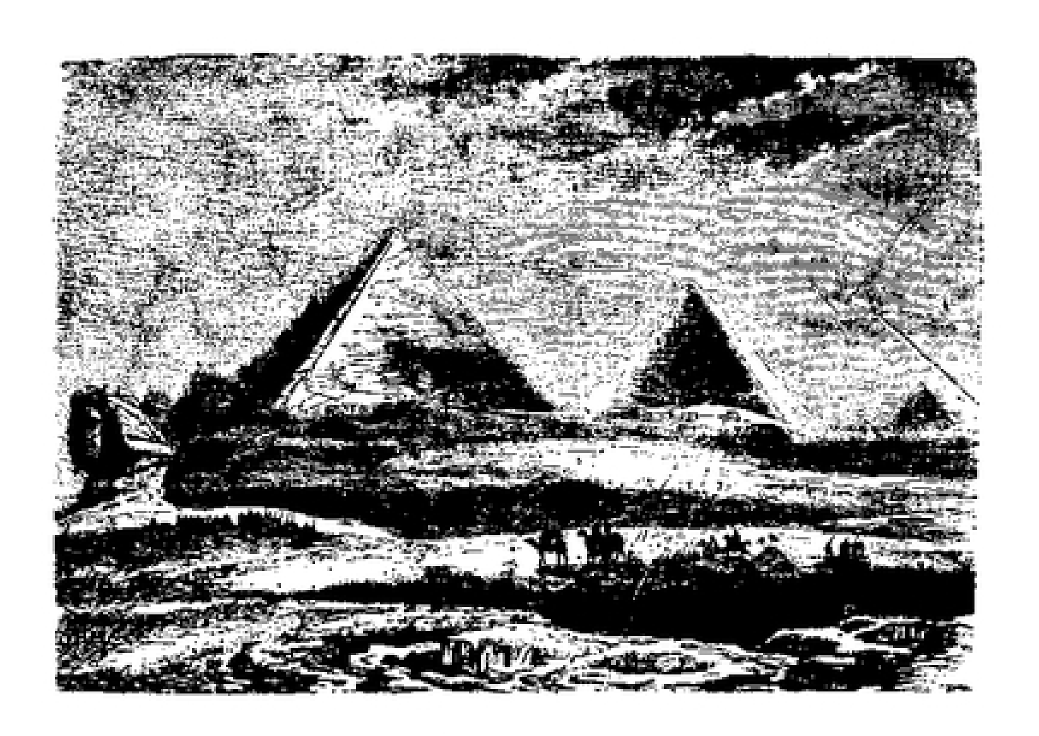
كانت مرتا تنظر الى الضابط الرومى نظرها الى صديق حبيب، فاصبحت بعد ان رفض الروم تسليح القبط ، وبعد ان جاهر القبط بميلهم الى العرب ، تنظر اليه نظرها الى عدو غريب ..

وفى اليوم الذى استولى فيه العرب على حصن بابيلون ، كان ليون يحارب مع فريق من أخوانه فى معركة دارت رحاها بين الروم وفرسان احدى القبائل العربية ، على ضفاف النيل ، فى الجهة الجنوبية من الحصن العظيم .

واصيب ليون بجرح بليغ فى كتفه ، وتمكن من السير على قدميه، ودمه يسيل بغزارة ، فوصل الى ذلك البيت الصغير ، الذى تقيم فيه الفتاة التى يحبها ، والتى أعرضت عنه واغلقت فى وجهه بابها !..

دخل ليون بيت مرتا ، فرقَّ له قلبها عندما رأته على تلك الحال ، وقبل ان تتمكن من مؤاساته ، فارق الضابط الحياة ، بعد ان فتح عينيه وتمتم كلمات لم تفهم منها مرتا غير كلمة واحدة : اسمها !

مات ليون ، فركعت مرتا القبطية على ركبتيها امام جثمانه، ورفعت يديها الى السماء ، وتوجهت بصلاتها الى الخالق القهار ، طالبة لذلك الجندى الباسل الذى قضى شهيد الواجب : الراحة والسعادة فى العالم الاخر !



ابو الهول والاهرام يوم دخل العرب مصر فاتحين

وبينما هي راكعة تصلى ، اذا بالباب يفتح على مصراعيه ، وصوت أجش يهدر وراء الفتاة :

ـ لقد قتلت هذا الرومي ابنها المصرية الخائنة !

فانتفضت الفتاة ونهضت مذعورة ، فاذا بها أمام جنديين روميين، يهددانها ويتوعدانها .

تراجعت الى زاوية الحجرة ، وتناولت سكينا للدفاع عن نفسها، لكن الله أرسل اليها في تلك الساعة الحرجة من يرد عنها العدوان وينقذها من أيدى ذينك الشقيين .

دخل من الباب أعرابي كالح الوجه براق العينين ، بيده سيف يقطر دما ، وما وقع نظره على الجنديين الرومانيين حتى وثب بهمـــا صائحا :

ـ لن تفلتا مني الآن ورب الكعبة !

سقطت الفتاة مغشيا عليها ، وعندما عاد اليها وعيها ، وجدت نفسها مستلقية على فراشها ، والاعرابي الغريب بجانبها ، وفي ناحية من الحجرة ثلاث جثث غارقة في بحر من الدماء ...

نظرت مرتا القبطية الى ذلك الذى أنقذ حياتها ، ولسان حالها يقول : « شكرا لمن دفع عني الموت . ولكن من أنت ؟ »

ادرك الاعرابي سؤالها الذى لم تفه به شفتاها ولكن نمت عنه عيناها ، وتكلم بلغة لم تفهم منها الفتاة شيئا !

***

ذلك الاعرابي هو حسان بن زياد اليافعي ، الذى التحق هـو واخوته وابناء عمه بجيش عمرو بن العاص ، وأبلى في الميادين البلاء الحسن .

وكان حسان بين رجال تلك القبيلة التي جاءت من يافع ، والتي اجتازت نهر النيل عند الفسطاط ، في طليعة جيش المسلمين ، وركزت العلم في مكان مقابل المكان الذى بيت مرتا القبطية قائما فيه .

ومنذ ذلك الوقت ، أى منذ ذلك اليوم الذى أجتازت فيه تلك القبيلة اليافعية نهر النيل وركزت العلم في الضفة الغربية ، سمي ذلـك المكان « الجيزة » ولا يزال هذا الاسم يطلق عليه الى يومنا هذا دلالة على أن العرب « أجتازوا » النيل هناك من ضفة الى ضفة !

وتلك القبيلة اليافعية هي التي كان الخليفة عمر بن الخطاب يعنيها

عندما كتب لعمرو بن العاص يقول : « لا تجعل بينك وبين قومك بحراً فابن سوراً يحمي المسلمين في جيزة الفسطاط ! »

وقد أراد عمرو بن العاص ان ينزل عند رغبة الخليفة ويبني حول جيش المسلمين في الجيزة سوراً منيعاً ، لكن اليافعيين ومن كان معهم من ابناء البادية ابوا الا ان تظل السهول مكشوفة من امامهم ومن ورائهم ، وقالوا لعمرو بن العاص قائدهم : « دعنا من السور يا عمرو فانما أسوارنا صدورنا ! » .

***

سنة ٢١ للهجرة ـ الموافقة لسنة ٦٤٢ للميلاد ..

بنى عمرو بن العاص في الفسطاط الجامع الذي يحمل اسمه الى الان ، ويخلد ذكره في وادي النيل ..

وكان من بين الذين اشرفوا على بناء الجامع وزخرفته ، حسان بن زياد اليافعي ، البطل المغوار الذي أحبه عمرو بن العاص ووضع فيه ثقتـه وجعله من امنائه المقـربين اليـه .

اما مرتا القبطية ، فقد تزوجها حسان ابن زياد واستولدها ابناء واقام معها في الجيزة ، بعد أن تم للمسلمين فتح مصر ، وعاد من العرب الى الجزيرة من عاد ، وبقي منهم في مصر من بقي ..

وقد رحل عن مصر اثنان من ابناء حسان بن زياد ومرتا القبطية، عائدين الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، لكنهما لم يرجعا الى مصر ..

وكان ذلك في سنة ٥١ هجرية « ٦٥١ للميـلاد » ..

اما الروم ، فقد طوت مصر في أرضها من طوته منهم ، ورحل عنها الباقون ، واصبح ذكر الدولة الرومية البيزنطية سطراً في التاريخ كأسماء الدول الغازية الفاتحة الاخرى ، التي سبقت الروم الى مصر فابتلعت أرض وادي النيل جحافلها ، وبقيت مصر لابنائها .

وأما العرب ، فقد كان شأنهم مع أهل البلاد غير شأن السابقين من الفاتحين ، وهذه أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، فان مصر لم تصبح هكسوسية ـ ولا فارسية ـ ولا حبشية ، ولا افريقية ، ولا رومانية ولا رومية . ولكنها بعد دخول العرب اليها أصبحت عربية . ولم تكن مصر البلد الوحيد الذي فتحه العرب ، وحدثت فيه تلك الاعجوبة!



دخل الغــــزاة اطراف مصر ،
وتحفــزوا للتوغل فيهــا ، ولكنهم
تراجعوا فى اللحظة الاخيرة ،والفضل
فى ذلك الى ((سمكة البردويل)) .

لما انتهى رسول الملك من ذكر المهمة التى جاء من أجلها مع الفرسان الذين يرافقونه ، ظن ان المرأة التى كان يخاطبها ستوافق على ما عرضه عليها ، وتعهد اليه بأن يشكر الملك على ماابداه نحوها ونحو اسرتها من عطف واهتمام .

لكن «سلومة »القروية : بعد ان أصغت اليه صامتة جامدة ، شاخصة البصر متقلصة الوجه ، اشارت بيدها الى الطريق ، واجابت بصـــوت متهـدج تكاد العبـرات تخنقه :

ــ عد من حيث أتيت مع رفاقك أيها الفارس ، وقل للملك الـــذى أرسلك أن الدية التي يبعث بها إلى قد تدفع عنى الفاقة وتضمن لى لقمة الخبز مع ولدى مدة من الزمن ، ولكنها لن تعيد الحياة الى القتيل الذى فتك به الملك ظلما وغدرا ، اننى ارفض الدية . واعرف اننى أضـعف من أن أتمكن من الاخذ بثأر زوجى . غير اننى اترك لله عز وجل أمر الانتقام من القتلة السفاحين .

وعبثا حاول الرسول ان يثنيها عن عنادها . فقد أصرت سلومة على الرفض . واضطر الرجل أن يبتعد عن البيت الصغير القابع بين الاشجار على ضفاف نهر الاردن ، ويرجع الى بيت المقدس .

وما أن ابتعد الفرسان واختفوا بين الصخور ، حتى نادت سلومة ولديها الصغيرين ؛ وضمتهما الى صدرها ، وغمرتهما بالقبلات : وتمتمت قائلة :

ــ عندما تكبران ، قد يتاح لكما الاخذ بالثأر . أما الآن ، فسأذهب بكما الى مصر ، حيث يقيم ابى جدكما ، واخى خالكما ، لتعيشا فى كنفهما هانئين مطمئنين .

وراحت تعد العدة للرحيل .

***

كان زوجها «رباح الادلبى» يقيم معها فى بيت صغير بناه بيديه ، عند «معبر بنات يعقوب » على ضفة الاردن الشرقية ، يصطـاد الثعالب والذئاب ، ويتاجر بالجلود ، ويبرى الاقواس والنبال ، ويتردد لتصريف تجارته ، على الامارات العربية الوطنية من ناحية ، وعلى مملكة أورشليم الصليبية والامارات الافرنجية من ناحية أخرى ؛ فى الايام التى يعم فيها السلم ويسود الهدوء .

وكان الصراع ينشب ثم يخمد لكي ينشب ويخمد من جديد ،بين الصليبيين الذين رسخوا اقدامهم فى بعض اجزاء سورية ، وبين الدولة الفاطمية المصرية المحتفظة بسلسلة من المواقع فىالقطر الشامى ،والعاملة على استخلاص ما استولى عليه الافرنج منها .

وكان على راس الدولة الصليبية اول ملوكها «بودوان» المعروف عند العرب باسمه السكسونى «بلدوين» وهو رجل اشترك فى الحرب الصليبية الاولى ، ودعا رفاقه الذين جاءوا معه من الغرب الىالتصميم على البقاء فى البلدان التى فتحوها وتملوكها ، وأن يتركوا فكرة العودة الى الاوطان التى هجروها ، فتعلم اللغة العربية وجعلها لغة التخاطب فى دولته ، وارتدى الثياب الشرقية ، فلبس الجبة والعباءة ، وجعـــل تاجه عمة زاهية الالوان ، وكان يجلس متربعا على السجاجيد ، ويتناول طعامه من منسف يدعو حوله أصدقاءه ومعاونيه ، ويحاول بذلك كله أن يتقرب الى السكان من أهل البلاد ، ويستميلهم اليه ويقنعهم بقبـول حكمه والرضا بالنظام الجديد الذى اقامه الصليبيون فى تلك البقعة من الارض الشرقية ، فى آخر القرن الحادى عشر .

وكان بودوان قد تولى الملك فى سنة ١١٠٠ ميلادية ، الموافقة لسنة ٤٩٢ للهجرة . وعول على ان يواصـــــل الفتوحات التي بداها اخوه «جودفروا» قائد الحرب الصليبية الاولى . وراح يتطلع الى الثغورالتى لم يكن الافرنج قد استولوا عليها بعد ، على ساحل البحر المتوســـط ، ويرنو بالنظــر الى بعيد : الى ارض مصر نفســـها ،

ومرت اعوام تخللتها المعارك بين الطرفين ، بين بودوان وبينالخليفة الفاطمى « الامر باحكام الله » الذى تولى العرش وهو طفل فى الخامسة من العمر : فاستلم مقاليد الدولة فى عهده الوزير شاهنشاه الملك الافضل ابن الوزير بدر الجمالى .

وكانت الحرب متقطعة ، يلازم النصر فيها تارة هذا وتارة ذاك من الخصمين .

وفى خلال كل مهادنة ، كان بودوان يصرف وقته بين احد امرين : اما الطواف فى انحاء مملكته للاختلاط بالناس ، واما القيام برحـــلات للصيد فى الهضاب والغابات . وكان يباهى بأنه أمهر من رشق السهام فى الشرق ، ويدخل احيانا فى مباريات فى هذا المضمار مع اشهر الرماة المصريين والسوريين ، بين معركة واخرى . وفى ذات يوم خرج للصـيد مع كوكبة من فرسانه ، واجتاز الصيادون النهر من معبر بنات يعقوب ، وأملم بيت رباح الادلبى ، رأي واحد منهم نعجة ترعى الاعشاب ، فماكان منه الا أن صوب اليها سهما قاتلا . فصاح به رباح من عتبة بابه :

ـ هذا عار لا يليق بالرجال .. خير لك أن تنازل الابطال فى الميادين بدل أن تطارد النعـــــاج فى الحقـــــول .

وحاول الملك ان يهدىء ثورة الرجل ، ولكن الادلبى فقد كل اتزان ، فانطلق يسب ويشتم ، وصاح فى وجه الملك :

ـ ليس هؤلاء الجبناء بالصيادين : انهم لصوص ، وقائد اللصوص لص مثلهم .

وما ان سمع الملك هذه العبارة حتى فقد بدوره اتزانه ، فشد سهما الى قوسه ، ورشق به العربى الذى اهانه ، فأصاب منه مقتلا .

وواصل الصيادون سيرهم نحو الادغال القريبة ، تاركين امـــام البيت الصغير جثتين ، جثة صاحب الدار ، وجثة نعجته ، وزوجـــة تلاحقهم باللعنات وتندب رجلها !

وندم الملك بودوان على ما بدر منه ، وادرك خطأه وخطأ رفيقه الذى كان سببا لوقوع ذلك الحادث المؤلم ، ولما عاد الى قصره ببيت المقدس، اوفد الى المرأة التى قتل زوجها رسلا يعرضون عليها دية القتيل ، عملا بالتقاليد المرعية فى البلاد . بيد ان سلومة رفضت قبول الدية ،وطردت الرسل ، ورحلت عن المكان الذى عاشت فيه مع زوجها السورى عائدة الى مصر وطنها ، حيث استقرت مع ولديها فى كنف أبيها واخيها ، وهما من صيادى السمك فى خليج الفرما وبحيرة سربونة ..

***

فى مطلع سنة ١١١٨ للميلاد ، الموافقة لســنة ٥١١ هجرية ، عزم الملك بودوان على مهاجمة مصر ، وهدفه الاستيلاء على موقـع او اكثر عند مصب الفرع الشرقى لنهر النيل ، المعــروف بالفرع البيلوزى او «الفرمى» ، وانشاء قاعدة حصينة يمهد منها للوثوب على قلب البلاد .

وزحف الجيش الصليبى فى محاذاة الشاطىء ، فاجتاز المســافة من وادى غزة وبلدة العريش الى «الفرما» بدون ان يلقى مقاومة تذكر، فقد كان الملك الافضل قد قرر ان يستدرج الغزاة الى داخل البـلاد ، ويبعدهم عن قواعد زحفهم وتموينهم ، ويخلى الطريق امامهم ليتقدموا مطمئنين ، ثم ينقض عليهم عندما تتوافر له اسباب الفوز الاكيد .

كان بودوان الاول يؤمن بقراءة الغيب ويصدق أقوال العرافين . وفى العريش جىء اليه باعرابية مشهورة بنبوءتها بين عشــائر سيناء ، فقالت وهى تلقى بالحصى على الرمال البيضاء الناعمة : «أيها المـلك ، سوف تعود الى مقر ملكك محمولا على الاكتاف .. عدوك ليس فى البر ، انه فى البحر .. فكن على حذر .. سوف تهزم بدون قتال ، وتقتـل بدون سلاح » .

وفسر الملك هذه النبوءة بأنه سينتصر فى مصر على الفاطميين ،ويحمله اتباعه على اكتافهم يوم عودته الى القدس ، وان الجيش الذى سيلاقيه فى مصر لن يصمد فى وجهه ، لانه فى البر وليس فى البحر .

وصل بودوان على راس مشاته وفرسانه الى مدينة بيلوزه ، وهى الفرما ، فاذا بها خاوية خالية . فدخلها بدون قتال ، ولكنه اطلق ايدى جنوده فراحوا يحرقون ويخربون وينهبون . وقرر أن يبقى فى المدينة اياما ، يستأنف بعدها الزحف على ضفاف الفرع النيلى ، فى طـــــريق القـــــاهرة .

وامر بأن يستريح الجنود ، وبأن تقام المآدب ، ودعا قــــواده الى تناول الغداء معه كل يوم ، حول المنسف الملكى ، وأن يكون السمك الذى اشتهرت به بحيرة سربونة ، اللون المفضل بين ألوان الطعام الشرقى الذى يهواه . . .

ولشد ما هللت سلومة وكبرت يوم وصل بودوان الى الفرما ، ويوم علمت ان الملك الافرنجي أوصى بأن يقدم اليه والى مدعويه الســــمك السربونى الفاخر على منسف الغداء كل يوم .

وتعهد ابوها واخوها بتقديم الكمية المطلوبة من ذلك الطعام الشهى.

وفى ذات يوم ، حملت سلومة بنفسها الى مقر الملك ، سمكة كبيرة الحجم ، قالت أنها حقا سمكة ملوكية ، لم يسبق للصيادين فى بحيرة سربونة أن أخذوا مثلها فى شباكهم ، وانها جاءت بها هدية للفاتح العظيم .

خص الملك نفسه بالسمكة الدسمة ، وقال انه لم يذق فى حياته الذ منها ، ووافقه على رايه أعوانه المقربون ، الذين ساعدهم الحظ فى ذلك اليوم فجلسوا معه حول المنسف ، ونالهم نصيب من الغداء الفاخر !

وفى المساء ، شعر الملك بودوان بدوار شديد ، وارتفعت حرارته ، وظهرت على جسمه بقع حمراء ، فلزم فراشه وهو يرتعش من الحمى ! ومر يومان وحالة المريض لم تتحسن . فأمر بأن يشــد الجيش الرحال للعودة من حيث اتى . فرجع الجيش الفاتح الى العريش ، حيث قضى الملك نحبه فى الرابع من شهر ابريل ــ نيســــان ــ سنة ١١١٨ . ومات معه ثلاثة من الذين شاركوه فى التهام السمكة العجيبة ، بعد ان قاسوا ما قاساه من آلام !

ونقل جثمان بودوان الاول الى عاصمة ملكه اورشليم ، أو بيت المقدس ، او القدس الشريف ، وعند الاسوار حمل قواد الجيش ســــيدهم على الاعناق ، ودخلوا المدينة بين بكاء الرجال وندب النساء وتراتيل الرهبان ، ودفن الملك فى قبرين ! جزء من جسده ووري التراب فى المكان المعروف

الى الان باسم « قبر بردويل » وجزء آخر ضمته أرض كنيسة القيامة ، حيث وضعت لوحة من الحجر تحمـــــل اســـمه .

***

وبينما كان الصليبيون يحتفلون في القدس بدفن ملكهم ، ويستعدون لانتخاب خلف له : كانت سلومة أرملة رباح الادلبي ، تقيم الافراح وتدعو اهل بلدتها الى مآدب تقدم لهم فيها السمك السربوني ، الذي يصطاده لهم كل يوم ابوها وأخوها وولداها !

وكانت المرأة ترحب بمدعويها بعبارات مبهمة ، أوضحت لهم معانيها في النهاية ، فرفعت ذات يوم ذراعيها الى السماء وقالت :

ـ الحمد لله . لقد تم لي ولولدى الثأر .!. لم يكن في وسعي ان لزوجي بالسلاح الذى قتل به ، فانتقمت له بالسم مدسوسا في جــــوف سمكة دسمة .

وشاع الخبر في الفرما : الملك بودوان مات مسموما . والتف السكان حول سلومة يهنئونها بالثأر ، ويجددون عزاءهم على موت زوجها .

وانتقل الخبر من الفرما الى العريش فالقدس : فراع السكان فيها أن يكون ملكهم قد مات مسموما بيد امرأة ، فأشاعوا أن الوفاة كانت نتيجة لنزول بودوان الى الماء وهو يتصبب عرقا ، فأصيب بالحمى .

وبلغ الخبر مسامع الحكام في القاهرة ، فأصــــدروا أوامرهم بوقف التأهب للقتال ، ما دام الجيش الغازى قد انسحب قبل المعركة الفاصلة.
وتحققت نبوءة الاعرابية في العريش .

عاد الملك بودوان الى مقر ملكه محمولا على الاكتاف وطلع عليه العدو من البحر لا من البر ، وهزم بدون قتال ، وقتل بدون سلاح .

واصبحت قصته حديث الناس في البلاد المصرية والشامية . وصاروا عندما يذكرون بحيرة سربونة الغنية بأسماكها ، يسمونها «بحــــيرة البردويل» وهو تحريف لاسم بودوان أو بلدوين . وصار الســـمك السربوني يعرف ولا يزال يعرف حتى أيامنا هذه بالسمك «البردويلي» ويقال له أيضا السمك «البورى» .



جاءوا فاتحين ، ففتحت لهم مصر

أبواب السـجون ! ..

لكل حقبة من الزمن صبغة تتسم بها ، ولكل عصر طابع خاص يختلف به عن غيره من العصور .

والمعركة التي نرويها هنا وقعت في عصر وفي حقبة كان الصراع فيهما على أشده ، بين الشرق والغرب .

نرجع بك الى القرن الثالث عشر للميلاد ، الموافق للقرن السابع للهجرة . . .

في تلك الحقبة من الزمن ، حملت السفن البحرية من جنود فرنسا جيشا مدربا ، كثير العدد ، كامل العدة ، لاخذ فلسطين من العرب الذين سبق لهم ان اخذوها من الروم ، ثم فقدوها ، ثم استرجعوها من الافرنج في الحروب الصليبية الاولى .

في هذه المرة حشد ملك فرنسا لويس التاسع – جيشا من خمسين الف مقاتل ، يضم خيرة الاشراف والنبلاء والفرسان ، ومضى على رأسهم الى الشرق ، في حرب عرفت بالصليبية السابعة .

القت السفن مراسيها ، الواحدة بعد الاخرى في موانىء جزيرة قبرص ، التي كانت في ذلك الوقت ملكا للصليبيين ، من اسرة « لوسنيان » .

تجمع في تلك المواني اسطول مؤلف من الف وستمائة سفينة كبيرة وصغيرة ، بعضها معد للقتال في البحر ، وبعضها معد لنقل الرجال والعتاد الى البر . . .

وقرر لويس التاسع ، بعد تفكير طويل ، ان يهاجم مصر ، بدل ان يغزو فلسطين . .

كانت مدينة بيت المقدس تابعة للدولة الايوبية المصرية ، وكان سلطان مصر ، الملك الصالح نجم الدين أيوب ، قد خرج من وادي النيل في حملة تأديبية ، لاخضاع بعض الامراء المتمردين ، والقبائل العاصية في الاراضي الشامية .

كان يحاصر مدينة «حمص» يوم حمل اليه الرسل النبأ المقلق : نبأ نزول الافرنج في الساحل المصري ، عند ثغر دمياط فأمر برفع الحصار ، وقفل راجعا بسرعة الى مصر تاركا لابنه توران شاه مهمة اعادة الأمن الى نصابه في الشام .

وكان لويس التاسع ، من ناحيته ، قد امر بأن تقلع السفن بالحملة

الصليبية ، ووجهتها الدلتا . ووصل قبالة دمياط ، ونزل بجيشه بالقرب منها فى اليوم الخامس من شهر يونية ١٢٤٩ = ٦٤٧ للهجرة .

هاجم الغزاة المدينة حيث كان الامير فخر الدين عثمان قد حشد ستة آلاف مقاتل للدفاع عنها ، معظمهم من رجال بنى كنانة ، المستوطنين فى دمياط وضواحيها ، ولكن الدفاع لم يجد نفعا بسبب تخاذل بنى كنانة واضطر فخر الدين الى ترك المدينة والرحيل جنوبا ، تاركا الغزاة الغربيين يستولون عليها ويرفعون اعلامهم على أسوارها .

وصل الملك الصالح نجم الدين أيوب الى مصر بعد فوات الوقت ، فوجد نفسه امام الامر الواقع .

سقطت المدينة الساحلية الجميلة فى يد الغزاة ، وتراجعت القوات المصرية الى مدينة «المنصورة» حيث انتظر فخر الدين وصول السلطان لاعادة تنظيم الجيش واعداد العدة للثأر .

لعبت الاقدار دورها فى ذلك الصراع بين الشرق والغرب .

لو واصل ملك فرنسا زحفه الى الجنوب ، بعد اخذ دمياط ، لاستطاع ان يتوغل فى البلاد الى مسافات طويلة من جميع الجهات ، بالنظر الى ان معظم الجيش المصرى كان خارج البلاد ، والسلطان ايضا ، وأن فلول قوات فخر الدين لم تكن قادرة على صد الهجوم وتفادى الخطر . .

لن الملك لويس التاسع لزم مكانه فى دمياط ، بعد الاستيلاء عليها وبقى فيها ينتظر وصول نجدات جديدة من بلاده ، ستة شهور كاملة . مما جعل «نابليون» القائد العظيم ، يقول بعد ذلك الحادث بنيف وخمسة قرون ، ان جمود الجيش الفرنسى فى دمياط كان غلطة من أبعد اغلاط الحروب عاقبة .

وصلت الامدادات التى كان لويس التاسع ينتظرها فى أوائل شهر ديسمبر فى السنة ذاتها . وما أن التحقت بالجيش الفاتح ، حتى أصدر الملك الفرنسى امره باستئناف الزحف جنوبا ، فى محاذاة النيل نحو مدينة «المنصورة» فمدينة «القاهرة» .

واستأنفت الاقدار أيضا دورها .

وصل الملك الصالح نجم الدين أيوب الى المنصورة ، ولكنه بلغها تعبا ، مريضا ، مشرفا على الموت .

وتلقفته المنية قبل أن يتمكن من انجاز تدابير الدفاع ، فتولت زوجته «شجرة الدر» مع الامير فخر الدين قائد الجيش : مبايعة ابنها



على شـــــاطىء دميـــاط

رسم قديم يمثل نزول الافرنج فى الحرب الصليبية

الســابعة ، وتصـــدى القوات المصرية لهم

وابن السلطان الراحل ، توران شاه ، وارسلت تستدعيه من الشـــام على جناح السرعة .

هبط جيش الغزاة من ثغر دمياط جنوبا ،فبلغوا الترعة المسماة «خليج اشمون» بين بر دمياط وبر المنصورة ، وحاول الملك لويس أن يمد فوق الترعة جسرا من الخشب ، فمنعة المصريون من ذلـك باستخدام قذائف ملتهبة كانت تشعل الخشب وتحرق الجنود بنارها أو تخنقهم بدخانها . . .

ومرت اسابيع ، وكل من الفريقين تجاه الآخر ، يرقبه من ضفة الى ضفة ، وكان هم المصريين فى تلك الفترة من الوقت ، أن ينجزوا تحصين المنصورة ، ويقيموا فى طريق الغزو ما يستطيعون اقامته من عراقيل .

فى هذه الفترة بالذات ، نزل الشعب الى الميدان ، جنبا الى جنب مع الجيش . .

تقدم الفلاحون والعمال لتنفيذ الاعمال الدفاعية التى رأى فيهـــا فخر الدين وسيلة لدعم خطوطه ، كحفر القنوات ، وهدم المعابر ، وبناء السدود واقامة الحواجز وتخريب الطـــــرق .

وفى وقت واحد ، تقدم كل قادر على خـــوض المعـــركة ، فطلب سلاحا ، أو جاء معه بسلاحه ، ووضع نفسه تحت تصرف القائد العـام لليـــوم العصـــيب .

واكتملت قوة الدفاع من الجيش والشعب : كل منهما يسنـــد الآخر ، ويعززه ، ويدعم صـــفوفه .

وبعد هدوء استغله كل من الفريقين المتحاربين للاستعداد والتحفز، نشب القتال الذى كان الجميع يتوقون اليه

فى الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ ميلادية = ٦٤٨ للهجرة وجـد الكونت دارتوا ، شقيق الملك لويس التاسع ، مجازة سهلة من ضفة الى أخرى ، واندفع فيها مع رجاله ، ففوجىء المصريون بهذا الهجوم،وارتدوا مسرعين نحو المنصورة للاحتماء باسوارها ، وقتل قائدهم فخر الدين. وخيل الكونت أن النصر اصبح فى قبضة يده !

دخل المصريون المدينة فانطلق الفرنســيون فى اثرهم . وما كان الغزاة يدركون انهم يسرعون الى هـــلاكهم . .

أغلق المصريون ابواب المدينة فحصروا فى داخلهـــا شقيق الملك والفرسان الذين كانوا معه ، ونادى المنادون فى انحاء المنصـــورة فهب السكان لنجدة الجنود المحاربين ، وتعثرت خيول الافرنج الثقيـــلة فى

الحوارى والازقة ، وانهالت على رؤوس الفرسان سيول من الحجـارة والطوب ، واحاطت بهم السيوف والرماح والخناجر من كل صوب .

لم يتمكن احد منهم ان ينجو بحياته : فقد سقطوا جميعا صرعى فى شوارع المنصورة ، وقطعت رؤوس بعضهم وارسلت الى القـــاهرة لتعـــلق عند أبـــواب العاصـمة .

كان ذلك الانتصار الاول مشتركا بين الجيش المحـارب والشعب المـــــدافع عن مدينتـــــه .

واعقب المعركة هدوء نسبى ، فلزم كل من الفريقين مواقعـــه من جديد ، يرقب الفرصة للانقضاض ، أو للانسحاب ، حسبما يخبئه الغد من مفاجئـــــات ..

بعد مذبحة الكتائب التى قادها الكونت دارتوا الى داخل المنصورة ، باندفاعه الاهوج ، عمد السكان الى تنظيم صفوفهم ، واعداد أنفسهم للقتال ، فعقدوا اجتماعات فى احياء المدينة اسفرت عن تخـــويل ثلاثة شبان وامراة ، سلطة القيادة الشعبية فى داخل المدينة وخارجهـــا ، بالتعاون والتفاهم مع القائد العام الجديد ، الذى اختـــاره الجيـــش بالاجماع : الامير بيبرس البندقدارى .

اما الشبان الثلاثة والمراة التى شاركتهم فى شرف القيادة الشعبية ، فهم ثلاثة اخوة ، ولم تكن المراة غير أمهم ، التى قتل زوجها فى دميـاط يوم خرج منها الجيش ، وتفرق فرسان بنى كنانة مهزومين امام الافرنج

كان زوج المراة « سهيل بن فارس الجـــوادى » واحداً من كبار قومه ، وشاعرا يجيد النظم بقدر ما يجيد الحــــرب . وقد حاول أن يمنع رجاله وبنى عشيرته من التخلى عن الدفاع ، فى دميـــاط ، فـلم يصغوا اليه ، وفار فائره ، ودبت فى صدره عقارب اليأس فانطلق وحده نحو الاعداء ، صائحا بجماعته وبأبنائه : « أن يقال انه لم يسقط سيد من بنى كنانة ، وشاعر من شعرائهم ، دفاعا عن دمياط التى اسـتقروا فيها ، وانهم تخلوا عنها جميعا بلا قتال ! »

سقط سهيل صريعا فى غمرة ذلك اليوم الذى عمت فيــه الفوضى مدينـــــة دميـــاط .

واقسم ابناؤه الثلاثة ، وزوجته ، أن يعيدوا الى قومهم سمعتهم الطيبة ، وأن يثأروا لدم الفقيد البطل ، بأن يقودوا فرسان بنى كنـانة الى المعارك اللاحقة ، للتكفير عن تخاذلهم فى المعركة السابقة .

لهذا حرض الشبان الثلاثة وامهم سكان المنصورة ، ومن جاءها من الكنانيين بعد التخلى عن دمياط ، والتراجع من خليج اشمون ، على

تنظيم صفوف الاهالى من جديد ، وتاليف حرس وطنى يشارك الجيش فى جهـــــاده ومقاومته .

ولما ازفت الساعة التى ارادتها الاقدار خاتمة لتلك الحقبة الدامية من التاريخ المصرى ، خرج الجيش من المدينة ، وخرجت فى أعقـــابه افواج المتطوعين من السكان ، وكتائب الفرسان من بنى كنانة

كان الملك لويس التاسع قد حشد جيشه كله ، على مسافة قصيرة من المنصورة ، واقام جسرا على الترعة ، وضرب هناك مضـــاربه ، فى انتظار الفرصة المناسبة لاستئناف الزحف جنوبا ، أو للعودة شـــمالا .

ومرت أسابيع اخرى توالت فيها على جيش الغزاة المتـــاعب ، واكتنفته الاهوال ، بسبب الامراض التى داهمته ، وافتقاره الى المؤن ووجوده وسط بلاد معادية .

وقرر الملك فى أوائل شهر ابريل سنة ١٢٥٠ ، ان يتراجع بجيشه شمالا ، ويعود الى دمياط ليتحصن فيها وينتظر الفرج !

كانت الفرصة سانحة للمصريين بأن يثبوا على الغزاة وهم يستعدون للرحيل . .

وكان الفرنسيون قد أهملوا قطع الجسور التى مدوها فوق الماء، يوم انسحبوا عائدين من حيث أتوا . .

وفى المكان المعروف باسم « منية أبى عبـــد الله » بالقــرب من فارسكور ، داهم المصريون جيش الغزاة واحاطوا به من كل صوب . .

وتحالفت المياه ، مياه النيل ، ومياه الترع ، مع الجيش المحارب ، ومع الشعب المناضل ، فتعاونت كل تلك القوى فى الميدان ، فى ســـبيل الهـــدف الواحـــــد .

كانت المعركة حاسمة ، وكان النصر شاملا كاملا ، فقد تحول القتال الى مذبحة ، ورأى الملك لويس التاسع ان الحكمة تقضى ، والرأفة تنصح بأن يأمر الملك رجاله بالكف عن الحرب ، والاستسلام بلا قيد ولاشرط، حقنا للدماء ، ورحمة بالارواح

وصدر الامر الرهيب !

فاصبح الجيش كله ، والملك على رأسه ، اسيرا لدى المصريين !

اعيد لويس التاسع الى المنصورة حيث بات ينتظر من قومه ان يفتدوه بالمـــــال !

وتم الصلح ، على ان يطلق سراح الملك ، وقواده ، ورجاله ، مقابل

الجلاء عن دمياط ، والرحيل عن أرض مصر ، ودفع ثمانمائة الف دينار من الذهب ، وترك معدات القتال ، والاسلحة والذخائر والمؤن ، غنيمة للمصريين . .

بعد معركة المنصورة الثانية ، أو معركة فارسكور على الاصح ، أسرعت «يمامة» زوجة سهيل بن فارس الجوادى ، وابناؤها الثلاثة ، الى الملك المعظم توران شاه ، ابن الملك الصالح ايوب وشجرة الدر،والقى الكنانيون الاربعة بأنفسهم على قدمى السلطان ، وطلبوا منه ان يعدل عن تنفيذ قرار كان قد اتخذه يوم وصوله من سورية ، وهو قرار يقضى بمعاقبة زعماء بنى كنانة ، لانهم لم يحسنوا الدفاع عن دمياط حيال الغزو الاجنبى !

قالت يمامة : « ان الشعب شارك الجيش فى فخر القتال والانتصار، وكان بنو كنانة فى هذه المرة طليعة ، أفلا يكفر الذين حاربوا واستبسلوا فى القتال فانتصروا عن عجز ، الذين سبقوهم فقاتلوا وخانهم الحظ فانهزموا ؟ »

وقال السلطان :

ـ ان البطولة تكفر عن الذنب . فقد عفونا يا يمامة !



هتف الزعيم : « نصر من الله وفتح قريب ! » فكان له النصر والفتح !

أطلق الفرسان الاربعة لخيلهم العنان ، ثم اخذوا يحثونها بالمهامير، فتندفع بهم كالسهام المارقة تشق عباب الصحراء .

وظل الرفاق الاربعة صامتين واجمين ، لا يتبادلون الحديث الا نتفا متقطعة ، كلما وقفوا للراحة أو تناول القليل من الطعام وترك جيادهم في خلال ذلك ترعى الاعشاب النادرة في تلك القفار الجرداء .

كان « مصطفى علوان » قائد هذه الجماعة . وهو عملاق في نحو الخمسين من العمر . جهوري الصوت سريع التأثر يتلقى رفاقه كل كلمة من كلماته امرا مطاعا . وكان من اكبر تجار الخيل في مصر ، وفارسا لايشق له غبار ، حتى لقد عرف بين فرسان المماليك المشهورين باسم « مصطفى الخيال » ثم غلب عليه هذا اللقب واشتهر به بين الجميع ..

أما رفيقه الثاني فهو اخوه عبد الله . واما الفارسان الآخران فكانا من الجنس اللطيف !

واولاهما : هي : « زينب » زوجة مصطفى . وقد التقطها الرجل يتيمة في شوارع القاهرة : فأخذها الى بيته ثم تزوجها فجلبت معها اليه الخير والرزق ، مما جعله يسميها « بركة » فاحتفظت بهذا الاسم نزولا على رغبته ..

وأما الاخرى ، ففتاة يانعة ، في الخامسة عشرة هي « وحيدة » ابنة عبد الله . ماتت امها وهي طفلة لم تتجاوز الثالثة بعد فاحتضنتها زوجة عمها «بركة» التي لم ترزق ابناء وعاشت الاسرة المكونة من الرجلين والمرأة والابنة الوحيدة على اتم ما يكون من وفاق ومحبة واخلاص ..

كان مصطفى الخيال يطوف بلاد العرب ومضارب البادية باحثا عن الخيول المطهمة والافراس الاصيلة ، فيسوقها الى القاهرة حيث يختار منها المماليك اجودها ، ويتاجر مصطفى بما بقي منها في أسواق مصر او عواصم الامارات والمماليك العربية المجاورة ،فذاعت شهرته ، واحبه الناس لامانته في المعاملة ، ونال الحظوة في قصور الملوك والامراء والقواد ، من وادي النيل الى ضفاف بردى ودجلة والفرات ..

وكان يصطحب معه في رحلاته أفراد أسرته الثلاثة ، وكانت المرأة والفتاة تتحملان متاعب السفر بشجاعة وجلد عظيمين ، فعرفتا الحواضر والبوادي والجبال ، وفاقتا في فنون الفروسية كثيرين من الرجال ..

وعلى شاطيء الفرات ، علمت أسرة الخيال بما أحرزته جيوش

المغـول بقيـادة هولاكو من انتصارات ساحقة جارفة وهي في طـريقها من الشرق ، متدفقة على فارس والعراقين فعزم المصريون الاربعة على العودة الى بلادهم ، مارين بدمشق الشام ، لايقـاظ الغافلين ، وابلاغ حقيقة ذلك الخطر القادم الى مسامع الذين يجهلونه أو لا يأبهون به .

***

وصل مصطفى الخيال ورفاقه الثلاثة الى « الغوطة » فاستراحوا بضع ساعات ، وتركوا لجيادهم الوقت الكافي لاستعـادة قواها ، ثم توجهوا الى قصر « الناصر يوسف » صاحب دمشـق ، الذى رحب بمصطفى وشكره على المهر الذى ابتاعه منه في العام السابق ، قائلا :

ـ انه احسن جياد هذا البلد يا مصطفى . وقد اطلقت عليـه اسم « محروس » عملا برأيك . فهل « محروسة » أمه معكم اليوم ؟ فأجاب مصـطفى :

ـ نعم يامولاى . ان « محروسة » هي الفرس الاصيل التي لايحلو لزوجتي بركة ركوب غيرها . ونحن الآن في طريقنا الى مصر . واخشى لو واجهنا المهر بأمه ، أن يتعذر عليكم ترويضه فيما بعد . فأنت تذكر كيف ان ذلك المهر كان شديد التعلق بأمه ، وانكم قضيتم شهوراعاجزين عن ترويضه واعتلاء متنه . ولكن دعنا من المهر والفرس ، فما عرجت على قصرك اليوم للتجارة ، بل للانذار !

وقص مصطفى الخيال على الناصر ما علمه ورآه في رحلته من امر اولئك المغول القادمين من الشرق بقوة هائلة وعدد لا يحصى . وكان الناصر قد علم الشيء الكثير من اخبارهم فتضاعفت مخاوفه ، وعـرض على تاجر الخيول المصرى ان يبعث معه الى مصر رسولا لتحية صاحبها « سيف الدين قطز » والاستنجاد به والتحالف معه على صد الغـزاة الوافدين . فقبل مصطفى الخيال واستأنف السير في اليوم التـالى ، ومعه رفاقه الثلاثة ورسول الناصر الى قطز ، وانطلق الجميع يقطعون المفاوز وينهبون الارض نهبا ، الى القاهرة محط الرحال ومعقد الامال ، القاهرة المحروسة التي سمت « بركة » فرسها باسمها تيمنا ومجلبـة للخـير ! . .

***

ضربت الفوضى اطنابها في مصر بعد مأساة شجرة الدر ، وعندما وثب المغول وثبتهم من مجاهل آسيا ، كان الملك في وادى النيل قد آل الى نور الدين على ، ابن المعز ايبك ، وهو صبى لاحـول له ولا طـول ، وقد لقب « بالملك المنصور » فكان اللقب اسما على غير مسمى ، وقام بنيابة السلطنة الامير سيف الدين قطز من المماليك البحرية ، وادرك ذلك الرجل المقدام أن المملكة لن تصمد في وجه الغـزاة الا اذا قبض

قابض فيها على السلطة بيد من حديد ، فراح يفكر في الامر ويرسم الخطط لبلوغ هذا الغرض

وكانت الحوادث تتلاحق مخيفة هائلة : فقد تدفق اربعمائة الف مغولي على العراقين بقيادة هولاكو ، الذي تنبأت له احدى العرافات بأن جيشه لن يغلب ما دام هو قائما على راسه وفي شهر صفر عام ٦٥٦ الموافق لشهر فبراير عام ١٢٥٨ للميلاد ، وثب المغول على بغداد فاقتحموا أسوارها ، ونهبوا وسلبوا سبعة ايام كاملة ، واعتقلوا المستعصم بالله العباسي فأخذوه أسيرا مع ابنائه ، ثم قتلوه فكان اخر الخلفاء العباسيين في بغداد .

وكان هولاكو في الواحدة والاربعين من العمر . فسكر بنشوة ذلك الفوز العظيم ، وواصل الزحف غربا ، فعبر الفرات وصبغ ماءه بالدم كما فعل من قبل بدجلة ، وفرق جيشه اللجب في كل ناحية وصوب ، واضعا نصب عينيه الاستيلاء على سورية سهلا وجبلا ، وكان أول أهدافه دخول حلب ، وثانيها دخول دمشق ، وثالثها الانطلاق نحو مصر وقاعدتها المحروسة !

وصف مصطفى الخيال لسيف الدين الحالة كما عرفها ، وانباه بان الناس في الاقاليم السورية خائفون قلقون ، وأن أمراء تلك الاقاليم لن يقووا على صد الغزاة أو الوقوف في طريقهم غير بضعة اسابيع ، بالنظر الى ما هم عليه من ضعف وتخاذل وشقاق

وبسط رسول الناصر الحالة في دمشق ، وابلغ سيف الدين رغبة الرجل في العمل يدا واحدة معه ، واستنجاده به لانقاذ سورية من الفتح المغولي لانها الدرع التي تحمي مصر من ذلك الفتح وتعد خط الدفاع الاول من وادي النيل .

وعول سيف الدين ، بعد سماعه تلك التفاصيل ، على العمل بلا ابطاء فاتخذ لساعته قرارا ، وعمد الى تنفيذه من جميع وجوهه

قال لرسول الناصر :

ـ عد يااخي الى من أرسلك وقل له : لبيك ! ان سيف الدين قادم اليك بنجدة سيكتب لها الفوز باذن الله فليجرد قواته للحرب ، واذا خذل في الميادين فاننا سنثأر له ، ونأخذ من الان على أنفسنا عهدا بأن نستخلص الشام من ربقة المغول ، كما اننا سننقذ مصر من حكمهم ! اذهب ، رافقتك السلامة !

ثم التفت سيف الدين الى مصطفى الخيال ، وكان افراد اسرته الثلاثة يحيطون به ، وقال له :

ــ وانت يامصطفى ، اسرع الى سيناء واستنفر القبائل هناك للقتال . فاننا سنزحف، قريبا لملاقاة العدو ، فتنضم انت واسرتك ومن ينضوى تحت لوائكم الينا فى ذلك الزحف . .

وخاطب المراة قائلا :

ــ ان اعتمادنا على النساء لا يقل عن اعتمادنا على الرجال يا بركة ! فمتى اصبح الحمى فى خطر، وجب على المراة ان تثبت انها اخت الرجل ! فسيروا على بركة الله يا بركة !

فانحنت زوجة الخيال ، وقالت :

ــ سوف ترى النساء فى الميادين يسابقن الرجال فى سبيل مصر ! . .

فرفع سيف الدين ذراعه الى السماء متضرعا هاتفا :

ــ الله اكبر !. . نصر من الله لمصر وفتح قريب !

وردد افراد اسرة الخيال ، ومن حضر ذلك المجلس حول الامير الشجاع :

ــ الله اكبر !. . نصر من الله لمصر وفتح قريب !

***

ضرب سيف الدين قطز ضربته الاولى فى الداخل ، لينصرف بكليته فيما بعد الى مهمة الدفاع عن مصر ورد الخطر عنها من الخارج . . .

ففى صبيحة يوم من ايام ذى القعدة سنة ٦٥٧ ، الموافقة لسنة ١٢٥٩ للميلاد ، دعا الامير النائب عن الملك رجال الحاشية وقواد الجيش الى جلسة خطيرة ، ووقف فيهم خطيبا فقال :

ــ لقد فكرت طويلا ايها الرفاق ، قبل الاقدام على العمل الذى اقدمت عليه أمس . والمصلحة التى وضعتها نصب عينى هى مصلحة مصر وحدها ، مصر التى يجب انقاذها من الغزو وضمان حريتها وعزها ومجدها . لقد استأثرت بالسلطة لنفسى ، ولكننى لااريد الملك، وجل ما ابتغيه : أن تسيروا معى لملاقاة العدو وصده عن مصر فلايدنس الغزاة أرضها باقدامهم . ولكم بعد ذلك ان تختاروا الملك الذى تريدون ، فاما ان تخرجوا الملك المنصور نور الدين واهله من القلعة حيث احتجزتهم ، واما أن تنادوا بأحد الامراء او القواد ملكا عليكم . فالمشيئة مشيئتكم أولا واخرا وانما الذى ادعوكم اليه الان ، هو توحيد الكلمة



جنكيز خان

مؤسس دولة المغـــول

الذين حاولوا مرارا غزو مصر ففشلوا

وجمع الصفوف امام الخطر الداهم . لنقسم في هذه اللحظة ، اننا سننبذ الحزبية والنعرات الشخصية ، وندفن احقادنا ، فلا نتطاحن، ولا نتناحر ، ولا نتنافس ، ولا يكيد بعضنا لبعض ولا يحفظ احد منا موجدة على احد . بل نوجه قوانا بأجمعها الى محاربة العدو القادم ، لانقاذ وطننا . ففي اتحادنا خلاصه وفي تفرقنا هلاكه . فاي المصيرين تختارون ؟

فصاح الجميع بصوت واحد :

ـ الاتحاد والخلاص !

وهكذا بايعوا سيف الدين قطز بالسلطة ، ولقبوه مقدما بالملك المظفر ، واقسموا أن يتبعوه الى القتال : فاما حياة عزيزة في بلد حر، واما ميتة كريمة في ظلال السيوف !

وهتف سيف الدين وردد الحاضرون هتافه ؟

«نصر من الله وفتح قريب !»

***

سقطت حلب في قبضة المغول . وتبعتها دمشق وغيرها من المعاقل والحصون . وما انتهت سنة ٦٥٨ هجرية ، حتى كان هولاكو قد أخضع بلاد الشام ، وبلغ غزاة هاشم على ساحل فلسطين ؛ وتأهبا لاجتياز الصحراء قاصدا الى مصر ، مطمع الانظار وخاتمة الاهداف

واوفد الفاتح المتعجرف المنتصر رسله الى سيف الدين الملك المظفر ، يدعونه للتسليم والخضوع ، ويهددونه بالخراب والدمار ، وبتحويل النيل الى نهر من الدماء ان هو عمد الى التمرد والمقاومة .

فامر الملك المظفر بقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة بالقاهرة ، وترك منهم واحدا على قيد الحياة ، ليحمل الى سيده خبر ذلك المصير . .

ونفخ النافخون بالابواق ، ونادى المنادون داعين الناس الى السلاح ، فاقبل الكبار والصغار على التجنيد اقبالا لم يسبق لمصر ان رات مثله في تاريخها الطويل ، وتناقلت الالسنة أقوال سيف الدين بأن القوي لا يفهم لغة غير لغة القوة ، وأن الحديد لا يفله غير الحديد ، وأن الراغب في الحرية عليه ان يأخذها عنوة لا ان يستجديها استجداء !

واحتشد في مصر جيش ملأ الحواضر والحقول ، والتحق بذلك الجيش آلاف من الوافدين على مصر من بلاد الشام حيث أبوا حياة

ذليلة وخضوعا للفاتحين ، فهرعوا الى مصر يحدوهم الامل فى انقاذ وطنهم والعودة اليه معززين مكرمين !

وزحف سيف الدين قطز على راس ذلك الجيش الذى تكاتف فيه المصريون وجيرانهم ، وكان هتافهم يصم الاذان « الله اكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »

***

والتحقت بالجيش الزاحف فى سيناء كواكب الفرسان متسابقة من أطراف الصحراء ، وكان يقودها مصطفى الخيال واخوه ، وكانت بركة ووحيدة تقودان كوكبتين من فارسات البادية ، وقد امتشقن السيوف واطلقن حناجرهن بالاهازيج الحماسية .

وكان المغول قد انتشروا فى كل مكان يحرقون ويدمرون ويسبون وقد اتخذوا مدينة غزة مركزا لهم ومقرا لقيادتهم . فكانت أول هدف وثب عليه المصريون وحلفاؤهم فانتزعوها من قبضة الغزاة الذين فوجئوا بتلك الضربة التى لم يتوقعوها ، فارتدوا الى الداخل ، وصدرت الاوامر الى فرقهم المبعثرة بالاحتشاد فى السهل المعروف بغور بيسان بفلسطين .

وحدث فى أثناء زحف المصريين أن نشب خلاف بين اخوى هولاكو فى بلاد فارس ، فترك جيشه ، وعهد بقيادته الى اشد أعوانه مراسا ، ويدعى « كتبغا » شارب الدماء ، ورجع ادراجه لاصلاح ذات البين فى اسرته . .

ولحق سيف الدين قطز بالمغول الى موضع احتشادهم ، فاصطدم الجيشان فى « عين جالوت » وكان الجيش المصرى قد انقسم الى فريقين : فريق يقوده الملك المظفر ومهمته الهجوم على جيش « كتبغا » وفريق يقوده بيبرس البندقدارى ومهمته مراقبة المعركة من ناحية الشرق ، وواوجها عند اللزوم .

وهجم المصريون مهللين مكبرين : « الله اكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »

وكان ذلك فى شهر رمضان عام ٦٥٨ للهجرة ، الموافق للشهر التاسع من عام ١٢٦٠ للميلاد . فاحتدم القتال وعلا الضجيج ، وكان فى مقدمة المغول ثلاثمائة رجل يقرعون الطبول ، فعلت عليها أصوات المقاتلين وقعقعة السلاح وصهيل الخيول ، وتمايلت صفوف الاعداء من الصدمة الاولى ، ثم تضعضعت ، ثم ارتد المغول الى الوراء واضطربت كتائبهم ، وفجأة ، ارتفعت صيحات منكرة فى ميمنة الجيش وبدا فرسان المغول يلوون اعنة خيولهم نحو الشرق طالبين النجاة .

فماذا حدث ؟

حدث أن رات بركة زوجة مصطفى الخيـال ، وهى عـلى راس كوكبة الفارسات العربيات ، قائد المغول كتبغـاممتطيـا صـهوة مهر اشـهب عرفته هى وعرفته فرسها « محروسة !»

ذلك المهر هو « محروس » الذى كان من نصيب القائد المغولى يوم نهبت دمشق واستولى الفاتحون على مرابض الخيل فى قصر النـاصر يوسف . فاطلقت بركة فرسها نحو القائد ، وعرف المهرامه فصهـل، وانطلق من ناحيته الى الجهة التى كانت بركة وصويحباتها فيها،تحيط بهن شرذمة من فرسان مصر !

حمل المهر فارسه المغولى الى وسط تلك الحلقة بالرغم منه ،فقد جلبت الفرس ابنها اليها ، وجلب المهـر معه قائد المغـول الى حيث ينتظره الهـلاك !

وثب المصريون على كتبغا يرمون اسره ، ولكنـه دافـع عن نفسه فاصيب بضربة سيف ألقته عن صهوة المهر مجندلا على التراب ، ومـ رأى المغول قائدهم صريعا يتخبط فى دمه ، حتى تولاهم اليأس ودب الى قلوبهم الذعر ، ففروا من الميدان نحو الشرق لا يلوون على شيء !

وتلقفتهم سيوف الفرسان المرتقبين مع بيبرس البنـدقدارى ففتكت بهم ، فتكا ذريعا ، وانتشرت فلولهم فى الهضاب والبطـاح ، واصدر سيف الدين أمره الى فرسان البادية وفارساتها بمطـاردة الهاربين والقضـاء على كل من بقى منهـم وارتفعت الهتـافات من الصـدور :

ــ الله اكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !

كان هولاكو قد أخضع الممالك والامارات فى فارس والعـراقين وسورية ، وقوض اركان الخلافة فى بغداد ، وقتـل الخليفـة ، ودوخ الروم والعرب ، ولم يبق له غير بسط سلطانه على مصر ليشمل ملـكه الشرق الادنى بأسره . لكن معركة عين جالوت قلبت ذلك الوضـع راسا على عقب وحولت النصر الى هزيمة منكرة ، فلم يجد هولاكو عزاء غير الادعاء بأن جيشه لم يهزم الا لانه لم يكن هو على رأسه وان المنجمـة لم تكذب عنـدما قالت أن المغـول لن يقهروا ما دام يقـودهم هولاكو ! . .

وواصل سيف الدين قطز زحفه الى ا لامام فاسـتخلص ارض الشـام بأسرها ، واعاد اليها الطمانينـة والامان . وبدات أوصـال الامبراطورية المغولية العظمى تتفكك شيئا فشيئا واطرافها تنـكمش ، وعاد الملك المظفر على راس جيشه الى وادى النيل ، بعد أن انقذ الشرق

من الغزاة الاغراب الفاتحين ، فاستقبل الشعب المصرى ابناءه البواسل بالترحيب والهتاف ، وادرك معنى الوحدة والتكاتف والتساند ، وظل النيل المبارك يجرى هادئا بين ضفتيه الخضراوين ، وقد اطمأن الناس، وغاب عن مصر شبح الغزو ، وتجاوبت فى المدن والقرى والمـــــزارع والحقول تلك الادعية التى مشى المصريون على انغامها الى القتال فالفوز والتى انطلقت من افواه الشيوخ والاطفال ، والرجال والنســـاء على الســـواء :

« الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »





دعا داعى الواجب الوطنى الى توحيد
الجهود ، فتوحدت ، وخفقت أعـلام
النصر على الصفوف المتراصـــة !

جحافل تسبقها جحافل وتتلوها جحافل ..

آلاف مؤلفة من المشـاة ، تتقدمهم وتتـبعهم وتنتشر على جناحيهم آلاف مؤلفة اخرى من الفرسان ، يمتطون الجيـاد المطهمة ، والافراس الاصيلة ، او الجمال والبغال والحمير !

.. يزحفون الى الامام كأسراب الجراد ويتركون وراءهم الديار مقفرة ، والمدن مخربة ، ولا يبقون على زرع ولا ضرع !

طاعون مجسم اطبق على الشرق الادنى ..

عنصر غريب خرج من قلب آسيا للقضاء على العنصر العـربى ، باقصاء الخليفة من بغداد ، وهدم الخلافة ، ودك العروش ، ومحـو الممالك والامارات ، وازالة القلاع والحصون ، ونشر الدمار والبـؤس والشقاء فى بلاد العرب ، وطيها جميعا فى كفن من الارهاب !

كان ذلك فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد ، والقرن السابع للهجـرة

أولئك الغزاة الطغاة هم المغول ..

وقائدهم فى ذلك الزحف الرهيب ، يدعى هولاكو ، وهو حفيد منشىء الدولة المغولية ، جنكيزخان .

اوفده أخوه الامبراطور مونكاخان للقيام بتلك الحملة الماحقـة ، توطئة لامتلاك الشرق كله ..

وحرضته على سفك الدماء وتخريب الديار ، زوجته المسيحية ، وأمه المسيحية ، وقد نسيت المرأتان أن دين المسيح لايجيز هذه الفظائع ، بل يدعو الى الرحمة والاخاء والمحبة والسلام ، ويطلب من اتباعه ان يديروا خدهم الايسر لمن يضربهم على خدهم الايمن !

اختلف المؤرخون فى تحـديد الدين الذى كان يؤمن به هولاكو ، وهل هو مسلم مثل ابيه وجده ، أو مسيحى مثل أمه وزوجته ؟

والاقرب الى الحقيقة والواقع ، ان هولاكو كان رجلا لا دين له ، لان الفظائع التى اقترفها هو ، أو اقترفها قواده باسمه ، لا يقرها دين ولا يدعو اليها نبى !

بدات الجحافل المتتابعة بالاستيلاء على العراق العجمى ، ثم على العراق العربى ، وفتكت بالاسماعيليين المعروفين بالحشاشين فى بـلاد الفرس وسورية ، واقتحمت بغداد عاصمة الخـلافة ، فأحرقتهـا ،

وسقط المستعصم قتيلا ، فكان آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وفر من نجا من أسرته الى سورية فمصر ..

وسقطت الممالك والامارات والمدن الواحدة بعد الاخــرى فى يد الفاتح الجبار ..

كان الشرق العربى مكونا من فئات لا وحدة بينها ، فاصــبح فريسة ســهلة للغزاة الوافدين من الخارج ، بعد أن عرف التــكتل والتساند والتعاون فى عهد السلطان صلاح الدين يوســف الايوبى ، فتخلص ممن سبقهم من غزاة وافدين !

حلب وحمص وحماة ودمشق وميافارقين وغيرها من المــدن والمواقع الحصينة . كان مصيرها كمصير بغداد والموصــل والبصرة وغيرها ، من الناحية الاخرى من الفرات ..

الفرات الذي ظلت مياهه شهورا عديدة مصبوغة بالدم القــانى ، تجرف الجثث فتتحول احيانا الى سدود !

واقترب الخطر من مصر !

كان المماليك « البحرية » يحكمون الوادى ، ويرقبون من بعيدما حل بجيرانهم من ويلات ، ويستعدون لملاقاة الهول الزاحف عليهم ..

فى عهد الملك المعز أيبك ، والملك المنصور نور الدين ، والملك المظفر سيف الدين قطز ، حدث ذلك الطوفان المخيف ..

وسيف الدين قطز قائد محنك وبطل همام : جمع حواليــه قواد جيشه وعملاءه فى الاقاليم ، وتساءل وتساءلوا : « ايحــل بنا ما حل بالامراء والسلاطين المتناحرين فى سورية ؟ أم نعد العدة لصد الخطر ، فننقذ مصر وننقذ معها الجارة التى اجتاحها العدو ؟ »

« وتوحدت الاراء فى رأى واحد : « الاستعداد للحــرب !.. لا لحرب دفاعية فقط ، بل ايضا لحرب هجومية ، يشــــترك فيها مع المصريين من نجا فى سورية من فتك الغزاة ! »

وانطلق الرسل من مصر شرقا وشمالا الى وديان الاردن وبردى والليطانى والعاصى والفرات . وانطلق منها رسل اخــرون الى وادى النيــــل جنــــوبا .

وآب المماليك وغيرهم من الحكام فى البلدين الى رشدهم،واتعظوا بالواقع المؤلم ، تخابروا فيما بينهم على أساس أن الحكام جميعــا ســواء اكانوا من عنصر عربى أم من عنصر دخيل عليه . مؤتمنون على بلاد

وشعوب عربية ، ويتحتم عليهم وعلى الاقوام التى يحكمونها أن يوحدوا الصفوف لانقاذ بلاد العرب مما يحدق بها !

وكان التوفيق حليف الرسل الذين انطلقوا من البلدين معا يبشرون بالوحدة والتعاون والجهاد المشترك !

***

بينما كان الرسل يطوفون فى الحواضر والبوادى،كان اهل دمشق فريسة للاضطراب والبلبة ، وقد حط عليهم الارهاب بأثقاله ،وتفرقوا مذاهب وشيعا ..

فى بيت قابع بين اشجار الحور ، على هضبة الهامة ، عند مدخل دمشق . جلس رجلان وامراة يتبادلون الراى على ضوء الاخبار الواردة على المدينة الكبيرة .

المراة جميلة بارعة الجمال ، يشع الذكاء من عينيها الواسعتين ، وتتجلى القوة والارادة الصلبة من نبرات صوتها الرنان . وهى واحدة من النساء اللواتى جئن مع المغول من بغداد ، واقمن فى قصر كتبغا ، اشهر قواد الجيش المغولى ، وذراع هولاكو اليمنى فى حروبه .

كان أبوها « صابر الفهدى » واخوها « مرزوق » يشرفان على مزرعة لتربية الخيول ، فى أملاك الخليفة بالعراق . وهما من عرب بنى صخر ، فى بادية الشام ، وكانت « درية » ابنة الاول واخت الثانى ، تعنى بشئون المنزل بعد وفاة امها ، وزوجة اخيها ، واعراض الرجلين على الزواج مرة أخرى .

وقع عليها نظر كتبغا ، بعد المحنة التى حلت ببغداد والخلافة على ايدى المغول ، فاخذها عنوة من بينها ، وعلق بها وسحره جمالها ، فلم يفعل بها ما فعل بغيرها من السبايا ، بل اتخذها زوجة له ، ورضى أبوها واخوها بالامر الواقع ، اما عن قبول حسن ، وأما عن خوف من البطش والنقمة ..

لكن المراة كرهت الرجل الذى استباح خطفها واخضعها لنزواته، وباتت ترقب الفرصة للهرب من كنفه ، وفاتحت اباها وأخاها بما اعتزمته ..

طلب منهما الرجلان أن تتريث ، ووعداها بأن يمهدا السبيل لهرب الاسرة كلها ، عندما تتاح الفرصة وتصبح النجاة مضمونة بلا عواقب وخيمة ..

وازداد كره المراة العربية لزوجها الغريب على مر الايام ، وعلى

توالى الكوارث التى انزلها المغول بالبلاد السورية بعد البلاد العراقية ، بقيادة كتبغا نفسه ، وبايعاز من هولاكو واخيه الامبراطور

وكانت دربة تتردد على بيت أبيها بين اشجار الحور فى الهـامة. وهناك التقت باكثر من واحد من الرسل الضاربين فى طول البلاد وعرضها داعين الى توحيد الجهود بين سكان سورية وقبائلها ، وبين سكان مصر وقبائلها ، للتخلص من الاحتلال المغولى ، والانقضاض على الاغراب الغزاة فى أقرب فرصة

فى تلك الليلة التى اجتمعت فيها الاسرة كعادتهـا . فى البيت المنعزل ، قالت دربة :

ــ لن اصبر أكثر مما صبرت ، ولن اتردد اكثر مما ترددت ، فقد عولت على أمر لابد من وضعه بسرعة فى موضع التنفيذ . وأدعوكمـا ، يا أبى ويا أخى ، الى معاونتى فيه ، من أجل انفسنا ، ومن أجـل قومنا ! . .

وبسطت المرأة للرجلين ما عولت عليه . .

الملك المظفر قطز ، صاحب مصر ، يحشد جيشه خلف صحـراء سيناء . . والناقمون على المغول من الحضر والبدو فى البلاد السورية، بدأوا يتسللون زرافات ووحدانا الى الجنوب على أمل ان يلتحقـوا بالجيش المصرى ، ويشتركوا معه فى القتال ضد العدو الذى استرسل فى البغى والطغيـان .

تلك هى الاخبار التى بلغت مسامع الاسرة ، وتأكد الرجلان من صحتها ، وعرفت المرأة مما سمعته فى قصر كتبغا ، ان المغول يتأهبون لاستئناف الزحف ووجهتهم سينـاء ووادى النيل . .

وعرفت أيضا ، مما قاله لها زوجها الذى كرهته انه سيقود بنفسه تلك الحملة على مصر ، وان الجيش أصبح على اهبة تامة للبـدء فى زحفه . .

وكان الواقع مطابقا لهذه الانباء ، فالمغول يستعدون فعلا لمواصلة هجومهم على البقية الباقية من بلدان العرب ، والمصريون يستعدون من ناحيتهم لمواجهة الهجوم بمثـله .

وفى تلك الليلة ، لم تعد دربة بنت صابر الفهدى واخت مرزوق الى قصر زوجهـا . .

ولم ينم الاب والابن والمرأة فى ذلك البيت المنعزل ، بل خرجـوا منه على الا يعودوا . . وقد تم الاتفاق بينهم على الامر الذى عولت عليه دربة ، واقسموا ان ينفذوه بحذافيره

حشد السلطان قطز ما استطاع حشده من فرسان ومشــاة ، واجتمع لديه عدد من الناقمين على المغول ، وجاءوا من جميع انحاء البلاد السورية ، بينهم العربى ابن المدن ، والعـربى ابن البـادية ، والاسماعيلى والتركمانى ، والعراقى القادم من بين النهرين . والجبلى الهابط من لبنان ؛ وقد جمعت بينهم الرغبة فى الثأر ، والعزيمةالماضية فى سبيل استرجاع الحرية المهدورة ، وطرد الغريب المستبد الغاصب.

أرسل هولاكو الى سيف الدين قطز خطابا يدعوه فيه الىالتسليم والخضوع . فكان جواب الملك المظفر أن قبض على رسل الفاتح المغولى، وضرب أعناقهم ، وعلق رءوسهم عند باب زويلة بالقاهرة !

وزحف بجيشه شمالا ، بدل ان ينتظر فى أرض مصر زحفالمغول عليها جميعا.

والتقى الفريقــان فى « عين جالوت » عنـد بيسـان بأرض فلســطين . .

كان سيف الدين قطز على راس الجيش المصرى والسورى،وكان كتبغا على راس الجيش المغولى . .

معركة دموية ارادت العناية الالهية أن تجعلها خاتمة المعـارك فى ذلك الصراع الرهيب ، بين المغول الذين أسكرتهم نشوة الانتصـارات السابقة ، فظنوا أن ليست فى الدنيا قوة قادرة على قهرهم ، وبينالعرب الذين ادركوا فى النهاية ان خلافهم كان سبب محنتهم ، فاتحدوا امـام الخطر ، وفتح لهم اتحادهم أبواب النصر المبين !

فى صفوف الجيش الذى قاده سـيف الدين فى ذلك السـهل الفسيح ، تجلت البطولة فى ابهى مظاهرها ، وفى كل كتيبــة من تلك الكتائب المتعددة المتباينة ، التى كان يتألف منها مجموع الجيش المصرى السـورى . .

الفرسان والمشاة . والرماحة والرماة . حاملو الفئوس وشاهرو السيوف . الكهول المدربون على القتال ، والفتيان النازلون للمرةالاولى الى الميدان ، أبناء المدن الخاضعون للنظام ، وابناء البادية النافرون من كل نظام ؛ العرب من سـكان البلدين ، وغير العرب ممن حلوا فيهمــا فاصبحا لهم وطنا مفدى . .

الرجال والنساء سواء بسواء !

ففى معركة عين جالوت ، فى عهد السلطان سـيف الدين قطز ، حدث ما حدث من قبل ، فى معركة القسطل ، التى دارت رحاها ايضــا

فى أرض فلسطين ، فى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى نزلت الى الميدان كتيبة من الفرسان الملثمين ، جاءت من بطن البادية ، فى شرق نهر الاردن . وفى حومة الوغى ، لما اشتد القتـــال ، واحتكت الركاب بالركاب ، وتطايرت العمائم ، وتمزقت الثياب ، وانحسرت البراقع عن الوجوه ، ادرك المتحاربون ، وقد تولاهم الذهول الممزوج بالاعجـــاب ، أن الفرسان الملثمين جميعا نساء وفتيات !

وفى طليعة الكتيبة العجيبة ، كانت درية ابنة صابر الفهدى تقود رفيقاتها وتشق أمامهن صفوف الاعداء ، والسيف بيدها يقطـــر من دمائهـــم ! . .

ذلك هو الامر الذى تحدثت عنه المراة الجميلة الى أبيها واخيها ، وعولت عليه ، واقنعتهما بالمساهمة فى تنفيذه !

خرجت معهما من دمشق وابتعدت عن الغوطة وتوغلت فى البيداء

وهناك ، جمعت حولها فريقا من البدويات ، معظمهن من عرب بنى صخر ، وفريقا اخر من بنات المدن فى حوران وجبال الاردن ،فكانت الكتيبة التى خاضت غمار المعركة ، وبدت للناظرين كمجمـــوعة من الفرسان الملثمين ، حتى هتك القتال سرها ، وانحسرت البـــراقع عن وجوه الحسان !

لم يكن فى الكتيبة غير رجلين فقط : صابر الفهدى وابنه مرزوق !

فقد رافقا درية ، وساهما معها فى الدعوة الى التطـــوع ، ودربا النساء على الطعن والضرب ، ونزلا الى الميدان معهن ملثمين مثلهن !

ونزلت أيضا الى الميدان كتيبة اخرى من النساء السافرات بقيادة « بركة » زوجة مصطفى الخيـــــــــال !

كان النصر تاما شاملا ساحقا !

فقد افنى جيش المغول عن آخره ، وكان كتبغا نفسه ، القـــائد المغوار ، وصاحب الانتصارات المتوالية ، وحارق المدن والقرى ، وذابح الآلاف من الابرياء ، بين قتلى تلك المجزرة الهائلة !

واستشهدت نساء من الكتيبة الملثمة ، ومن الكتيبة السافرة ،جنبا الى جنـــب مـــع الرجـــــال . .

وكانت درية ، قائدة الكتيبة ، واحدة من اولئك الشهيدات !

اخذها كتبغا المغولى سبية من بغداد ، وأرغمهـــا على أن تصبح زوجة له . ثم احبها فكرهته . وعولت على التخلص منـــه فانتقمت لنفسها وساهمت فى الانتقام لقومها وقضت شهيدة الواجب فى معـــركة عين جالوت ! . .

معركة حولت مجرى التاريخ ، فى تلك السنة المشهورة ، ســـنة ٦٥٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٦٠ للميلاد ..

معركة كانت بمثابة ميثاق وقعه الشعبان ، فى مصر وســـورية ، بالدماء الغالية ، بعد أن ادركا هذه الحقيقة التى طالما تجلت للشـــعوب فى مراحل تاريخها : وهى أن التفرقة مصدر الهزيمة وعامل الضعف والاتحاد مصدر الانتصار وعامل القوة !

معركة قادها بطل غير عربى ، لخير العرب ورفعتهم ومجدهم ، بعد أن ادرك من ناحيته ان خيره ورفعته ومجده ، كلها مستمدة من الشعب الذى القى بين يديه زمام امره ، واتخذه رائدا فى وثبته ، فأصبح مثل شعبه عربى الخصال ، عربى الالام والامال !

معركة انقذت مصر وحررت سورية ، من الاحتلال المغولى : فقد تراجعت فلول الجيش الذى اكتسح به هولاكو بلاد العرب ، وعادت من حيث اتت : الى وراء العراق .

فى البيت الصغير المتواضع ، القابع بين اشجار الحـور ، على هضبة الهامة المشرفة على دمشق ، قضى صابر الفهدى وابنه مرزوق بقية حياتهما ، يحترفان الزراعة ، ويذكران فى لياليهمـا الهادئة ، بين أحضان الطبيعة ، الابنة العزيزة ، والاخت المحبوبة ، التى حرضتهمـا على القيام بالواجب ، وأخرجتهما من العزلة ، ومشت معهما الى ميادين الشرف والبطـولة ، فاستشهدت ، وكان استشهادها مفخرة لهما بين الناس ، وعزاء لها فى العزلة التى عادا اليها ، بنفس راضية وضـــمير مرتاح ! ..



كان الفاتح فى طريقه الى مصر ، لكن،
الاقدار حولته عنها لمحاربة فاتح آخر !!

ولد تيمور لنك – اى تيمور الاعرج ، الملقب بالذئب الاغر فى سنة ١٣٣٦ فى «قيش» او المدينة الخضراء على مقربة من سمرقند التى جعلها عاصمة لملكه ، وكان أبوه سيد قبيلة البارولا التركية وحاكم ولاية قيش . ولكن تيمور فقد اباه وهو فى ميعة الصبا ، وجرده خصوم اسرته من أمواله واملاكه ، فنشأ الامير الشاب وفى قلبه الحقد والغيظ والرغبة فى الثأر والانتقام . وقد قال لزوجته فى اليوم الذى عقد عليها : « لقد حرمت من كل شىء فى هذا العالم لكننى ساكتسب كل شىء بحد السيف وابسط سلطتى على العالم باسره . »

وساعد الحظ تيمور الاعرج ، فحقق تلك الامنية ، وامتدت سلطته الى بعيد ، فملك شطرا من العالم الذى أراد اجتياحه واستعباده .

وفى سنة ٨٠٢ هجرية الموافقة لسنة ١٤٠٠ للميلاد ، كان تيمور لنك قد وصل الى تخوم الممالك الشامية ، واعد العدة لغزوها ، لكى يخلو له الجو ، فيجعل الشام قاعدة لاعماله ، ويوجه قواه لمقاتلة سلطان الاتراك من ناحية وسلطان مصر من ناحية اخرى . .

وكان الجالس فى ذلك الوقت على سدة الملك ، الناصر فرج زين الدين ، الملقب بأبى السعادات ، خليف السلطان الظاهر برقوق وثانى ملوك الشراكسة فى الديار المصرية

***

فى السنة السابقة ، كان الملك الناصر ابو السعادات قد خرج من مصر بجيش قوى وقاتل امراء الشام فى فلسطين وتغلب عليهم وضرب اعناق بعضهم وشرد أهلهم وانصارهم ، فرحل عن ارض الشام مع من رحل منهم رجل يدعى أحمد بن عمر الظاهرى ، من أنصار احمد بن يلبغا عدو الملك الناصر فرج زين الدين ، فالتجأ الى معسكر تيمور لنك ، وجعل يوغر صدر الفاتح التترى على سلطان مصر ويصف له الكنوز المخبأة فى ارض النيل ، والقصور القائمة على ضفتيه ، والغيد الحسان اللواتى تعج بهن تلك القصور ، الجديرات بقائد التتر والمقول ملك الملوك تيمور لنك ! . .

وأوفد الفاتح التترى الى الملك الناصر أبى السعادات رسولا يحمل الكتاب الآتى ، الذى وضع نصه أحمد بن عمر الظاهرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . القوة لله قل اللهم فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اعلموا اننا جنود خلقنا الله من سخطه ، وسلطنا على من حل عليه غضبه . لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك . وقد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا . قد خربنا البلاد

ويتمنا الاولاد ، وأظهرنا فيها الفساد . فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا موارق ، وسيوفنا صواعق ، ولتوتنا سواحق وعددنا كالرمال ، وقلوبنا كالجبال ، ومن رام سلمنا سلم ، ومن نال حربنا ندم ، فملكنا لا يرام ، وجارنا لايضام . فان قبلتم شروطنا كان لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وان أبيتم ، وفى بغيكم تماديتم ، فلا تلوموا الا انفسكم . فالحصون بين أيدينا لا تمنع ، والعساكر لا ترد ولا تنفع ، ودعاكم علينا لايستجاب ولا يسمع ، لانكم اكلتم الحرام ، وارتكبتم الآثام ، وضيعتم الجمع ، وغرقتم فى بحر الطمع ، وسلكتم فى طريق البغى والعدوان . فابشروا بالذل والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون ، لانكم بغير الحق فى الحق تستكبرون . ودائما كنتم تفسقون . وقد ثبت عندكم اننا كفرة ، كما ثبت عندنا انكم فجرة . وقد سلطنا عليكم آله بيده أمور مقدرة ، واحكام مدبرة . فعزيزكم لدينا ذليل ، وكثيركم عندنا قليل . فاننا ملوك الارض شرقا وغربا ، وآخذون كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم طريق الصواب ، فاسرعوا الينا برد الجواب . من قبل أن ينكشف الغطا ، ويقع الضرب والسطا ، وتوقد الحرب نارها ، وترمى عليكم شرارها ، ولا تبقى لكم بقيه ، وينادى عليكم منادى الفناء هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزا . وقد انصفناكم اذ راسلناكم ، ونثرنا لكم جواهر هذا الكلام . والسلام »

***

حمل الرسول كتاب تيمور لنك الى الملك الناصر وجد فى السير والمسير الى مصر . لكن أحمد بن عمر الظاهرى كان قد سبقه فى الطريق . وحرض عليه الامراء والاقيال ، فقتلوه واطلعوا على مضمون الكتاب ، ثم عهدوا به الى رسول آخر فحمله الى أبى السعادات فى مصر .

وكان أحمد بن عمر الظاهرى قد وصل الى وادى النيل قبل الرسول . وذهب الى الملك الناصر فرج زين الدين ، والقى بنفسه على قدميه ، وطلب منه العفو والامان ، وقال له أن الطاغية التترى يضمر له الشر والعدوان ، ولكنه اضعف من أن يستطيع النيل منه ، لان جيشه قليل العدد ، وفرسانه متمردون عليه ، وأسلحته مفلولة لاتخيف الابطال فى الميادين .

ولم يكن الظاهرى يقصد من ذلك غير حمل الملك الناصر على قبول الحرب وخوض غمارها ، لانه كان يعلم حق العلم أن جيش أبى السعادات لن يستطيع الوقوف أمام تيار التتر الجارف ، وجموعهم المتدفقة . .

عجز الرجل عن الانتقام لنفسه والثأر لاهله وأسياده من أبى



تيمور لنك

الفاتح التترى

حاول أن يغزو مصر وارتد عنها خائبا

السعادات، فعمد الى الدس والوقيعة ، وسعى الى التشفي من ذلك السبيل ، فجعل يوغر صدر تيمور لنك على فرج ، وصدر فرج على تيمور لنك !

وبينما الملك الناصر يستعد لمواجهة الخطر الداهم ، اذا بالرسول يفد عليه حاملا كتاب الذئب الاغبر ، بما فيه من تهديد ووعيد . فجمع حوله أقطاب مملكته . واطلعهم على مضمون الكتاب . ثم طلب من احمد بن عمر الظاهرى أن يفضى اليهم بحقيقة الحال ، وبما يعلم من أمر التتر وقائدهم . فانطلق الظاهرى فى كذبه ، وعرف كيف يثير فى صدور القوم مراجل الغضب على أولئك الغزاة الفاتحين ، الذين اجتاحوا ممالك المسلمين فى الشرق ، وتركوها وراءهم خرابا يبابا .

وارسل الملك الناصر فرج زين الدين الى تيمور الاعرج الرد الاتى على كتابه ، وهو الرد الذى وضع أحمد بن عمر الظاهرى صيغته ،كما وضع من قبل صيغة الكتاب الذى حرض تيمور لنك على ارساله الى الملك الناصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ،بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وصل الكتاب المخبر عن الحضرة الايخانية ، والشدة العظيمة القانية ، تقولون انكم خلقتم من سخطه ، ومسلطون على من حل عليهم غضبه ، ولا ترقون لشاك ، ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ،فذلك من اكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين ، لا من صفات السلاطين . وكفى بهذه الشهادة عليكم واعظا ، وبما وصفتم به أنفسكم ناهيا وآمرا. قل يا أيها الكافرون ، لا اعبد ما تعبدون ، ففي كل كتاب لعنتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعلى لسان كل رسول ذكرتم ، وعندنا خبركم من حين خلقتم، وزعمتم انكم كفرة ، لعنة الله على الكافرين . من تمسك بالاصول فلا يبالى بالفروع . فنحن المؤمنون حقا ، والقائلون صدقا ، فلا يداخلنا عيب ، ولا يصدنا ريب ، القرآن علينا نزل ، وهو رحيم بنا لم يزل . وتحققنا تنزيله ، وعلمنا تأويله . انما النار لكم خلقت ، ولجلودكم اضرمت ، وفى الجحيم لكم سعرت ، اذا السماء انفطرت . ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتتوت ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع . فنحن خيولنا رقية ، وسيوفنا يمانية ، ورماحنا خطية ، وسهامنا خليجية، ولتوتنا مصرية ، واكتافنا شديدة المضارب،ووصفها فى المشارق والمغارب . فلا بد مااتيكم بخيل جياد ، وسيوف حداد ، ورماح مداد ،، وابطال شداد . فاذا هجموا على البحر مزقوا أمواجه ، أوعلى

الى الاقفر خرقوا فجاجه،قوام بالليل هيام بالنهار، لاتهولهم السباسب ولا يعد الديار . نشأوا على الحروب والقراع ، والفوا الفروسيـــة من عهد الرضاع . فليس بيننا وبينكم سوى نظرة العين .وزعقة غراب البين . فان قتلناكم فنعم البضاعة ، وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنـة ساعة . ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون . واما قولكم أن قلوبكم كالجبال ، وعددكم كالرمال ، فالجزار لايبالى بكثرة الغنم ، وان كثيرا من الحطب يكفيه قليل من الضرم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ، الفارين من الرزايا لا من المنايا ، فنحن المنية عندنا غاية الامنية . ان عشنا سعداء ، وان متنا شهداء . الا ان حزب الله هم الغالبون . ابعـــد امير المؤمنين وخليفة رب العالمين تريدون منا الطاعة ، ليست لكم ولا طماعة. وطلبتم ان يأتيكم امرنا قبل أن ينكشف الغطا ، ويقع الضرب والسطا ، هذا كلام فى نظمه تركيك ، وفى سلكه تفكيك . لو كشف الغطا ، لبان الصدق من الخطا ، بعد تبيان ، والكفر بعد ايمان . أم اتخذتم الها ثانيـا . لقـد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخـر الجبال هدا . قل لكاتبكم الذى وصف رسالته ، ورصف مقالته ،وصل كتابه فكان كصرير الباب . أو كطنين الذباب . سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمـــد وآله وصحبه والسلام »

***

ودارت رحى القتال بين الفريقين فى الاقطار الشامية ، وانطلـق التتر يذبحون ويدمرون ويخربون ويسلبون ويسبون ، واخرقوا حلب ودمشق وغيرهما من المدن ، ولكن العناية الالهية ادركت الديار قبـــل ان يعم فيها الخراب والدمار ، فاشتبك تيمور لنك فى حرب جـديدة مع السلطان بايزيد ، وتحول عن مصر الى الاناضول ، حيث نازل الاتراك وسحق جيوشهم سحقا فى واقعة انقرة الدموية . فى سنة ٨٠٥ هجرية الموافقة لسنة ١٤٠٢ للميلاد

اما احمد بن عمر الظاهرى ، فقد عاد الى جيش تيمور ، وشاءت الاقدار ان يسقط قتيلا فى مناوشة بين التتر وجنود الملك الناصر فـى نفس المكان الذى وقع فيه سيده احمد بن يلبغا اســيرا ، قبل ذلك بسنتين ..

وحمل الجنود المصريون معهم جثة الخائن ، وعلقوها عند أسوار القاهرة ، ناحية الجبل ، لكى ينظر اليها الناس ويلعنوا الخيانة والخونة، وتركت هناك طعمة للطيور الكاسرة ، والقيت عظامها بين الصخور ..

لم يصل التتر والمغول الى مصر ، بل تراجعوا عنها قبل أن يبلغوا حدودها ، اما بقوة السلاح ، واما بمساعدة الاقدار !



فى تاريخ الجهاد المصرى ما أكثر الأبطال الذين قاتلوا حتى الموت ولم يسلموا !

سقط السلطان قانصوه الغوري قتيلا ، وواصل السلطان العثماني زحفه جنوبا ، وكان المصريون في اثناء ذلك ، مع امرائهم المماليك الذين ظلوا للوطن اوفياء مخلصين ، يعدون العدة للدفاع ...

نادوا بطومان باى الثاني ، ابن اخي الشهيد الغوري ، سلطانا خلفا لعمه ، باسم الملك الاشرف .

وهو شاب شجاع مقدام ، عالى الهمة ، فياض الوطنية ، واسع الحيلة في الفنون الحربية ، ولم يكن بين القادة الشبان من يصلح للاضطلاع بمسئولية الدفاع اكثر منه ..

تولى طومان باى السلطة ، والقيادة والتنظيم . وكانت توصياته لمعاونيه الاقربين ، وللشعب الواقف خلف الجيش وبجانبه استعدادا للذود عن الحمى : «القتال .. القتال حتى النصر .. او حتى الموت .. واذا خاننا الحظ وانهزمنا ، فان العدو سياخذ مصر بالرغم منا ، ويمشي على اشلائنا .. ولكننا لن نسلمه البلاد طائعين راضين »

على هذا اقسم طومان باى ، وعلى هذا اقسم قواد الجيش ،وزعماء المقاومة الشعبية ، في سنة ١٥١٦ للميلاد الموافقة سنة ٩٢١ للهجرة ، يوم انطلقت جحافل الغزاة الترك ووجهتها مصر ، بعد معركة مرج دابق في سورية ..

وبدأ الصراع الرهيب بين الحق والباطل ، بين المعتدى والمعتدى عليه ، بين السلطان التركي الطامع في تدويخ الشرق ، والسلطان المصرى المصمم على الدفاع عن وطنه وصيانة عرشه وانقاذ شعبه من العبودية ...

اوفد السلطان سليم الاول الى السلطان طومان باى الثاني رسلا يعرضون عليه ان يسلم بلاده للغزاة ، ويعترف بالسيادة العثمانية ، ويصبح تابعا للغير ، فرفض طومان باى الانذار الوقح ، وطرد الرسل قائلا :

ـ لن اعطي سيدكم شيئا مما يطلب . فاذا اراد ان يأخذ اى شيء ، فليأخذه بحد السيف .

وبعد ان خرج الرسل وهموا بالانصراف ، حدثت مشاجرة بينهم وبين بعض الجنود ، فامر واحد من امراء المماليك بذبحهم ، فذبحوا .

ولم يكن قتل الرسل في ذلك الوقت عيبا او عارا او جبنا ، بل بالعكس : كان الرد على انذار وقح بالرفض يحمل معه في معظم الاحيان قتل الرسل الذين جاءوا به ، امعانا في الامتهان والاحتقار .

واستشاط سليم الاول غيظا واعتزم استئناف الزحف ..

واسرع طومان باى الى لقائه على مسافة قصيرة من القاهرة .. واشتبك الجيشان فى القتال ، فى ٢٢ يناير ١٥١٧ فى مكان يدعى الريدانية.

«سنقاتل .. ولن نسلم » .. ترددت هذه العبـــارة على الالسنة وحملها المنادون من مكان الى مكان ، لكى يسمعها الجنود فى صـــفوف الجيش والمتطوعون فى صفوف المقاومة الشعبية .

سمعها الجميع وعملوا بها ..

كان القتال فى الريدانية بالقرب من الخانكاه بالغا اقصى حـــدود العنف وتسابق الفرسان المماليك ، والمشاة من جيش مصر ، والقناصة وحملة الرماح من الفلاحين ورجال القبائل الوافدون من أقليم الشرقية وصحراء ســيناء ...

وكان طومان قد وضع خطة بارعة ، وعول على تنفيذ فكرة خطرت له ووافق عليها رفاقه الشبان : وعولوا على الهجوم فى اتجاه المكان الذى يقف فيه السلطان العثمانى ، واختراق صفوف الجيش التركى، والوصول الى سليم الاول وقتله .. والموت معه اذا لم يتمكنوا من العودة سالمين

وفى خلال المعركة ، وثب طومان ومعه بعض المماليك ، وانطلق يشق صفوف العثمانيين ، ولم يتمكن من اللحاق به غير اثنين فقط من فرسانه، فوصل الى المكان الذى اعتقد أن السلطان سليم الاول يقف فيه لادارة دفة المعركة ، وطعن «السلطان» بسيفه فقتله .. ولكن اتضح له فيما بعد ان الذى قتل بسيف البطل العظيم فى الميدان ، هو ســـنان باشا الصدر الاعظم ، لا السلطان سليم الاول الفاتح .

فى تلك المعركة ، هزم طومان باى وجيشه ، لا لان الشجاعة خانت المدافعين عن مصر ، بل لان الترك حاربوهم بقذائف المدفعية ، وهى سلاح كان متوفرا لدى الترك ، ولا أثر له فى الجيش المصرى ..

فى معركة برج دابق ، تم النصر للسلطان العثمانى بفضل الخيانة التى تحالف معها .وفى معركة الريدانية ، تم له النصر بفضل المدفعية .

اصبحت القاهرة مكشوفة بعد معركة الريدانية ، واراد سليم الاول ان يوقف القتال بعد ان ثبت له أن المماليك والمصريين سيكبدون جيشه خسائر فادحة ، فأوفد أيضا رسله الى طومان باى طالبا منه أن يســلم العاصمة ويكف عن المقاومة .

وكان الرد فى هذه المرة أيضا : «سنقاتل .. ولن نسلم» ..

ووافق الابطال الذين جمعوا صفوفهم حول السلطان البطل ، على الرد الذى ارسله الى الترك وكرروا له القسم : «سنقاتل .. فاما النصر واما الموت » .

وضع طومان باي ورفاقه خطة جديدة لمواصلة الحرب : تركوا السلطان العثمانى يدخل المدينة على رأس جيشه ، بدون أن يجد مقاومة ..

ظن سليم الاول أن مصر قد انهارت ، وان القاهرة أصبحت فى قبضة يده ...

ولكن العاصمة انفجرت فجاة فى اليوم التالى .

تحولت احياء المدينة الى براكين .

نيران فى كل مكان ، وقذائف تتساقط على الترك من كل سطح وكل نافذة .. وموت يتربص بالعدو ليخطف روحه فى كل حارة وفى كل زقاق ..

العاصمة المصرية الثائرة لكرامتها ، المدافعة عن حريتها ، أقسمت مثل الفرسان المماليك ، ومثل القناصة وحملة السيوف والرماح من رجال المقاومة ان تقاتل وتقاتل وتقاتل وان لا تسلم ، واذا خانها الحظ فان العدو لن يضع يده عليها الا وهى أشبه بالجثة الهامدة .

نصر مع الحرية ، او موت بدونها .

ونزلت المرأة الى الميدان ، خرجت المصرية المترفة من خدرها ، والفقيرة من كوخها ، والفلاحة من حقلها ، والخادمة من بيت مخدوميها واختلطت فى صف واحد ، وفى امنية واحدة ، جميع نساء القاهرة بلا استثناء .. ولم يحدث من قبل . ولم يحدث من بعد .. أن بلغت مساهمة المرأة المصرية مع الرجل فى الذود عن الحرية ، ما بلغته تلك المساهمة فى المعركة الرهيبة .

سقط المعتدون بالمئات والآلاف ، صرعى بضربات السيوف والرماح والاخشاب والحجارة ، والخناجر والفؤوس ، وتكدست فى بعض الاماكن جثثهم فى المحارق التى أضرمت النساء نيرانها لكى تلتهم المعتدين وتساعد المقاتلين على اهلاك اكبر عدد منهم .

وبلغ الغيظ فى صدر سليم العثمانى مبلغا لم يعرفه من قبل ذلك الفاتح القاسى ، الذى دلله الحظ وساعده فأمر رجاله بأن يذبحوا الناس بلا فرق ولا تمييز ...

بل دفعه الغيظ ، لما بلغت المعركة اوجها ، لان يصبح فى قواده :«لا اريد أن تتركوا فى هذه المدينة امرأة تلد فى مستقبل الايام اطفالا يحملون فى وجهنا السلاح ..»

وراح زبانية السلطان يتصيدون النساء قبل الرجال ، ويمعنون فى تقتيلهن تشفيا وانتقاما .

«سنقاتل ، ولن نسلم» هذا ما قاله طومان باى فى سنة ١٥١٧ .

وهذا ماردده معه شعب مصر ..

قتال ، حتى النصر ، او حتى الموت ولكن لا استسلام للعدو .

لن يمر .. واذا مر فعلى اشلاء الشهداء ، الذين سوف يثار لهم ابناؤهم واحفادهم من بعدهم ، يوم تتلطف الاقدار ، ويبتسم الحظ ، وتخمد الخيانة فى مهدها .

خمسون الفا من ابناء القاهرة وبناتها ، سقطوا فى الميدان مدافعين عن الحرية فى ذلك اليوم الدموى .

قاتلوا من حى الى حى ، ومن شارع الى ميدان ، ومن حارة الى زقاق ، ومن منزل الى منزل ..

قاتلوا فى سبيل النصر ..

لم ينتصروا ، فماتوا ..

على هذا اقسموا .. وقد بروا بالقسم .

وفى الشوارع والاحياء والحارات والازقة ، تراكمت ايضـــا جثث المعتدين الذين قتلهم المصريون .

عشرات الآلاف من الجنود خسرهم سليم الاول لكى يستولى عـلى مصـــــر ...

واشتد غيظه بعد ان عرف الثمن الذى دفعه لياخذ العاصـــمة الباسلة ، فبكى ..

العينان اللتان لم ينطلق منهما غير الشرر ، ترقرقت فيهما الدموع وانسابت منهمرة غزيرة ...

تمكن الغزاة بكثرة عددهم ووفرة عدتهم من السيطرة على القاهرة ، ولكن بعد ان تحـــولت الى مايشبه القبــــر !

ولم يسلم السـلطان المصرى للســلطان العثمانى . بل خرج من

عاصمته ومن حوله البقية الباقية من ابطال المقاومة ، وذهب الى اقليم البحيرة لتنظيم صفوفها واعادة الكرة ..

ولعبت الخيانة دورها مرة ثانية ، بعد سقوط القاهرة ، مع طومان باى كما لعبته مرة اولى ، فى معركة مرج دابق ، مع سلفه قانصوه الغورى ...

ولم يسلم طومان باى عاصمته ، وترك العدو يأخذها عنوة ..

ولم يسلم السلطان الابى الشجاع نفسه لذلك العدو ، فسلمه الخونة الذين باعوا الذمة والشرف والوطن .

الخونة خير بك ، وغزالى بك ، وشيخ العرب حسن مرعى .. لعنة الله عليهم مكررة على مر الدهور .

لم يكن السلطان سليم العثمانى نبيلا فى معاملة خصمه الشجاع كما كان طومان باى نبيلا فى دفاعه .

فالسلطان العثمانى شنق البطل طومان .. وبهذا لطخ سمعته بالعار بعد أن لطخها بالدم ..

فى سنة ١٥١٧ قاتل المصريون فى القاهرة ، ولم يسلموا ..

وماتوا من أجل الحرية والكرامة ، ولم يسلموا ..

حولوا أحياء عاصمتهم الى خرائب ، ودفنوا انفسهم تحت انقاضها ولكن بعد أن دفنوا ايضا تحتها آلافا من المعتدين ، فكانت القاهرة مقبرة للغالب والمغلوب فى آن واحد ..

زغاريد في المنزلة

ترك البطل حسن طوبار شباك صيده ، ليقود رجاله فى معركة تحرير دمياط .. على أنغام أجمل الزغاريد .. زغاريد نساء المنزلة .

السماء صافية تتغامز فى اجوائها النجوم . وقد اطل عليهــا القمر الباسم الوضاح . وعلى صــفحة بحيرة «المنزلة» تنساب المراكب والزوارق . تدفعها القلوع بقــوة الرياح المواتية او المجاديف بقوة السواعد المفتولة ، والقناديل تتمايل معلقة بالصوارى او مرفوعة بالايدى ، تخاطب باضوائها بعضها البعض ، فى لغة لا يفهمهـا غير رجـــال البحر .

عشرات من المراكب والزوارق ، متلاحقـــة متلاصقة متسابقة ، تتبعها عشرات فعشرات ، ويبلغ مجموعها خمسمائة او اكثر ، تتجه كلها فى نظام دقيق ، وفقا لخطة مرسومة مدروسة ، وتقترب من شــاطىء «دمياط» .

وفجاة ، تنطلق الزغاريد من افواه النساء والبنـــات ، وتنطلق النيران من افواه البنادق والطبنجات ، وتنطلق صيحات الحـــرب من حناجر الرجال والفتيان .

ما الذى دفع بالصيادين الى ترك شباكهم جانبا ، وحمل السيوف والبنادق والفئوس والنبابيت ، وخوض غمار حرب لا تكافؤ فيهـــا بين الهاجمين والمدافعين ، ومن هو العدو الذى تحداه اولئـــك الصيادون ومعهم نساؤهم يزغردن ، فى ميناء دمياط الحصين .؟

انهم وطنيون ينازلون أغرابا ، واصحاب ارض غزاها اولئك الاغراب وفرضوا عليها حكمهم : سكان بلدة المنزلة ، والقرى الجاثمة حـــول البحيرة التى تحمل اسمها ، خرجوا بقيادة زعيمهم شيخ العرب الرئيس حسن طوبار ، ليساهموا فى تحرير منطقتهم من الفاتحين الفرنسيين . الذين جاءوا من الغرب بقيادة شاب طموح ضحك له النصر فى جميـــع حروبه ، الجنرال نابليون بونابرت .

فى أول يونيو سنة ١٧٩٨ ميلادية الموافق ١٢١٢ للهجرة ، نـــزل القائد المحظوظ بحملته العسكرية على سواحل مصر ، بالقـــرب من الاسكندرية ، فاستولى عليها ، وزحف على القاهرة ، وتغلب على المماليك حكام مصر فى ذلك الوقت . وجعل مقر قيادته فى حى الازبكية ، وارسل كتائبه فى طول البلاد وعرضها .. لمطاردة فلول المماليك من ناحية ، ومن ناحية اخرى وفى آن واحد لاخضاع السكان الذين صحوا من المفاجاة وراحوا ينظمون المقـــاومة .

كان الاسبوع الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ مليئا باعمـــال البطولة والتضحية ...

داهم الصيادون بقيادة زعيم المنزلة حامية دمياط ، فذبحوا من رجالها عشرات ، وارغموا الذين فى المواقـــع الاولى على الارتداد الى

داخل المدينة ، تاركين أيضا عشرات من القتلى والجرحى .. وكميات وفيرة من الاسلحة والذخائر .. حملها المهاجمون وعادوا من حيث اتوا . . .

وهال بونابرت ان يحدث هذا للحامية الكبيرة ، فأوفد اليها على جناح السرعة ، قائدا من ذوى الخبرة الواسعة ، الجنرال اندريوسى ، ومعه نجدة قوية .

وارسل الى دمياط ايضا بعض السفن الحربية من الاسكندرية ، لتشد ازر الجيش البرى فى ذلك الميدان الذى فتحه حسن طوبار .

ومرة أخرى هاجم الصيادون بقيادة زعيمهم المفوار ، تحصينات دمياط ، وفتكوا بعشرات من الجنود الفرنسيين المحتمين فيها .

ومن جوف اجمة كثيفة الاعواد ، سمع الصيادون صوت امرأة تزغرد .. فاتجهوا الى مبعث الصوت واذا بهم امام زورق فيه ثلاث جثث ، جثة كهل ، وجثة شاب ، وجثة امرأة عجوز . وقد وقفت بينها امرأة شابة ، تلوح بيديها ثم تشد شعرها وترسل الزغاريد .

عرفوها ، وعرفوا القتلى الثلاثة ، وادركوا ان الرصاص قد حصدهم فى خلال المعركة .

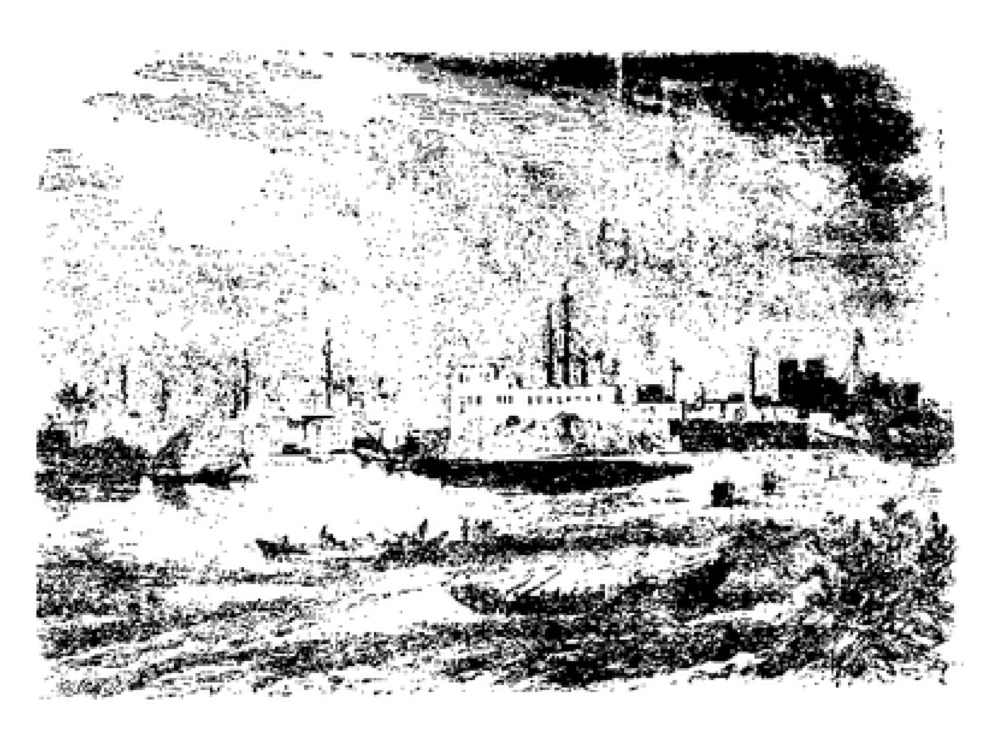
حاولوا ان يهدئوا روع المرأة ، ولكن سلوكها دلهم بسرعة على انها فقدت عقلها ، فنقلوا الجثث من الزورق ، وحملوا المسكينة برفق الى حسن طوبار ، فهى ربيبته .

اسمها «زكية عبد العاطى» وهى زوجة فرحان الصالح وشقيقة سيد عبد العاطى ..

أمها من المنزلة .. تزوجت عبد العاطى السيد من الفيوم وعاشت معه على ضفاف بحيرة قارون ، من صيد السمك .

مات زوجها فعادت بطفليها زكية وسيد الى بلدتها المنزلة ، حيث عنى شيخ العرب حسن طوبار بأمرها ، وتبنى الطفلين ، فعاشت الاسرة التى فقدت عائلها فى كنف الرجل الطيب ورعايته .

كبرت زكية ، فاذا بها فتاة بارعة الجمال ، واذا بشبان البلدة يتهافتون على طلبها زوجة لهم . فاختار لها حسن طوبار شابا غريبا عن الديار ، جاء من مدينة غزة ، واستقر فى دمياط . ثم انتقل الى المنزلة حيث مارس الصيد .



مدينة دمياط فى أوائل القرن التاسع عشر

اسم ذلك الشاب الذي ارتضته زكية عبد العاطي عريسا لها ، فرحان الصالح ، من أسرة كل افرادها فى غزة من الصيادين .

وانتقلت الفتاة الى بيت زوجها ، وانتقل معها أخوها سيد عبد العاطي وأمها المنزلاوية . . وأحترفت الاسرة ،مثل غيرها من الاسر الكثيرة ، صيد السمك فى البحيرة وفى البحر على السواء .

كانت زكية عبد العاطي صاحبة صوت شجى فاشتهرت بين الناس الذين احبوها باغانيها الجميلة ترسل انغامها فى خلال رحلات الصيد .

وفى خلال المعارك التى خاض المنزلاويون وجيرانهم غمارها ضد الفرنسيين بقيادة حسن طوبار ، واشتركت فيها النساء والفتيات . . تحولت الزغاريد المنطلقة من بين الشفاه الحمراء الناعمة ، الى اهازيج حرب تحرض الرجال على القتال ، وكانت زغاريد زكية عبد العاطي تعلو ولا يعلى عليها .

الزورق المعد للصيد ، حوله فرحان الصالح وسيد عبد العاطي الى سفينة حربية صغيرة ، واستقله الرجلان ومعهما زكية وامها . . . واشتركت به الاسرة الباسلة فى المغامرة الجريئة ، فى حرب دمياط والمنزلة . . .

وشاءت الاقدار أن تدفع الاسرة قسطها من التضحية ، وان يكون القسط باهظا .

أصاب الرصاص المنهمر من احدى السفن الفرنسية الرجلين والمرأة العجوز ، فوجدت زكية نفسها فى زورق تعانقت فيه ثلاث جثث ، وهى جثث اعز الناس عندها : زوجها ، وشقيقها ، وأمها .

فطار عقلها ، وتركت الزورق تتقاذفه تيارات المياه ، ووقفت بين الجثث الثلاث تشد شعرها تارة ، وتلوح بيديها تارة اخرى ، وتطلق الزغاريد واحد تلاحق اخرى .

بقيت زكية عبد العاطي وحيدة فى هذا العالم ، بعد أن فقدت اسرتها فأعادها حسن طوبار الى بيته حيث رعتها أسرته بعنايتها ، وأحاطتها بعطفها .

ورحل الزعيم المنزلاوى عن مصر فأقام بضعة شهور فى غزة ،واخذ معه أسرته والمرأة المجنونة التى اعتقد أن انتقالها من جو الى جو قد يعيد اليها عقلها الضائع .

ورحب بها اقارب زوجها فرجان الصبائح فى غزة ، ولما قـــرر حسن طوبار العودة الى مصر ، ارادوا استبقاء المريضة عندهم ، ولكن ربيبهـا ابي الا ان يصحبهـــا معه الي المنزلـة . .

رجع شيخ العرب الي بلدته في شهر مايو سنة ١٧٩٩ ميلادية = ١٢١٣ للهجرة ،وعاش سنة اخري ، ورفض كل ما عرضه عليه الفرنسيون من عـــــــروض .

أما زكية عبد المطلب فقد ماتت قبله بأيام معدودة ، فى نوبة من نوبات الجنون . أطلقت خلالها اجمل واقوى ما اطلقت فى حياتهـــا القصـــيرة من زغاريد .

ماتت المجنونة المفردة وهى تزغرد .



النهر المبارك ! لم يخيب فى تاريخه
الطويل امل البلد الذى يحيى ارضه
الطيبة بمائه ! وقد طالمـا كان عونا
لاهله فى التنـــكيل باعدائهم ! ..

صمد مراد بك للفرنسيين بجيشه فى سهل « امبـــابة » ورتب جنوده للقتال ونزع عجلات المدافع وركزها فى التراب ظنا منه ان هذا الاسلوب أفضل من سواه فى موقف الدفاع ، واصدر أوامره الى الفرسان بأن يكونوا على اهبة وعدة ، لان النصر يتوقف على نجاحهم فى الهجوم وتشتيت شمل الجنود الفرنسيين الذين اعيـــاهم التعب والسير المتواصل

وفى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ ــ الموافق للحادى عشر من صفر سنة ١٢١٣ هجرية ــ التقى الجيشان حول القرية الصغيرة فى السهل الذى دون اسمه منذ ذلك اليوم فى سجل التاريخ .

كان القائد الشاب نابليون بونابرت قد هزم المماليك فى كل موقعة نازلوه فيها فسار من نصر الى نصر ، واجتاز الصحراء والحقول والمدن من الاسكندرية الى القاهرة ، فوصل الى « امبابة » حيث وجد مراد بك والمماليك فى انتظاره ، لمنعه من دخول العاصمة ورده عنها

وكانت معركة دموية هائلة ، امتازت بهجمات الفرســان المماليك على صفوف الفرنسيين هجمات متواصلة ، وعجزت مدفعية مراد بك عن مساعدة الفرسان لان رجالها كانوا غير قادرين على نقلها من مكان الى مكان . وما انتهى ذلك اليوم المشهود ، الا وقد فرت فلول المماليك وشردت فى السهول والحقول ، تاركة وراءها سبعة الاف جثة يجرف معظمها النيل فى تياره ، والافا من الجرحى لا يجدون من يواســـيهم ويضمد جراحهم . .

اما مراد بك ، امير المماليك وقائدهم الاكبر ، فقد ابتعد عن ذلك المكان ، وتبعه الفان وخمسمائة من رجاله المخلصين ، فتوغلوا جميعا فى الصحراء ، متجهين الى الوجه القبلى طلبا للنجاة وهربا من الموت .

وفى اليوم التالى ، دخل الجنرال ديبوى القاهرة واحتلها باســم رئيسه بونابرت ورفع عليها اعلامه .

وفى الخامس والعشرين من شهر يوليـــه أقام الجيش الفـــاتح معسكراته فى انحاء العاصمة .

***

اضطر جنديان من الفرنسيين ، هما الاخـوان « لوفـوا » الـى الإبتعاد عن حومة المعركة ، فى امبابة ، امام مطاردة اثنين من المماليك ، لكنهما تمكنا من النجاة وظلا ثلاثة أيام كاملة ، يتنقلان من مـكان الـى مكان ، مختبئين ، خائفين ، الى ان وصل بهما المطاف الى جزيرة الروضة ،

حيث وجدا رجلا مصريا معه قارب صغير ، فطلبا منه ان ينقلهما الى الضفة الاخرى ، واجابهما الرجل الى طلبهما

ووقفت زوجته تنتظر عودته ، وبينما هى كذلك اذا بالجنديين يتفقان على المسكين فى وسط النيل ويشبعانه ضربا ، ثم يوثقان يديه ويلقيانه فى الماء !

جعلت المراة تصيح وتستغيث ، فردت عليها قهقهة الجنديين المجرمين وذهب صراخها ادراج الرياح .

ونزل الجنديان على الضفة الثانية ، وابتعدا عن نظر المراة ، تاركين القارب تتقاذفه مياه النهر مصحوبين بلعنات المسكينة ، التى جعلت تلطم خديها ، وتشد شعرها ، وتمزق ثيابها ، صائحة مرددة : « واسفاه عليك يا عبد الوهاب ..! ستبكيك خديجة ما دامت حية .. وستنتقم لك من القوم الظالمين ..! لعنة الله عليكما .. وليكن موتكما غرقا فى النيل كما قتلتما زوجى غرقا فيه ..! ان النيل وفى أمين ، وقد وكلت اليه انتقامى ، فسيكون لى ولزوجى وفيا امينا !»

قالت المراة هذا وراحت تنعى للناس زوجها « عبد الوهاب الجيزاوى » فبكاه الناس معها واقاموا له مأتما ، وحاولوا ما أن يخففوا عن الزوجة المسكينة وقع ذلك المصاب الاليم .

ولم يعلم أحد كيف ولماذا قامت بين عبد الوهاب والجنديين تلك المشاجرة التى أدت الى قتله ..

وانتقلت المراة بعد موت زوجها الى منزل احد اقاربها ، ويدعى سيد بدر من سكان الحسينية بالقاهرة .

***

كان الاميرال نلسون الانجليزى قد دمر الاسطول الفرنسى فى خليج ابى قير ، فى اليومين الاول والثانى من شهر اغسطس ، فاحدث ذلك تاثيراً عظيما فى الجيش وفى المدينة . وقام فريق من الضباط الفرنسيين يدسون لقائدهم ويثيرون ضده الاحقاد والضغائن ، بينما كان فريق من كبراء المصريين يعملون لعرقلة حركاته ومشروعاته فى العاصمة

لكن بونابرت لم يحسب لاحد من خصومه واعدائه حسابا فمضى فى سبيله ، يرسم لفرق الجيش خطط الهجوم والانتشار والاحتلال ، ويستدعى اليه رؤوس المدينة ويخطب ودهم الواحد بعد الاخر ..

وفى اليوم الاول من شهر « فروكتيدور » اخر شهور السنة الجمهورية ، الموافق للثامن عشر من شهر اغسطس سنة ١٧٩٨ ، خرج

القائد نابليون بونابرت فى موكب عظيم يحف به قواده وجنوده ، وتوجه الى مصر القديمة للاحتفال بعيد وفاء النيل !

أراد القائد الفرنسى بذلك أن يستميل المصريين اليه ، بمشاركتهم فى اعيادهم ، واحترام تقاليدهم ، بعد أن وعدهم بأنه لن يلحق بمصر اذى ، وقطع على نفسه عهدا بادخال اصلاحات كثيرة على القاهرة . .

اقيمت فى ذلك المكان منصة عالية ، جلس عليها بونابرت وحوله عظماء البلاد وامراء الجيش . وصدحت الموسيقى بالاناشيد الفرنسية والانغـــــام المـــــربية .

وبينما الجنود فى فرح ومرح ، يهزجون ويغنـــون ويرقصون ، اذا بصياح مزعج يعكر صفاء العيد ، واصوات استغاثة تطـــرق الاذان ، آتية من عرض النيل . .

واسرع الجنود من كل ناحية ، فى زوارقهم ومراكبهم ، الى مصدر الاصوات ، لكنهم وصلوا بعد فوات الوقت

وسأل بونابرت ما الخبر ، فقيل له ان جماعة من جنوده ركبوا زورقا وخرجوا للنزهة فى النيل ، فانقلب بهم الزورق ، وغرق منهم عشرون لا يحسنون السباحة ، ونجا اثنان فقط !

وكان « الامباشى لافوا » بين الغرقى ، وهو احد الاخوين اللذين قتلا عبد الوهاب الجيزاوى يوم القياه فى النيل !

***

عاد سيد بدر الى بيته ، بعد ذلك بيومين ، ووجهه طافح بشرا ، ونادى خديجة قائلا :

ـ تعالى . . اسمعى : لقد انتقم لنا النيل من احد الاخوين ، ولا بد أن ينتقم لنا من الاخر . .

وقص على الزوجة الحزينة ما وصل الى علمه من ذلك الحادث ، وكيف ان « الامباشى لوفوا» مات غرقا فى النهـر ، فى يوم الاحتفـــال بوفاء النيـــل . .

فابتسمت خديجة للمرة الاولى بعـد موت زوجهـــا ، وقالت : « حقا . ان النيل وفى امين ! »

اراد نابليون بونابرت ان يستعجـــل الحوادث أو يتجنبها . وان يستعد للطوارىء ثم يقوم بما كان يفكر فيه من غزو سورية واحتلالها كما غزا وادى النيل واحتله ، فارسل قواد جيشه شمالا وجنوبا وشرقا

وغربا لمطاردة المماليك والقضاء على فلولهم ، وترك حاميات فرنسية في مواقع البلاد الحربية ومدنها الكبيرة ومنافذها الهامة .

فقام الجنرال ديزى في خمسمائة رجل وثماني سفن حربية لاحتلال الوجه القبلي وطرد مراد بك والالفي بك وغيرهما من أمراء المماليك ، الذين تركوا القاهرة وحاولوا أن يعتصموا في تلك الجهات . وبعد معارك عديدة ، هزم فيها الفرنسيون المماليك في كل مكان ، تم لذلك القائد ما أراد ورفع علم الجمهورية الفرنسية على جميع المدن الواقعة على ضفاف النيل .

وقام الجنرال « دوجا » بفرقة من الجيش لاحتلال «المنصورة» والاقاليم المحيطة بها ، وانقض المنصوريون على الحامية الفرنسية ، المكونة من ١٢٠ من الجنود وذبحوها عن اخرها !

وقام قواد اخرون ، لاحتلال المدن والقلاع وطرق المواصلات ، وكان بونابرت نفسه يخرج من القاهرة من وقت الى اخر للاشراف على تنفيذ خططه واوامره ..

وظن القائد الفاتح ان الامر قد استتب له وان القاهرة قد قهرت، وان سكانها لن يحركوا ساكنا ..

لكنه كان مخطئا في ظنه . فان الافكار كانت قلقة مضطربة ، وكان سكان المدينة ينظرون بعين الحذر والخوف الى أولئك الوافدين من أوربا ، الذين قيل عنهم انهم احدثوا في بلادهم ثورة هائلة على القوانين والانظمة والتقاليد والدين ، والذين لا يوجد بينهم واحد يذكر اسم الله وينتمي الى مذهب من المذاهب أو دين من الاديان !

وكان أصحاب الكلمة المسموعة والرأى النافذ الذين لم ينخدعوا بالوعود والهدايا ، ولم يعلنوا ولاءهم لبونابرت وحكومته ، يزكون النار تحت الرماد ، ويغذون في النفوس الاحقاد ، ويعدون العدة لليوم العصيب ..

وارتكب بونابرت غلطة عجلت مجيء ذلك اليوم ..

فقد احوجته نفقات جيشه الى المال ، وما من سبيل الىالحصول عليه وعلى الذخيرة والارزاق من فرنسا ، بعد تدمير اسطوله في ابي قير، فعمد الى حيلة لابتزاز الاموال من السكان ، دون أن يفرض عليهم الضرائب ، وذلك باصداره قانونا جديدا يقضي على كل صاحب ملك وعقار أن يتقدم اليه بالاوراق والوثائق التي تثبت ملكيته لكي يعتمدها، ويسجلها ويقرها .. مقابل رسم معين يدفعه صاحب الملك لخزانة الجيش الفرنسي ..



الشيخ السادات
من زعماء ثورة القاهرة
على الفرنسيين فى سنة ١٧٩٨

اراد ان يتقي شرا فوقع في شر !

فقد اغتنم الناقمون عليه الفرصة ، واشاعوا في طــول البــلاد وعرضها ان الفرنسي الخبيث يريد انتزاع الحجج والمستندات من أيدى اصحابها ، فلا يبقى معهم ما يثبت ملكيتهم ، فيؤول كل شيء في مصر الى ايدى المحتلين الاجانب ..

واستصرخوا المتحمسين من ابناء الشعب وصاحوا بهم قائلين « لقد طفح الكيل وبلغت سيئات الفرنسيين حدا لايطاق ! فاما الثورة اليوم . واما الفناء غدا ! »

وكانت ثورة القاهرة على بونابرت وجيشه . في اليوم الثــالث والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ ــ الموافق ليوم الاحد ٢١جمادى الاولى سنة ١٢١٣

فقد جمع « فتوات » الاحياء في ذلك اليوم جموعهم ، وانتشروا في المدينة صائحين غاضبين ناقمين ! ومشى « سيد بدر » على راس ابناء الحسينية . وقد زاد عددهم على الالف ..

وصل خبر الفتنة الى الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة ، وهوذلك القائد الذى دخل المدينة واحتلها باسم بونابرت ، فأراد ان يخمــد الحركة في مهدها ، وخرج من قصره على رأس كوكبة من الفرســـان . واسرع الى منزل كبير العلماء ، الشيخ عبد الله الشرقاوى

وهناك التقى بجموع الثائرين ، وهم كثيرون ، فخاطبهم مهددا ، طالبا منهم العودة من حيث اتوا ، فما كان منهم الا ان هاجموا فرسانه بالعصى والحجارة والنبابيت فدارت معركة حامية بين الفريقين سقط فيها الجنرال ديبوى صريعا ..

وعلا الصياح من كل حدب وصوب . وأدرك الســكان أنهم قد اندفعوا في حركة لابدمن المضي فيها ، وأن الجيش الفرنسي ســيهاجم المنازل ويطلق عليها مدافعه ، فأقاموا المتاريس في كل ناحية . واسرع كل منهم الى سلاح يحمله ، أيا كان ، فاختلطت في الايدى البنـــادق بالنبابيت والسيوف بالحجارة ، والخناجر بالقضبان الحديدية ..

وشعر مشايخ القاهرة بحرج الموقف فعقدوا اجتماعا قرروا فيه حض الشــعب على المضي في ثورته .

وكان الشيخ السادات اشدهم تحمسا للثورة ، وابعدهم أملا في نجاحهـــا ..

وما أن علم نابليون بونابرت بمصرع القائد ديبوى ، حتى ثار ثائره،

نجمع حوله قواد المناطق والكتائب . واصدر اليهم اوامره ملجبا فى تنفيذها سريعا ، لاخماد الفتنة قبل استفحالها ، وارهاب الثائرين قبل ان يحرزوا نصرا جديدا ..

وعين الجنرال « بون » خلفا لديبوى فى منصب الحاكم ، وامر الجنرال « دومرتان » باطلاق المدافع على الاحياء الثائرة ، وارسل يتوعد الشيخ السادات وغيره من رجال الدين بانه سيدمر القاهرة اذا ظل الشعب على حاله من الهياج .

ولم تسفر المخاطبات الاولى عن نتيجة ما ، فدوى فى الجو هدير المدافع ، وتسلطت قنابلها كالوابل المدرار على احياء المدينة الهائجة ، وانطلق الجند فى الشوارع والازقة والطرقات ، يهاجمون الثائرين وراء متاريسهم ، ويقتحمون البيوت التى اعتصم فيها السكان ، ودارت رحى القتال فى كل ناحية من القاهرة ، من الصباح الى المساء ، مدة يومين كاملين ..

***

وفى اثناء ذلك ، كان خمسة من الجنود الفرنسيين قد خرجوا للنزهة على ضفاف النيل ، فى جزيرة الروضة ، حيث ركبوا زورقا وتوغلوا فى النهر صعدا نحو الجنوب .

وعندما عادوا ، فى المساء ، الى المكان الذى ركبوا فيه الزورق ، ونزلوا الى البر ، هاجمهم جماعة من «ابناء البلد » وكانوا من الذين اضرموا نار الثورة منذ الصباح ..

فوجىء الجنود بذلك الهجوم ، وراوا ان خير وسيلة للنجاة هى ان يعودوا فى زورقهم الى عرض النهر ، فاسرعوا اليه ، وحاولوا الابتعاد عن الشاطىء ، لكن المهاجمين تبعوهم ، وضيقوا عليهم ، وامطروهم وابلا من الحجارة ، ثم جعلوا يطاردونهم فى الزوارق ، حتى ادركوهم والقوا بهم جميعا فى النيل ، فماتوا غرقا .

وكان من بين اولئك الجنود الفرنسيين الخمسة الجندى «لوفوا» شقيق الامباشى لوفوا ، واحد الاثنين اللذين قتلا عبد الوهاب الجيزاوى بان القياه فى النهر !

وانتهت ثورة القاهرة . وعقد القائد الفرنسى مجلسا من مشايخ القاهرة وعظمائها وحاول ان يقربهم مرة اخرى بالوعود لكى يتعاونوا معه فى احلال الوئام محل الخصام ..

وشمل الهدوء المدينة .. الى حين ..

وعلمت المراة خديجة ، زوجة عبد الوهاب الجيزاوى ، بمقتل الجندى « لوفوا » الذى أغرقه الثوار فى النيل ، فى جزيرة الروضة ، وفى نفس المكان الذى غرق فيه عبد الوهاب قبل ذلك اليوم بعشرة اسابيع ، فابتسمت للمرة الثانية بعد موت زوجها ، وقالت : « حقا . ان النيل وفى امين ! »





ظن الغزاة المعتدون ان المدينـة
هادئة والشعب نائم : فاذا بالمدينـة
متيقظة والشعب يتحفز للانقضاض
عليهم !

هؤلاء الانجليز ، انهم يبحثـــون دائمـــا عن « مخلب القـــط » ليستخدموه فى الاساءة الى الشـــعوب ، والاعتـــداء على كيانها ، وسلب حريتها !

وعندما تتسع شقة الخلاف ، ينقضون على الفريسة ، ويتقدمهم احيانا « مخلب القط » ليأخذ نصيبه من الوليمة !

فى سنة ١٨٠١ ، ارادوا ان يحتلوا مصر ، وكانوا فى ذلك الوقت اعداء للفرنـــسيين ، فاستخدموا صنائعهم من « بيكوات » الترك فى مصر « مخالب قط » للنيل من الفرنسيين حتى يحلوا محلهم فى أرض مصر التى كانت تنظر الى الفريقين على انهم سواء فى اللؤم والطغيان والطمع

والمخالب التى استخدمها الانجليز كانت مجسمة فى شخص البعض من أمراء الممـــاليك ..

فشلت تلك المحاولة لاحتلال مصر ، ثم عاد الانجليز الى التأهب لتكرار التجربة ، وكان الفرنسيون قد رحلوا الى غير رجعة .

وجرت المحاولة الثانية فى سنة ١٨٠٧ . وكان مصيرها الفشـــل المصحوب بالهزيمة المنكرة فى ميادين القتال !

وكانت المخالب أيضا مجسمة فى شخص بعض المماليك . ولـكن « مخلبا واحدا » انقلب على الانجليز فهد كيانهم !

وبعد خمسة وسبعين سنة ، عزم الانجليز على تحقيق حلمهـــم باحتلال مصر ، فهاجموها غدرا فى سنة ١٨٨٢ ، واستخدموا « مخـلب القط » وكانت المخالب مجسمة فى شخص بعض الخـــونة النفعيين : سلطان ، وخنفس ، والمخلب الاكبر : محمد توفيق خديو مصر !

وفى سنة ١٩٥٦ ، عول الانجليز مع اعدائهم بالامس وحلفائهم فيما بعد الفرنـــسيين . على العودة الى احتلال مصر بعد أن رحلوا عنهـــا ، فبحثوا عن مخلب قط فى الداخل ..

ولم يجـــدوه !

ولكن المخلب تقدم من تلقاء نفسه ، من الخارج : وهكذا استخدمت بريطانيا اسرائيل ، ودفعتها الى هجوم غادر ، لتسرع هى وحليفتهـــا فرنسا الى شد ازرها بهجوم غادر اخر ، على امل ان يسيطر البغــــاة المتحالفون على مصر ، ومن ثم على الشرق العربى كله ..

وانتصرت مصر على المعتدين جميعا !

فى سنة ١٨٠٧ ، بعد ان كان الانجليز حلفاء لتركيا ضد الفرنسيين يتظاهرون بانهم يرغبون فى احتلال مصر لاعادتها الى تركيا ، تخلوا عن حليفتهم ، وارادوا احتلال مصر لحسابهم الخاص ! فى ١٧ مايو ١٨٠٧ القى الاسطول البريطانى مراسيه أمام ميناء الاسكندرية وعلى ظهر سفنه سبعة الاف جندى !

لم يكن فى وسع المدينة فى ذلك الوقت ، وفى الظروف التى احاطت بها ، ان تقاوم وتدافع عن نفسها ..

ونزل الانجليز الشجعان ودخلوها بدون أن يعترضهم فى طريق الفتح هذا معترض او سائل !

وقال قائدهم « فرازر » لمعاونيه الاقربين :

ـ نزهة حربية يا سادة .. نزهة حربية أدعوكم اليها .. فارتدوا احسن ثيابكم ، وتقلدوا سيوفكم ، ولمعوا بنادقكم ، وانني لاعدكم بنهاية اسبوع لطيفة فى مدينة رشيد !

هذا ما قاله فرازر لضباطه الذين نقلوا هذا القول لجنودهم ، فآمنوا به واعدوا انفسهم النزهة اللطيفة ..

وانطلق الضباط والجنود فى الثغر المصرى الكبير ، يلهون ويمرحون قبل ان يستانفوا السير الى الهدف التالى : مدينة رشيد !

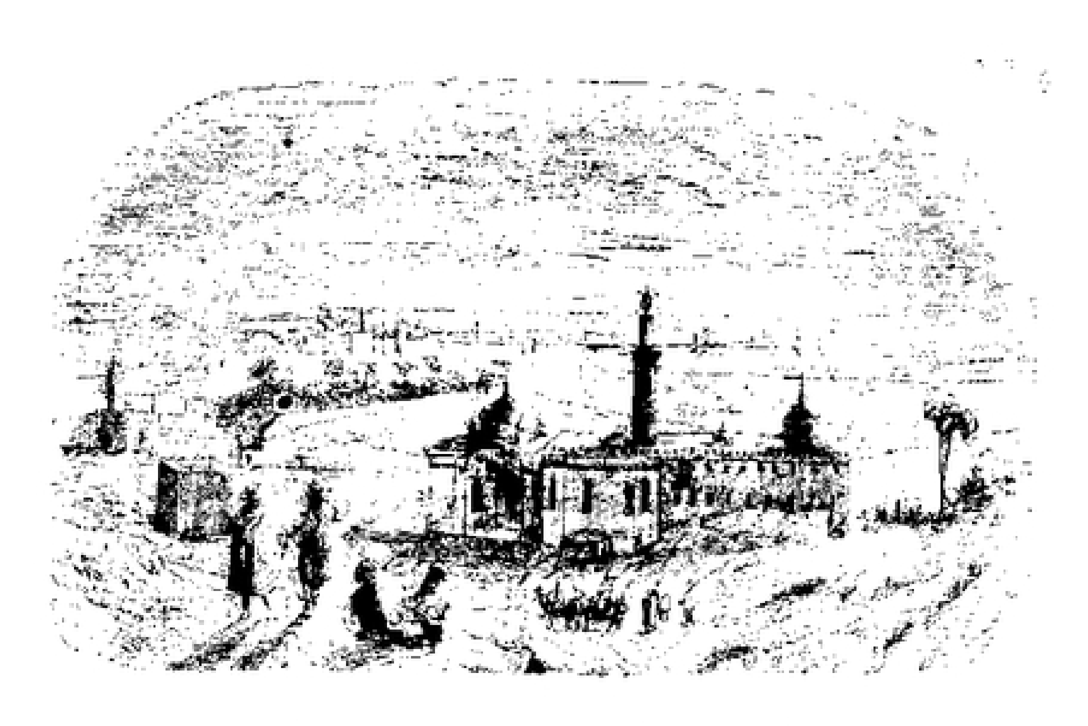
كان فرازر ، قائدهم الاعلى ، يحمل قائمة باسماء بعض التجار فى الاسكندرية ، ممن كانت لهم علاقات تجارية مع الانجليز والفرنسيين، يوم كان الفريقان قبل ذلك ببضعة اعوام يتقاتلان ويتناحران عند منافذ مصر ..

وبين أولئك التجار ، محمد السروجى ، الذى جمع ثروة طائلة فى خلال تلك المدة التى شغلتها مناقسة الفرنسيين والانجليز ، من بيع السروج لهؤلاء وأولئك ، ولاصدقاء الفريقين فى الداخل ، من المماليك المتنافسين .

أراد فرازر أن يفعل ما يفعله كل فاتح انجليزى قبل اعتدائه على بلد آمن : أراد أن يبحث عن « مخلب القط » ليستخدمه فى رشيد ..

واعتقد أن التاجر السروجى هو الشخص الذى أرسلته العناية الالهية لخدمة المآرب البريطانية وتمهيد الطرق للحملة الاستعمارية ..

وتظاهر السروجى بقبول ما عرضه عليه الانجليز ، بل ذهب الى أبعد من ذلك وتعهد لهم بأن يأتيهم بأنصار من اصدقائه وزملائه التجار، ليكونوا مثله فى خدمتهم ، ويعملوا مثله من أجل فوز حملتهم ..



مدينة الاسكندرية فى أوائل القرن التاسع عشر

وقبض السروجي الثمن مقدما ..

ثمن خيانة كان مصمما على ان لا يقترفها ، بل ان يحولهـــا الى عمل وطنى يخدم به قومه ، ويخذل به الغرباء الطامعين .

قبل استئناف الحملة الانجليزية سيرها من الاسكندرية ، خرج من المدينة ، ناحية الشرق ، موكب غريب فى مظهره ، عشرة فرســــان او اكثر ، كلهم على صهوات جياد مطهمة ، وتحتهم سروج مزركشـــة، مزوقة ، يتقدمهم كبير السروجية بالاسكندرية محمد عثمان الذى كان يكفى أن يقال « السروجى » لكى يدرك السامع ان المتكلم يعنيــه ولا يعنى سواه ..

وكان الموكب يسرع فى السير ..

وما أن ابتعدوا قليلا عن ظاهر المدينة ، حتى اطلق الفرسان لخيولهم الاعنة ..

وبلغوا رشيد ..

وأمام حاكم المدينة « على بك السلانكلى » وقف محمد السروجى الاسكندرى ، ورفاقه التجار الذين جاءوا معه ليشاركوه فى تضليـــل المسئولين فى المدينة ، والتمهيد لدخول الحملة البريطانية اليهـا بدون قتال .. كما نزلت من السفن الى الاسكندرية بدون قتال ..

وقال محمد عثمان لعلى السلانكلى :

ـ نحن ببابك قادمون اليك من الاسكندرية حيث يعسكر ســـبعة الاف من الجنود الانجليز ، سيواصل نصـــــفهم أو أكثر الزحف الى مدينتك هذه ، رشيد . بعد أيام أن لم يكن بعد ساعات .. وقـد قلنـا لهم، نحن التجار ، انه ليس فى المدينة حامية تدافع عنهـا ، وانه ليس لديك انت ســلاح توزعه على الاهالى لكى يدافعوا به عن انفسهم ، وانك ضعيف الارادة خائر العزيمة جبان لاتجرؤ على خوض قتال ولا على استعمال سلاح ، وهكذا جعلناهم يطمئنون الى أن المدينة ستكون لقمة سائغة كما كانت الاسكندرية بالامس .. ووعدنا القائد الانجليزى بان نسبقه الى هنا لنمهد السبيل لدخوله مطمئن البال الى مدينة رشيد هــذه .. وقبضنا ثمن هذا التواطؤ معه مقدارا من المال احمـله معى فى هــذا الكيس ، واضعه الان بين يديك وقد ضاعفناه مرارا بتبرعات من عندنا ، لتتصرف به كما تشاء ، أما انا ورفاقى ، فاننا سننضم الى الاهالى للدفاع عن المدينة ، بعد ان تكون انت قد رســمت الخطة التى نرغب الينا فى تطبيقهـــا ! ..

تكلم السروجى بدون أن يترك مجالا لحاكم المدينة لكى يقاطعــه بسؤال أو باستفهـــام ..

اراده الانجليز ان يكون خائنا لوطنه ، فغرر بالانجليز وحرض مواطنيه على المقاومة بدل ان ينصحهم بالاستسلام ..

وزحف الانجليز على رشيد ..

ودهشوا ؛ او لم يدهشوا ، لما اطلوا عليها بخيلهم ورجالهم ، ووجدوها هادئة لا حركة فيها ولا مظهر من مظاهر الدفاع والمقاومة ..

طافوا في الشوارع فاذا بها خاوية خالية ..

طرقوا ابواب المنازل فلم يرد عليهم احد ، كأن المنازل مهجورة من اهلها ..

قابلهم في الطرقات بعض السكان فاذا بهم يضحكون لهم ويرحبون بهم بلغة لايفهمها الاغراب ولكنهم يدركون معنى كلماتها ..

ـ اهلا وسهلا .. ! سلامات !.. والله سلامات !.. نورتم البلد..

يا مرحب يا مرحب !

وقال الجنود الانجليز بعضهم لبعض :

ـ شعب مسالم حقا .. لا يحب الحرب .. ويستسلم لكل فاتح .. تماما كما قيل لنا ونحن في طريقنا الى هنا ..

وقال الضباط المطلعون على اسرار القيادة :

ـ عمل بارع قام به اولئك الرسل الذين سبقونا الى هنا .. الطريق ممهد .. والبلدة مستسلمة لنا ؛ والنوم الهادىء !

وكان الانجليز قد دخلوا مدينة رشيد في ساعة القيلولة؛وكان الوقت صيفا ؛ وخيل اليهم ان الناس نيام في داخل بيوتهم ، طلبا للراحة وهربا من حرارة الشمس ..

فراحوا يفعلون مثل السكان : يلقون اسلحتهم جانبا ، ويسندون ظهورهم الى الجدران ؛ أو يستلقون على الارض في الظلال ، وينتظرون نفحة من نسيم عليل ..

ولما مالت الشمس الى الغروب ؛ انفجر البركان النائم !

كان علي بك السلانكلي قد اعد خطة محكمة نفذها السكان بكل دقة وبراعة .

ما كاد الانجليز يطمئنون الى ان المدينة اصبحت فى قبضة ايديهم وطوع اوامرهم ، ويستسلمون للراحة . حتى فوجئوا بنوافذ البيوت تفتح ، وتنطلق منها النيران كالمطر المدرار ، والسطوح تتحول الى مقالع تهوى منها الحجارة على رؤوس الجنود المبهوتين . .

وفتحت الابواب من كل صوب . وخرج سكان رشيد بسيوفهم ورماحهم ، وخناجرهم ، والسكاكين التى اخذوها من مطابخهم ، والادوات الغريبة العجيبة ، التى تناولتها ايديهم من البيوت والحوانيت ، وكلها يقتل وكلها يجرح ، وكلها يصلح لتوجيه ضربة صائبة قاضية الى واحد أو اكثر من أولئك الغزاة القادمين من وراء البحار . .

وغلت مراجل الغضب فى صدور « الرشايدة » وصعد الدم الى رؤوسهم وفار فائرهم فانقلبوا الى اسود وضباع وذئاب ، بدافع الرغبة فى رد الخطر عن الحمى والوطن ، والثار لمن اصابه العدو بضرر فى الماضى القريب والبعيد . .

راح الرشايدة يضربون يمينا ويسارا امامهم وخلفهم ، كل منهم بالسلاح الذى بيده ، وكانت كل ضربة من ضرباتهم صائبة ، هذه قاتلة وتلك جارحة . والانجليز من حولهم مذهولين مشدوهين ، يتساقطون كالعصافير امام صيحات الصقور ، او كاوراق الشجر فى هبات رياح الخريف !

هزمت الحملة التى ارسلها فرازر لتحتل مدينة رشيد هزيمة بشعة .

ذبح من الانجليز من ذبح . وقتل بالرصاص من قتل ، واختفى من الميدان من اختفى ، وجرح من جرح من الامام وهو يقاوم ، أو من الخلف وهو يولى الادبار هاربا من الميدان !

لم يكن جيشا مصريا . ذلك الجمع الثائر الذى هزم جيشا بريطانيا ! . .

كان قلة من ابناء الشعب الهائجين قضوا على جنود الملك جورج الثالث المجنون ! . .

قطعت رؤوس القتلى من الضباط وارسلت مع الاسرى الى مصر والاسكندرية ، عبرة وذكرى !

وتميز فرازر غيظا ، وعاود الكرة على رأس حملة قادها بنفسه ، ولكنه منى بفشل اخر ، وهزم مرة ثانية بعد المرة الاولى ، ورأى بنفسه

مضطرا الى مصالحة الشـعب المصرى الهائج ـ الذى ظنه نائما ـ نصـــــالحه !..

وجلا بجنوده عن الساحل المصرى !

وانقلبت فى تلك المرة « مخالب القط » على الانجليز انفسهم ، الذين اعدوها وشحذوها واستخدموها على أمل ان تخدم استعمارهم ، فاذا بها تدمى جبهته ، وتفضح أمره !

فى رشيد ، هزم المصريون الانجليز فى معركتين ..

لم تكن تلك الهزيمة الاولى فى التاريخ .. ولم تكن الأخيرة !



أربعة رؤوس

في سنة ١٨٠٧ ، حاول الانجليز احتلال مصر ، فردهم المصريون على اعقابهم . وهذه قصة امرأة مصرية قتل الانجليز زوجها فثارت له بقتل اربعة من جنودهم !

ختم « على بك السلانكلي » حاكم مدينة « رشيد » حديثــــه مع ســـــــــامعيه قائلا :

ــ لقد بسطت لكم الموقف على حقيقته . وأعود فألخصه لكم في عبارات وجيزة : فالانجليز يحتلون مدينتنا منذ الصباح . ولكن عددهم قليل بالنسبة الى عدد السكان . وفي وسعنا ، لو أخذناهم الليلة على غرة ، وفاجأناهم بهجوم لا ينتظرونه ولا يحسبون له حســــــابا ، أن نذبحهم عن آخرهم أو أن نطردهم من المدينة على الاقل . وقد أصدرت أوامري الى الجنود الذين تحت أمرتي ، بأن يبدأوا اطلاق النار بعـــد غروب الشمس ، وجاءتني نجدة من العربان لتشد أزر الجند . ولكنني في حاجة الى مساعدتكم أنتم يا أبناء رشيد . فهل تقسمون على الثورة في وجه الغاصبين والتعاون مع الحامية في طردهم ؟

فانطلقت من صدور الحاضرين همهمة ، هي مزيج من الغضــــب والرغبة في الثأر ، وتتابعت الردود بالايجاب على سؤال الحاكم : « نعم، نعم ، نحن مستعدون للثورة ! »

ونهض من بين الحاضرين شخص ملثم كشف عن وجهه فاذا به امرأة فارعة القامة حادة النظرات يتطـــاير الشرر من عينيهـــا . وبهت الحــــاضرون لحظة ، ثم اصــــغوا الى المـــرأة وهي تخاطبهم قائلة :

ــ يا مواطني الاعزاء .. قد يعرفني بعضكم .. ولكنني مجهولة من معظمهم ؛ لانني قروية زوجة فـــلاح قضى حياته في الحقول والمزارع .. أنا « نفيسة » زوجة « على عامر » الذي اغتاله الجنود الانجلــيز منذ يومين ، وهم في طريقهم الى هذه المدينة ، وقطعوا رأسه وحملوها على سنان رمح وقد رآها الكثيرون من السكان عندما طاف بها أولئك العلوج الاجلاف في الشوارع والازقة !

وسكتت المرأة هنيهة ، وحبست دمعها قبل أن يطفر من العينين ، ثم استطردت تقول وسط السكوت الذي عم المجلس :

ــ ان نفيسة زوجة الفلاح القتيل ، وابنها « أحمد على » البالغ من العمر عشرين عاما ، وابنتيها « حميدة » و « فريدة » ــ وهما دون الثامنة عشرة ــ اننا جميعا ، أيها الحاكم ، وأيها المواطنون ، نعد أنفسنا جنودا من جنود الثورة ؛ ونرجو أن تفعل كل أسرة في مدينة رشيـــد مثلما نفعل نحن .. وقد اقسمنا ، انا وابنائي ، على أن لا نذوق الراحة، ولا نستلقي على فراش ، قبل ان يقتل كل منا واحـــدا من الاعداء ، ويرفع رأسه على سنان رمح ، كما فعل الاعداء بقتيلنا !

فنهض على بك السلانكلى من مقعده ، واقترب من المراة باسطا يده لمصافحتها ، قائلا لها بلهجة تنم عن التأثر الشديد :

ـ بارك الله فيك يا نفيسة ! وبارك الله فى ابنائك ..!

فصافحته المراة وقالت :

ـ وما جئت الى هنا الا لكى اطلب منك اربعة رماح ايها الحاكم ، فهل لك ان تأمر لى بهذا السلاح ؟

***

ظل الانجليز منذ سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٧ ، يتحينون الفرص للانقضاض على مصر واحتلالها بعد خروج الفرنسيين منها ، وتحرشوا فى سنة ١٨٠٧ بالدولة العثمانية وارسلوا اساطيلهم لاقتحام المضايق والاستيلاء على الاستانة ، ولكنهم فشلوا . فارتدوا الى مصر وظنوا ان الظروف تساعدهم لتحقيق ما كانوا يصبون اليه ، وأن فى وسعهم النزول فى الاسكندرية والانطلاق منها الى القاهرة ، معتمدين على مساعدة فريق من المماليك .

وفى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ ، وصلت الحملة الانجليزية الى ميناء الاسكندرية ، وسلمت المدينة بعد دفاع ضعيف ونزل سبعة الاف جندى انجليزى الى البر بقيادة الجنرال فرازر الذى سير فى الحال فريقا من جنوده الى مدينة رشيد ، فاحتلوها ايضا ، واعتقدوا ان الامر قد استتب لهم ، وانهم لن يجدوا مقاومة تذكر ، ما دامت المرحلة الاولى قد انتهت بمثل هذه السرعة ، وهذه السهولة .

وفى طريقهم الى رشيد ، نهب الانجليز محصول الارض وقتلواكل من اعترضهم فى طريقهم ، وكان « على عامر » زوج «نفيسة» بين ضحاياهم ، اذ ذبحوه فى وسط حقله ورفعوا رأسه على رمح كما روت زوجته لاعيان رشيد ، فى ذلك المجلس الذى جمعهم فيه حاكم المدينة على بك السلانكلى ، ليدعوهم الى الثورة وطرد الاغراب الغاصبين

***

اوفد الحاكم رسله الى المدن والاقاليم لنشر خبر احتلال مدينته، وسقوط الاسكندرية من قبلها ، وحاجة السكان الى النجدة ، وواصل بعض اولئك الرسل طريقهم جنوبا لنشر الخبر فى انحاء البلاد .

واندفع الناس نحو الاسكندرية ورشيد ، بعضهم يشرع سلاحا ، وبعضهم يحمل العصى والنبابيت ، وبعضهم اعزل من كل سلاح غير الايمان بحقه ، والوثوق من انه سيجد سلاحا فى متناول يده ، فى اللحظة الاخيرة الحاسمة .

وفى الموعد الذى حدده على بك السلانكلى ، الحاكم الابى الشجاع وثب سكان مدينة رشيد الاشاوس ، وجنود الحامية ، ومن التحـــق بهم من عربان الوجه البحرى ، والفلاحين والرعاة ، على الجنود الانجليز المنتشرين فى الشوارع والازقة والطرقات ، وكانت الوثبة مفاجئـــة ، فأخذ العدو على غرة ، كما كان الحاكم يرجو ويرتقب ، وتعالى الصياح وسالت الدماء ، ودار القتال بالسيوف ، والرماح ، والخنـــاجر ، أو بالعصى ، والحجارة ، والايدى .. فالثائر الراغب فى قتل عدوه لاتعوزه الحيلة ، ولا يعدم وسيلة للتخلص من ذلك العدو .

وتراجع الانجليز مهزومين وخرجوا من المدينة لايلوون على شىء ، تاركين فى ميدان القتال عددا من جثث القتـــلى ، وتاركين أيضـــا جرحاهم الذين تعذر عليهم نقلهم معهم فى فرارهم السريع .

وكانت النجدة فى خلال ذلك تجد فى السير ، ووجهتها مدينة رشيد الباسلة ، لانقاذها واتخاذها قاعدة للوثوب منها على الاسكندرية .

هال القائد الانجليزى العام ، الجنرال فرازر ، أن يصاب فريق من جيشه بتلك الهزيمة البشعة ، على يد شرذمة من الجند ، وجماعـــات مسلحة وأخرى عزلاء من السكان المدنيين ، فسير حملة اخرى لاسترجاع مدينة رشيد ، والاقتصاص من أهلها ، على امل أن يبطش بهم وينكل ، ويجعلهم عبرة لغيرهم ممن قد يفكرون فى الانتقاض على الانجليز ،ورفع راية العصيان عليهم ، والالتجاء الى الثورة لاخراجهم من المدن التى يحـــــلون فيهـــا .

ووصلت الحملة الانجليزية الثانية الى رشيد ، ولكن النجدات كانت فى الوقت نفسه قد وصلت اليها من الجنـــوب .

وفشل الانجليز مرة اخرى فى الاستيلاء على رشيد والبقاء فيها

وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٠٧ ، وقعت معركة ثالثة فى « الحماد »

لكن القائد الانجليزى أدرك منذ الاشتباك الاول ، أن جيشه معرض للفناء ، وان خير وسيلة لانقاذه هى الارتداد بسرعة الى الاســكندرية ، والاحتمـــــاء فيهـــــا .

وتقهقر الانجليز بعد قتال قصير ، وكان همهم الوحيد انيحموا ظهورهم ويصلوا الى مراكز الامان بسلام

وانطلق المصريون خلفهم يطاردونهم وينكلون بهم ، وكانت كتـــائب المتطوعين من ابناء رشيد تسير فى طليعة المهاجمين ،بينما كتيبة تتقدمها « نفيسة » زوجة « على عامر » ، وابنها « أحمد » ، وابنتاها «حميدة»

و « فريدة » ، وقد رفع كل من أفراد هذه الاسرة رمحا غرست فى سنانه رأس جندى من الاعداء !

وتساءل القواد والجنود مستفسرين عن سر هذا المشهد العجيب ، فانطلق الجواب من مئات الحناجر :

ــ أعلام رشيد ! .. هذه أعلام رشيد !

وروى الرواة من الرشايدة خبر قطاع الرؤوس من أسرة علىعامر ، وكيف أن زوجة الفلاح الشهيد اقسمت أن تثأر لزوجها الذى قتله الانجليز ، بقتل اربعة من الاعداء تحمل رؤوسهم مع أبنائها على أسنة الرماح ، كما حمل القتلة راس الزوج القتيل على سنان رمح ، يوم دخلوا رشيد منتصرين !

لو قتل المصريون اربعة من أعدائهم مقابل كل شهيد يقتله الاعداء ، لما استطاعت جيوش الارض مجتمعة أن تحتل الوادى المحروس !

وانطلق المصريون فى أثر العدو الهارب ، الذى تمكن من الاحتماء بالاسكندرية ، وقطع سدود « مريوط » لاغراق السهول الممتدة حول المدينة ، ليقيم بينه وبين المصريين حاجزاً من الميـــاه .

ولكن الحاجز لم يحمه غير خمسة شهور ، أقلعت بعدها أساطيل الانجليز ، عائدة بالفزاة من حيث اتوا ، وتحررت مصر من القراصنة !



« نحن ثائرون علي الانجليز .فكل
ضرر يلحقه مصري بانجليزي انما هو
مساهمة منه فى الثورة ! »

ويصا واصف (١٩٢٠)

كان القمر فى تلك الليلة بدرا كاملا ، ونسيم البحر عليلا وصفحة الماء ساكنة كالمرآة ، ساطعة مثلها تحت الاشعة المنهالة عليها من الفضاء .. والبحر الاحمر عادة هائج متلاطم الامواج متتابع العواصف ، ولذلك فقد اغتنمنا الفرصة السانحة ، صديقى البصرى العراقى ، وانا ، فجلسنا على مقعدين مستطيلين ، فى مؤخرة الباخرة ، نتجاذب أطراف الحديث ونتبادل الذكريات ، تاركين انظارنا تسبح تارة مع البدر فى كبد السماء ، وتارة مع الاسماك الطائرة على سطح الماء ...

وصديقى البصرى جندى قديم عرفته محاربا فى صفوف العرب الثائرين سنة ١٩١٧ ، ثم التقينا مرارا فيما بعد ، كانت احداها فى خلال تلك الرحلة ، وعلى ظهر تلك الباخرة التى كان صديقى يعمل فيها كاتبا للحسابات ومندوبا لمخابرة مختلف الجهات فى الموانىء التى تمر بها الباخرة ، بين الهند وعدن ..

وقال لى فى تلك الليلة :

ــ بعد قليل سيجيئنى الى هذا المكان بحار من بحارة هذه الباخرة لغرض يتعلق بالعمل .. ولهذا البحار قصة روى لى طرفا منها وكتم الباقى .. واريد الليلة ان أحمله على الافاضة فى الكلام لان قصته تنطوى، فى اعتقادى ، على مأساة يهمك ككاتب ان تطلع عليها ..

فرحبت بما وعدنى به البصرى . ولم يطل انتظارى ، فقد وافانا بحار فى مطلع العقد الخامس من العمر ، ممتلىء الجسم ، يتمايل فى مشيته ، وبعد أداء المهمة التى جاء من أجلها هم بالانصراف ،فاستمهله صديقى ، والح عليه بأن يروى قصته كاملة على مسمع منى . قائلا له

ــ هذا كاتب وصحفى من مصر . وهو يدون فى جعبته ذكريات عن نفسه وعن الغير على السواء .

وما كاد صديقى يفوه بهذه الكلمات حتى اقترب منى البحار وحدق فى البصر ، ثم جلس على الارض بين المقعدين ، واسند ظهره الى الحاجز الحديدى وقال :

ــ سأقص عليك القصة بكاملها ، واذا اردت ان ترويها على الناس فى مصر فافعل .. فقد مرت على هذه المأساة التى كنت احد ابطالها

فى شبابى سنوات عديدة لعب خلالها الشيب فى راسى ، ومن الذكريات مايحدث فى النهاية انقباضا فى الصدر ، ففى التخلص منها ترويح للنفس.

***

واصغينا : صديقى البصرى العراقى وانا ، الى مارواه ذلك البحـار الانجليزى فى تلك الليلة المقمرة :

قبل ان اكون بحارا كنت جنديا فى الجيش البريطانى .. واشتركت فى معارك فلسطين فى الحرب العالمية ، ولم اصب بسوء ، ثم نقلت الى مصر حيث كنت اقيم فى أحد المعسكرات فى ضاحية المعادى على مسافة قريبة من القاهرة ، عندما نشبت فى تلك البلاد ثورة عمتها من شمالها الى جنوبها ، سنة ١٩١٩

واشتركت مع زملائى من الانجليز والسكوتلانديين وجنود المستعمرات فى مقاومة الثورة ، وتشتيت المظاهرات .. وكانت الاوامر التى صـدرت الينا صارمة حاسمة ، اذ كان علينا ان نقسو اشد القسوة على الثائرين والمتظاهرين ، وان نبطش بهم حيثما نجدهم ، ولا نتردد فى استعمال السـلاح واطلاق الرصاص ، بدون أن نستثنى رجال الدين وطلبة الازهر على اعتبار ان هذا المعهد الدينى العلمى يعد من مراكز المقاومة الشعبية ويبث فى الصدور روح الثورة ضـــــــدنا ..

وقد استمرت تلك الحركة المصرية بضع ســـنوات ..

كان ذلك فى يوم عيد يسميه المصريون « شم النسيم » وهم يخرجون فيه افرادا وجماعات طلباً للنزهة ، فرحين متهللين .. ولكن الاعيـاد كانت كئيبة فى مصر خلال تلك الاضطرابات .. وقد صادف مرة ان منحت اجازة لقضاء يوم خارج المعسكر مع رفيق من رفاقى ، وكان ذلك اليوم هو يوم «شم النسيم» بالذات.. والحت علينا القيادة بأن لانبتعد عن مدينة المعادى الصغيرة ، فامتثلنا للامر ، ورحنا نطوف بين الحدائق فى تلك الضاحية الجميلة ، وانتهى بنا المطاف الى شاطىء النيل .

وعند الغروب : لمـا كنا نهم ــ رفيقى وانا ــ بالعودة الى المعسـكر خلف البيوت وبين تلال الرمال ، ابصرنا زورقا يقترب من الضفة ، وفيه فتاة وشاب : امسكا معا بالمجاديف وتعانقا فى آن واحد ، ولم يصـعبه علينا ، من أول نظرة ، ان ندرك غير مخطئين اننا امام عاشقين أو خطيبين او عروســـــين .

والتقت عيناى بعينى رفيقى ، فابتسم وابتسمت ، وفطن كل منـه الى ابتسامة الآخر ومعناها ومقصدها وفى اقل من لمح البصر التحينـــا

ناحية ، خلف صخرة شاءت الصدف أن توجدها فى ذلك المكان ، ورحنا ننتظر ونرقب .

قفز الشاب الى الضفة وساعد صديقته على النزول من الزورق

واذا بنا فجأة ، وبدون سابق اتفاق بيننا ، نثب من مكمننــا على العاشقين ، فأمسك زميلى بالشاب ، وامسكت انا بالفتاة .. فاستغاث الاثنان ولكن بلا جدوى .. فقد كان المكان مقفرا على الضفة وفى النهر .. وقاوم الشاب محاولا الافلات وانقاذ الفتاة ، ولكن رفيقى كان فارع القامة معروفا بيننا بقوته وشدة بأسه ، فتمكن من توجيه ضربات متوالية بقبضة يده ادمت وجه المصرى وافقدته وعيه ، فجره صديقى من قدميه والقــاه فى النيــل !

اما أنا فقد فقدت صوابى فى تلك اللحظات كما فقد زميلى صوابه وكانت الفتاة تتلوى بين ذراعى وتواصل الصياح والاستغاثة ، فوضعت يدى اليسرى على فمها لاكتم صوتها ، وعصرت قامتها بيمناى على أمل ان اتغلب على مقاومتها فتسكت وترضخ ، ولا شك فى أننى كنت ، فى تلك السامة ، قد تجردت من كل عاطفة انسانية ، وتحولت الى حيوان يبغى المتعة بأى ثمن .. ورأيت زميلى عائدا الى وحالته مثل حالتى ، فقابلت شرر عينيه بشرر من عينى مثله ، وسال لعابى من فمى مثل لعابه ، واقفلت اصابع يدى على وجه الفتاة وضممتها بشدة فعصرتهــا عصرا ، وجريت فى اتجـــــاه الصــخرة .

ولكن .. ماخطوت بضع خطوات ، حتى شعرت بالجسم البض الذى كنت احتضنه بالرغم منه يتراخى بين ذراعى فتوقفت عن الجرى .. ورفعت أصابعى عن الفم الصغير ، فاذا برأس الفتاة يميل الى الامام .. واذا بيديها وقدميها .. أعذرانى اذا وقفت عند هذا الحد من التفصيل فى الوصف .. ويكفى أن تعلما ان الفتاة ماتت بين ذراعى : ماتت لاننــى اردت ان اكتم صوتها فكتمت انفاســــها .

وصحونا ، زميلى وانا ، من تلك الثورة البهيمية التى حولتنا الى ذئبين مسـعورين ، وجعلتنا نزهق روحين فى دقائق معدودات !

ماذا نصنع بالجثة الهامدة التى لاحياة فيها ؟

اتبعناها بالاولى فألقيناها فى النيل ، وانطلقنا نعدو مبتعدين عن ضفة النهر ، متلفتين يمينا ويسارا ، وخيل الينا أن شخصا يقهقه ضــاحكا بين شجيرات الذرة القائمة على حافة الطريق ، ولم يخطىء سمعنا .. فقد برز أمامنا من الناحية الاخرى « ابراهيم الحاوى » فأدركنا انه هو باعث تلك القهقهة !

ويجب أن اخبركما الآن من هو ابراهيم الحاوى : هو شيخ من الاعراب المصريين ، كان يتردد على المعسكر ويعرفه الجنود ويسعون اليه ، لانه كان لطيف المعشر . يخاطبنا بكلمات انجليزية عجيبة تثير الضـــحك ، ويعرض علينا العابه الكثيرة ، ومن بينها ترويض الحيات والثعابين ولهذا كان يعرف باسم « ابراهيم الحاوى » وكان دائما يقهقه فترن قهقهته بين خيام المعسكر مثل قرع الطبـــــــول .

ذلك هو ابراهيم الحاوى الذى التقينا به على مسافة خطوات من ضفة النهر حيث اقترفنا جريمتين .. فهل رأى شيئا ؟ وهل ســمع شــيئا ؟

حاولنا ان نستدرجه فى الحديث فخيــل الينـــا انه لم يفطن الى المأساة ، واطمأن بالنا ، وواصلنا السير الى المعسكر، فرافقنا «ابراهيم»، ولكن ضحكاته كانت متواصلة وكان رنينها يبعث الرعب فى نفوســنا ، لأنها لم تكن مثل ضحكاته السابقة !..

واختفى الرجل بين تلال الرمل ..

وفى اليوم التالى ، جاء الى المعسكر جريا على عادته ، وبيده زجاجة كبيرة ذات فوهة واسعة وغطاء من الزجاج أيضا ، وبها حيتان صغيرتان، وقال انه جاء بهما هدية الينا .. وكثيرا ماكان « ابراهيم » يقدم للجنود امثال هذه الهدايا من الحيات والثعابين والضفادع والسلاحف وغيرها من الحيوانات المألوفة فى مصر ، وقد تقبلنا هديته شاكرين واثقين من أن ثعابينه لاتؤذى حتى ولو لدغت حاملهـــــــا .

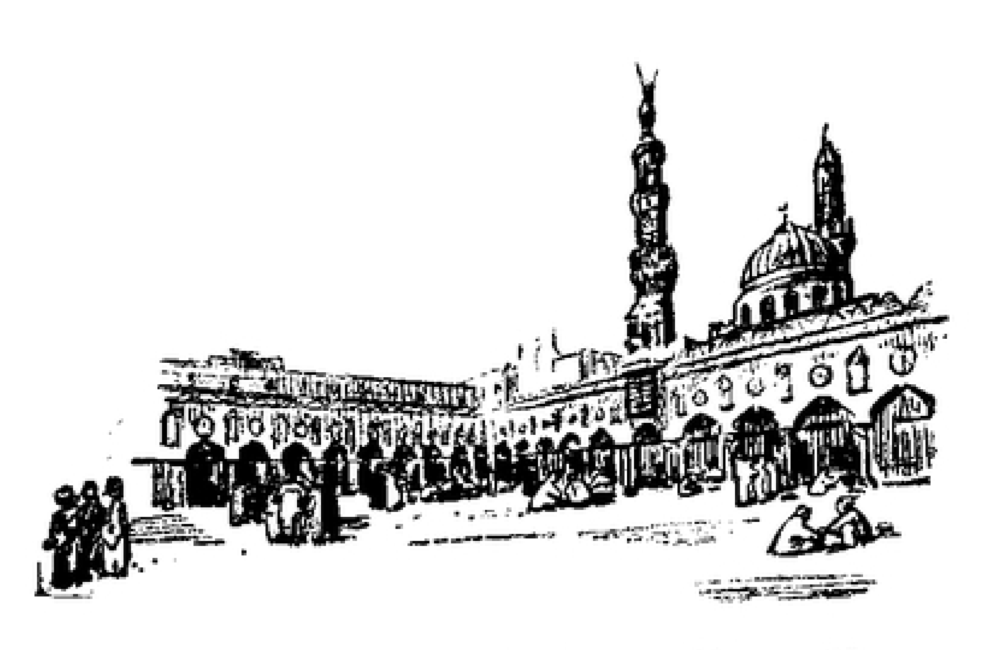
وغاب الحاوى عن انظارنا منسابا بين الخيام ، بعد أن قال لنا بلهجة لم ندرك معناها لاول وهلة : « أنا مسافر الى البلد .. الوداع ! »

وبعد أن تناولنا الغداء فى ذلك اليوم جلسنا كعادتنا مع لفيف من رفاقنا ، وجعل كل منا يروى كيف قضى يومه السابق ، فى المعسكر أو خارجه ، أما نحن فلم نشر طبعا الى ماحدث لنا ، ولا الى العمل الاثيم الذى اقدمنا عليه ، بل ادعينا اننا كنا فى صحبة « ابراهيم الحاوى» وانه اهدانا حيتين صــغيرتين جميلتين فى وعاء من زجاج .

ونهض رفيقى لساعته ، وأسرع الى الخيمة ، وعاد بالوعاء حيث كانت الحيتان تتململان فى مجالهما الضيق .

وصاح الزملاء : « أخرجهما لكى تجعلهما ترقصان على أنغام الناى . »

وكنت انا العازف على الناى ، تلك القصـــــبة التى تخرج الحـــانا



الأزهر .. كان مصدر ثورات عديدة ، ومركزا دائما من
مراكز المقاومة الشعبية

شجية ، والتي علمني « ابراهيم الحاوي » كيف انفخ فيها لتلبي النداء وتطرب الانسان والحيوان على السواء .

وكان الناي الذي عزفت به هدية منه ايضا . وقد ارسلت منه لحنا بعد لحن والرفاق يصفقون ، ثم اقترب صديقي ووضع الوعاء الزجاجي على الرمل أمامي ، وسط تلك الحلقة من الجنود الذين تكاثر عددهم ، ورفع الغطاء ومال بالوعاء لكي تخرج منه الحيتان الحبيستان .

ولكنهما لم تخرجا منه منسابتين متماوجتين ، بل وثبتا وثباً منطلقتين كالسهم المارق ، وفي الوقت نفسه ارتفعت صيحة ، ثم صيحة ثانية ، وتوالت الصيحات وعم الهرج والمرج حلقة الجنود وقد نفروا طالبين النجـــــــــــــاة .

فقد لدغتني حية في يدي اليسرى ، ولدغت الثانية رفيقي في خده ، وانطلقتا على الرمل كأنهما تبحثان عن ضحايا اخرى !

لا أطيل عليكما اكثر مما أطلت .. فقد مات رفيقي من لدغـة الحية بعد ساعة او اقل ، واسعفت انا بسرعة لأن اللدغة كانت بيدي ، فبتر لي الجراح ذراعي اليسرى في الحال ، وشاء الله أن يبقيني على قيد الحياة ..

وهذه الذراع التي ترونها ذراع من الخشب !

وادركنا أن « ابراهيم الحاوي » قد رد الثأر لاثنين من مواطنيه ، وانه رآنا بالامس نزهق روح الشاب وروح الفتاة على ضفة النهر ، فعمـــد الى معاقبتنا مستعينا بالحيتين السامتين .. وادركنا أن قهقهته عندما التقينا به ، وعندما ودعنا في المعسكر ، كانت للتعبير عن غيظه المكتوم ، وعن تصميمه على الثأر للشابين من قاتليهما .

وقد رويت الحادث لرؤسائي من الضباط كما وقع ، بعد ان عاودني الاطمئنان على حياتي ، فقر رأيهم على التزام الصمت .. وهكذا ظلت جريمتنا المزدوجة مجهولة من الناس ، وظل انتقـام الحاوي مني ومن زميلي سرا بيننا وبينـــــه .

ولم تطأ قدماي ارض مصر منذ أن غادرتها . وعندما ترسو الباخرة في احد الموانيء المصرية فانني لا انزل الى البر ، ويخيل الى انني لـــن اعود حيـــا الى الباخرة اذا وطئت الارض التي عرفتني مجرما قاتلا.

والاعوام قد مرت والحوادث قـــد تتـابعت . ولـكني لا ازال ارتعش كلما تذكرت ذلك اليوم المروع ، يوم « شم النسيم » في المعادي ، الذي كنت سببا في تحويل افراحه الى اتراح ، بالنســـبة الى أسرتين مصريتين ، أسرة شاب وفتاة خرجا للنزهة فكان خروجا لا عودة بعده!

لقد قتلت جنودا من الاعداء ، ولكنني لم اندم على مافعلت .. اما قتل تلك الفتاة وذلك الشاب فانه جعلني أعيش مع وخز الضمير الذي لايفارقني لا بالليل ولا بالنهار بالرغم من أن الحاوي قد انتقم للقتيلين فمات احد قاتليهما وبقي الآخر مبتور الذراع ، الذراع اليسرى التي اخمدت بها انفاس الحسناء البريئة !.ولا تزال صورتها ماثلة امام عيني، ولا تزال ايضا قهقهة الحاوي ترن في اذني !

***

سكت البحار .. وظللنا ــ رفيقي وأنا ــ صامتين .. ثم نهض الرجل متثاقلا ، ورفع يده اليمنى إلى جبهته بالتحية وانصرف ممسكا بهـــا قبضة يسراه الخشبية ..

ولم ينصرف وحده ؛ بل كان وخز الضمير بلا شك سائرا معه جنبــا الى جنــب .

وتناولت من جيبي ورقة وقلما ، ودونت حديثه هذا على ضــوء القمر ، بعد أن قلت لصديقي البصري :

ــ ما اكثر هذه المآسي الفردية ،المتفرعة من المأساة الكبرى :الاستعمار، فان انتقام ذلك الحاوي المصري لشاب وفتاة من مواطنيه ما هو الاجزء من النضال القائم بين المصريين افرادا وجماعات ، وبين الانجليز افرادا وجماعات أيضا ، في سبيل الكرامة والحرية !

بور سعيد

قصة البطولة الخالدة في بورسعيد
مهداة الى سكان المدينة الباسلة ،
التى قالت للمغيرين فى شتاء سنة
١٩٥٦ : « لن تمروا أبدا فلم يمروا »
والتى حفرت فى شوارعها وأزقتها
آخر قبور للفاتحين !

ما ان خرج الانجليز من مصر ، بعد بقائهم فيها ٧٢ سنة ، حتى قرروا أن يعودوا اليها .

ندموا على الجلاء ، بعد ان تم الجلاء !

فى سنة ١٨٨٢ دخلوا مصر بطريق بور سعيد وقناة السويس . وفى سنة ١٩٥٦ قرروا ان يعودوا لاحتلال مصر بطريق بور سعيد وقناة السويس !

لكنهم جهلوا ، أو تجاهلوا ، أن مصر اليوم غير مصر الامس ، وظروفها فى سنة ١٩٥٦ غير ظروفها فى سنة ١٨٨٢

فى هذه المرة ، تحالف الانجليز مع الفرنسيين ومع اليهود .. حلفاء كل من يريد شرا بالعرب !

بدأ العدوان الاسرائيلى الغادر فى آخر اكتوبر : ومنذ اليوم التالى ، ادرك المسئولون فى مصر المؤامرة بدات تنفذ .. المؤامرة التى دبرها الانجليز والفرنسيون واليهود .. وان الهجوم اليهودى ليس غير خطوة اولى ستتلوها خطوات ..

يقظة الحكومة ، ويقظة القيادة ، ويقظة الجيش ، ويقظة الشعب : كل هذا كان لابد منه ، لكى يكون الاستعداد تاما والنصر أقرب منالا !

بور سعيد ستكون الهدف الاول ، أو من الاهداف الاولى : هذا كان واضحا

اذن ، فلتستعد بور سعيد للقاء العدو : أيا كان هذا العدو :اليهودى، الفرنسى ، الانجليزى ، لايهم !

واستعدت بور سعيد فى حماسة بالغة اشبه بالحمى المتأججة ..

حفرت الخنادق ، واقيمت المتاريس ، ووزعت الاسلحة ، وتألفت من الشعب كتائب تقف مع الجيش .. كتائب للمقاومة : واخرى للهجوم، وجماعات للقيام بأعمال انتحارية ، واخرى لمساعدة الجرحى ،واشتركت المرأة مع الرجل فى ذلك كله .

وبدأ الاعداء هجومهم يوم ٥ نوفمبر ، وركزوا همهم فى بور سعيد ، منفذ القناة من الشمال ، فاتخذوها هدفا لقنابلهم واعتزموا انينزلوا فيها قواتهم ..

اسبوع كامل انقضى والقنابل تتساقط على المدينة الباسلة فتعال نتتبع حركاتهم منذ بدئها الى نهايتها ..

اليوم الاول

بدات العمليات الحربية لتنفيذ خطة الغزو فى صباح يوم الاثنين ٥ نوفمبر ١٩٥٦

مضت بورسعيد الليل كله ساهرة يقظة وعلى قدم الاستعداد للقاء العدو بما يستحقه من قسوة وهلاك .. ومنذ منتصف الليل ، اخلت طائرات العدو ، تحوم فوق المدينة وتمطرها بقنابلها وتقصف ، بنوع خاص ، الاماكن التى نوى العدو انزال قواته فيها . وهناك تجمع المدافعون عن بورسعيد وسلاحهم بأيديهم ..

فى الساعة السابعة صباحا ، تبين السكان ازيز طائرات من نوع آخر .

تلك هى حاملات جنود المظلات ..

انها تبدو فى الافق .. تقترب .. تتكاثر .. تتابع سربا بعد سرب وتفسح لها قاذفات القنابل مكانا فى الفضاء بعد أن مهدت لها مكانا على الارض ..

مروحة متحركة من الطائرات فوق المدينة !

انطلقت منها الهابطات كل منها تحمل جنديا كامل العدة للقتال .. وفى لحظات معدودة ، اقتربت المظلات من الارض ، وقابلتها النيران من كل صوب ..

ثلاثة اماكن أختارها الغزاة المعتدون لانزال جنودهم ! بورفؤاد على ضفة القناة الشرقية ، والجبانة ، ومطار الجميل الواقع على بضعة كيلو مترات غرب بور سعيد ، على شاطىء البحر .

هبط فوج من الجنود فابيد قبل أن يصل الى الارض .. وتبعه فوج آخر .. وتدور الطائرات حول المدينة وتبتعد فوق البحر لكى تحل محلها طائرات اخرى ، وتقذف من جوفها جنود المظلات .

والمدافع المضادة للطائرات ، ومدافع الدبابات ، والمدافع الرشاشة، والبنادق السريعة الطلقات ، والبنادق العادية ، والمسدسات ،كلها تقابل الهابطين قبل وصولهم الى الارض ، أو بعد أن يضعوا اقدامهم على اليابسة ، بالقذائف القاتلة الحاصدة ..

ابادهم الجيش والشعب ابادة تامة . ومن لم يمت برصاصة جندى

او بقنبلة مدفع ، سقط بنيران المقاومة الشعبية ، مما جعل بور سعيد تتحول الى جحيم كما وصفها المراسـلون الاجـانب ..

جحيم للمعتدين الغادرين ، ولكنها نعيم للمدافعين عن الوطن ..

الساعة الحادية عشرة ..

والعدو لم يتمكن من بلوغ اى هدف من اهدافه ، ولم تتمكن قواته من احتلال بور فؤاد أو الجبانة أو الجميل ..

وربحت بور سعيد الجولة الاولى !

ودب الغيظ فى صدر القائد البريطانى الذى يشرف على الغزو،فأمر باعادة الغارات الجوية على المدينة الباسـلة .

وعادت القاذفات تمطر بور سعيد بقنابلها !

واعترف العدو بأن طائراته قامت فى يوم واحـد بأربعمائة وثلاث وسبعين غارة !

فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر امتلأ الفضاء من جديد بسحب من الهابطات ، وأفواج من الجنود النازلين من الجو الملتهب ..

وعادت المقاومة ــ مقاومة الجيش والشعب والبوليس ــ الىالدفاع .. وتحولت بور سعيد مرة اخرى الى جحيم ، وتناثرت جثث المعتدين تغطى الارض المصرية ، او تعوم فوق مياه البحيرات ، أو تبتلعها امواج البحـر ..

ست ساعات كاملة ..

نعم دامت المعركة ست ساعات استخدم فيها الشعبالباسل كل سلاح ، حتى العصى وقطع الاخشاب والحجارة ، علاوة على البنـادق والسيوف والخناجر !

الساعة الثامنة والنصف مساء ! ..

تمكن العدو بعد تكبده خسائر فادحة من النزول فى بور فؤادومطار الجميل ، وظلت القوات المدافعة عن المدينةمحتفظة بهاءمسيطرة عليها سيطـرة تامة ..

واستأنف العدو غاراته الجوية بعنف وبدون تفريق بين الاهداف التى يصب عليها قنابله ..

وفيما بعد ، سيدعى الانجليز والفرنسيون انهم لم يطلقوا قنابلهم الا على الاهداف العسكرية ،وهم فى ذلك كاذبون ، والادلة المـادية على

كذبهم كثيرة فى بور سعيد ، وفى غيرها من المدن التى ضربوها بقنابلهم

هبط الظلام وخيم على المدينة الباسلة ، ولكن القوات المدافعة وسكانها البواسل لم يخلدوا الى النوم ولم تفتر لهم عزيمة ..

قالت بورسعيد للغزاة « أيها المجرمون .. لن تمروا ! .. »

وردد المدافعون عن بورسعيد صيحة رئيسهم وقائدهم الاعلى : « سنقاتل !.. سنقاتل !.. سنقاتل ولن نسلم ابدا !.. »

وكان لبورسعيد ذلك الشرف العظيم ، شرف تطبيق هذه الصيحة عمليا فى الميدان قبل اية مدينة اخرى ، وشرف دفع الفدية ، والضريبة ، فدية الارواح وضريبة الدم ، قبل غيرهم من سكان مصر ..

قاتل المدافعون العدو طوال النهار ، وعولوا على أن يقاتلوا فى الليل، وفى كل يوم وليلة ، ليحولوا دون نزوله الى أرض الوطن ..

مشوا الى القتال وهم ينشدون الاناشيد الحماسية ، وقابلوا الموت والهتاف لمصر على افواههم ..

وكان النظام رائعا خلال المعركة ، وقد شهد الاعداء بذلك ..

كانت السيارات تطوف انحاء المدينة وفيها مكبرات الصوت تعلن للسكان اسماء الاماكن التى نزل فيها العدو ، أو التى يحاول أن ينزل فيها، لكى يسرعوا الى لقائه ، وتبلغهم أوامر وارشادات القيادة العامة، فيصغون اليها وينفذونها بكل دقة وكل سرعة ..

واثبتت بورسعيد فى يوم الدفاع الاول انها جديرة بتاريخ مصر المجيد ..

واذاع العدو فى المساء ان المدينة استسلمت، وأن الجيش لايحارب، وان السكان يلزمون بيوتهم ، وان محافظ المدينة وقع وثيقة التسليم !

وكانوا كاذبين !

وسيواصلون فيما بعد الكذب تلو الكذب !

لم يفكر احد فى التسليم .. والجيش حارب وظل يحارب .. والشعب اشترك بحق فى الحرب .. وهذا مماجعل الذعر يدب فى نفوس المعتدين ..

اليوم الثانى

مضى الليل وطلع فجر اليوم التالى ، يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١٩٥٦

فى هذا اليوم ، عمد العدو الى خطة اخرى بعد أن تبين له أن خطته

الاولى ، التي طبقها في اليوم السابق ، لم تسفر عن النتائج التي كان يرجوها ..

قال المسئولون من الانجليز فيمابعدأن القيادةالعامةكانت تعتقد أن الاستيلاء على بورسعيد سيتم بانزال فوج واحد من جنود الهابطات اى فى اقل من ساعة ! ..

وان احتلال منطقة القناة كلها سيتم فى بضع ساعات .. خمس ساعات على الاكثر ..

وان مصر كلها ، اذا عاندت وقاومت ، فستقع فى قبضة الغزاة فى يوم واحد ! ..

وانقضى اليوم الواحد ولم يتمكن الانجليز والفرنسيون من دخول بور سعيد ، هدفهم الاول ..

حينئذ ، لجأ القائد الانجليزى الى الاسطول : الاسطولالبريطانى .. والاسطول الفرنسى !

تقدم الاسطولان من عرض البحر ، واصطفت البوارج فى وضع القتال ، وانطلقت القاذفات من حاملات الطائرات فى البحر ، وانهمر على المدينة الباسلة وابل من القنابل المنطلقة من مدافع البوارج والملقاة من الطائرات ..

وعاد المدافعون الشجعان من قوات الجيش والبوليس والشعب الى ماكانوا عليه من استبسال ! ..

هبط الجنود المعتدون فى الضواحى ، وزحفواالىمنافذبورسعيد تحميهم طائراتهم بقذف قنابلها على المدافعين بدون تمييز بين الاهداف ، وبوارجهم تمطر المدينة بقنابلها الضخمة لمنع النجدة وقتل الروح المعنوية بترويع النساء والاطفال ..

فكانت النتيجة أن انضمت النساء وانضم الاطفال الىالمقاومة الشعبية المستبسلة المستاسدة !

واستمر القتال فى كل شبر من الارض ، من ناحية بور فؤاد ، ومن ناحية مطار الجميل ، وفى المدينةنفسها ، وفى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، قررت المقاومة الشعبية أن تتحصن فى المنازل ، وتحولالصراع الى قتال فى الشوارع والازقة والبيوت نفسها ..

ونفذت هذه الخطة فتحول كل منزل عند مشارف بورسعيد من الشرق والغرب ، الى حصن منيع يقذف الموت من أبوابه ونوافذهوشرفاته وسطوحه ..

لم يبع البورسعيديون كل شبر من ارضهم غاليا ، ويأخذوا ثمنه من دم العدو الغاشم ، بل باعوا كل حجر ، وكل طوبة من شوارعهم وبيوتهم ، بحياة العدو ودمه ..

وفي ذلك اليوم ظهرت الطائرات المصرية في الجو ، وطاردت طائرات العدو ، والقت قنابلها على بوارجه وجموع جنوده ..

وهوت طائرات كثيرة من الاسطول الجوى المغير ، وقد أصابتها القنابل وسقط بعضها برصاص البنادق والرشاشات ..

وتتابعت من جديد حاملات الجنود في الجو ، ونفذت هذه الخطة بانزال عدد كبير منهم ، ولما ازفت الساعة الثامنة مساء ، كان العدو قد تمكن ، بكثرة عدده ، من الاستيلاء على وابور المياه الواقع في جنوب المدينة ..

وعمد الى خطة الجبن والنذالة ، فقطع المياه عن بورسعيد ، لكى يعطش اهلها ويطلبوا التسليم ..

وعمد في وقت واحد الى قطع الطريق بين المدينة والمنطقة الواقعة في جنوبها ، نحو القنطرة والاسماعيلية ، بالدبابات والمشاة ليمنع وصول النجدات الى البورسعيديين المكافحين ..

ولكنهم لم يسلموا ..

عطشوا ولم يسلموا ..

بل واصلوا القتال ..

هاجموا وابور المياه لاسترجاعه من العدو ..

تصيدوا الهابطين من الجو من فوق السطوح ..

واسدل الليل ستاره ، فواصلوا القتال في الظلام ، على لمعان القذائف ، واستمروا في محاربة العدو من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع .. ..

واحتشدت القوات المسلحة في جنوب المدينة لمنع الغزاة من التوغل على ضفة المياه الغربية !

وتبين للانجليز والفرنسيين أن الاستيلاء على بورسعيد واحتلال منطقة القناة واخضاع مصر ، كل ذلك لن يتم بالسهولة والسرعة اللتين كانت الدولتان المعتديتان تتوهمانها ، فقبلت حكومتا لندن وباريس الخضوع لقرار هيئة الامم بوقف اطلاق النار فورا ..

واعلن ان القرار سيطبق ابتداء من منتصف الليل بتوقيت جرينتش، اى الثانية عشرة من صباح يوم الاربعاء بتوقيت القاهرة ..

ماذا حدث لتقبل الحكومتان فى ٧ نوفمبر ما رفضتاه فى ٢ نوفمبر؟

حدث ان المقاومة حطمت اندفاع الهجوم الاول ودلت على ان المغامرة خطرة وصعبة التنفيذ ..

حدث ان تحرك العالم بأسره فوقف فى صف مصر واستنكر جرم المعتـــدين ..

حدث ان خاف مجرما الحرب ، جى موليه رئيس الوزارة الفرنسية وانطونى ايدن رئيس الوزارة البريطانية على نفسيهما ، فوافقا علـى وقف اطـــــــلاق النـــــار ..

اليــــوم الثـــــالث

وطلع الصباح فى اليوم الثالث من ايام الدفاع المجيد : يوم الاربعاء ٧ نوفمبـــــر ١٩٥٦ ..

كان يجب ان يكون ذلك الصباح هادئا بالنسبة الى صباح اليومين السابقين ، ما دام قرار وقف اطلاق النار قد دخل فى حيز التنفيـــذ منذ الثانية بعد منتصف الليل ..

ولكن الواقع كان غير هذا ..

فقد اتضح للمدافعين البواسل ان العدو ، وان كان وقف فى مكانه داخل المدينة والبوارج كفت عن قصف المدينة بمدافعها ، فترة من الزمن، فان التحـــركات الحربيـــة لم تتوقف قـــط ..

نشر بلاغ رسمى مصرى فى صباح يوم الاربعاء ٧ نوفمبر ، جاء فيه:

« بالرغم من قرار وقف اطلاق النار فى الساعة الثانية صـــباحا بتوقيت القاهرة ، فقد طوقت القوات البريطانية والفرنسية مدينـــة بورسعيد ، واستمر عدوان هذه القوات ضد قواتنا والمدنيين فى بورسعيد حتى صدور هذا البلاغ »

ارايت كيف يكون الغدر وكيف تكون خيانة العهـــد ؟..

قالوا انهم اوقفوا اطلاق النـــار ..

ولكنهم واصلوا تحركاتهم العسكرية ليتم لهم تطويق المدينة من كل

صوب ، وهي الخطة التي شرعوا في تنفيذها في اليوم السابق ، وهوالثاني من أيام الدفاع المجيـــــد ..

اخذوا ما اخذوه بالقوة الغاشمة ..

وارادو ان يأخذوا الباقي بالخداع والمكر !

فهل يدعهم البورسعيديون ينفذون هذه الخطة بدون أن يعاودوا المقاومة ، وهل يتكرر معهم ماحدث مرارا مع اليهود على حدود مصر ؟ المصريون هم الذين يحافظون على وعد الشرف ،والعدو هو الذى يخرقه.

***

اعلن وقف اطلاق النار ابتداء من الساعة الثانية من صبـــاح يوم الاربعاء ٧ نوفمبر . فهل ينفذ العدو قرار الهدنة أم يعمد الى الخـداع والمكر مرة أخرى ، ما دام هذا الغزو قائما على المكر والخداع ؟

هذا ماخشيته القيادة المصرية ،ولهذا وجه راديو القاهرة نداء الى اهالي بور سعيد ، قال لهم فيه : « اذا تقدم جنود العدو شبرا واحـدا في بورسعيد بعد الثانية من صباح الاربعاء فاطلقوا عليهم الرصاص فورا »

وقال النداء ايضا أن المانيا غزت فرنسا بأكملها في سنة ١٩٤٠ في اقل من أسبوع . واستسلمت فرنسا لقوات هتلر بدون مقاومة وبلاقيد ولا شرط . أما أنتم فقد ضربتم المثل الاعلى في الدفاع عن شرف الوطن..

وأشاد راديو القاهرة ببطولة البورسعيديين :

« ان مصر لتقف اليوم اجلالا لكم وأنتم مرابطون في مدينتكم . فقد دافعتم دفاع الابطال الخالدين . ولولا دفاعكم المجيد ومقاومتكم الباسلة ما قبلت الدولتان العظيمتان القرارات التي لم توافقا عليهـا في يوم ٢ نوفمبر ووافقت عليها يومئذ مصر ومعها ٦١ دولة من دول العالم !

وكان القول في محله ..

فالقتـال لم يتوقف الا بضع ساعات ، وكان يوم الاربعـاء ايضا يوم حرب ونضـــــال ..

***

كان العدو يأمل أن يقضي على مصر ـ على مصر كلها ـ في ساعات معدودة ، فاذا به يفاجأ بالمقاومة الرائعة في بورسعيد ، فاصيب بصدمة حطمت فيه الروح المعنوية وكسرت شوكة هجومه الغادر !

الانجليز والفرنسيون يحاربون في صف الظلم والعدوان والــكذب

وهذا وحده كفيل بجعل روحهم المعنوية فى انحطاط ، وجاءت الصـدمة فى بورسعيد ، فزادت روحهم المعنوية انحطاطا ..

اراد العدو ان يغطى فشله فى بلوغ اهدافه فى ساعات ، كما كان يظن، فعمد الى التضليل .. عمد الى الاكاذيب ينشرها على العالم بما لديه من وسـائل الاذاعـة ..

ويالهـا من اكاذيب مضحكة ! ..

اصدرت القيادة المثلثة الانجليزية الفرنسية اليهـودية بلاغا حربيا رسميا جاء فيه أن مجموع اصابات القوات الفرنسية فى عمليـة انزال الجنود من الطائرات ، بلغت ..

بلغت .. .. ؟

بلغت ٦ جرحى فقط ! ..

وردا على هذه الكذبة الضخمة ، نشرت مصلحة الاستعلامات المصرية بالقاهرة بيانا فى ٨ نوفمبر ذكرت فيه اقوال مراسل جريدة «ديلى ميل» الذى شاهد بعينه العمليات الحربية وكتب يقول بالحرف الواحد :

« ان قوات المظلات كانت تتسـاقط صرعى فى الجو وفى البحر وفى بحيرة المنزلة ، كما حصدت نيران المقاومة الشعبية فى بورسعيـد ثلاث موجات من قوات المظلات وعددها يزيد على ثلاثمائة شخص »

وقال المراسل نفسه ، ولا يمكن أن يكون كاذبا :

« ان عربات الاسعاف ونقل الجرحى كانت غير قادرة ، على كثرتها، على القيام بعمليات انقاذ الجرحى ونقل القتلى من البريطانيين والفرنسيين!»

فما أبعدنا عن الرقم الذى ذكره البلاغ الرسمى الحربى : ٦ جرحى !

ومضت مصلحة الاستعلامات ، التى وقفت للعدو ولبلاغاته بالمرصاد تفند أكاذيبه ، بالارقام :

أعلن جى موليه رئيس حكومة فرنسا فى مجلس النواب ، واعلنت القيادة المشتركة بين المعتدين ، ان القوات المتحالفة واصلت الزحف جنوب بور سعيد ووصلت الاسماعيلية قبل وقف اطلاق النار ، يعنى فى ليلة ٦ نوفمبـــر ..

وفى ٦ نوفمبر : حضر الصحفيون مؤتمرا صحفيا عقده قائد منطقـة الاسماعيلية ، فى قلب المدينة ! ..

وكان مما اهتم به العدو اهتماما خاصا ، نقل القتلى والجرحى من جنوده الى البوارج الراسية فى الميناء ، ليخفى بذلك خسائره . فاعد

لهذا العمل فرقة اسعاف خاصة تولت تنفيذ خطة الاخفاء ، ونجحت فيها الى حد محدود ، ولكنها لم تنجح بقدر ما كانت القيادة الانجليـــــزية الفرنسية تأمل ، لان الخسائر كانت فادحة ..

اليـــــــوم الرابع

فى ٧ نوفمبر اعلن مجرم الحرب ايدن فى مجلس العموم أن القوات الانجليزية لم تتحرك من اماكنها التى كانت فيها عند وقف اطلاق النار

وفى ٨ نوفمبر ، أى مساء يوم الخميس ، صدر بلاغ انجليزى يقول ان القتال لا يزال دائرا فى انحاء متفرقة من مدينة بورسعيد ، وخاصـــــة بين الجيش الانجليزى والقناصة !

القناصـــــة ! ..

جاء ذكرهم أكثر من مرة فى بلاغات العدو وفى رسائل المراسلين : كانوا يتصيدون الجنود واحدا واحدا ، كما يفعل الصياد بالعصـــــافير ، فيسقط الانجليزى صريعا ، ويسقط فوقه الفرنسى صريعا مثله ..

كل رصاصة صائبة . وكل رصاصة بواحد من المعتدين .. أما ان يقتل .. واما ان يجرح ..

ولو لم يتوقف ضرب النار ، ولو اعتزم الاعداء التوغل فى منطقـة القناة ، لاتيح للقناصة فى مصر ـ وكل مصرى من القناصة ـ أن يتصيدوا البغاة المعتدين فى الجو أو فى البحر على السواء

***

اسمع الان كيف يصف المعركة مراسل انجليزى هبط مع القوات الانجليزية من الجو بالمظلة .. وكتب رسالة بعث بها الى نيقوسيا بقبرص لكى ترسل منها الى جريدته ..

أسمعه يتكلم ويصف المعركة :

« لم يكد جنود المظلات الهابطون من الطائرات يظهرون فى الجو حتى اندلعت النيران وتحولت سماء بورسعيد الى جحيم مستمر ، جحـــيم يختلط فيه ازيز الرصاص وهدير المدافع المضادة للطـــائرات واصوات الرشاشات . وكان جنود المظلات يهبطون بين هذه النيران المستمرة التى كانت تملا الجو صريرا وهديرا مزعجا .. كانت المظلات مختلفة الالوان ، الحمراء والزرقاء ، والخضراء ، والسوداء ، ينزل بها «الشياطين الحمر» فى مطار «الجميل» وقد امتلا بها الفضاء . والرصاص يحوط بهـــا من كل صوب . فالمصريون المدافعون عن المدينة ينتظروننا فى كل مكـــان ، وبعضهم حفر الخنادق وربض فيها متاهبا للقتـــال » .

وقال ايضا : « ان مطار الجميل امتلأ بالجثث ، والنقالات كانت تحمل الجرحى الى مكان العمليات تحت وابل الرصاص الذى يخترق الجدران الخشبية .. كانت الدماء تلطخ الارض فى كل مكان ، ونيران الدبابات المصرية تعرقل تقدم الجنود الهابطين من الجو . وقد شكا قائدهم بأن التقدم بطيء جدا .. وما كنا نظن أن عند المصريين هذا العدد من الدبابات ، وهذه القوة ، واننا سنلاقى مثل هذه المقاومة العنيفة »

واحسن شهادة يمكن ان تتخذ دليلا على بطولة المدافعين عن بورسعيد هى شهادة هذا المراسل الانجليزى ، وهو من الاعداء ..

***

نورد هنا وصف الحالة كما اذاعته مصلحة الاستعلامات فى الساعة التاسعة من مساء يوم الاربعاء ٧ نوفمبر بالقاهرة وهو اليوم الثالث لمقاومة بور سعيد ، وبعد اعلان وقف اطلاق النار بتسع عشرة ساعة .

جاء فى الاذاعة ما ملخصه : : « القتال مستمر فى مدينة بورسعيد . المعتدون قطعوا المياه ولكنهم فشلوا فى احتلال المدينة . انزلت القوات المعتدية دباباتها مساء الثلاثاء . ولكنها لم تتمكن من دخول المدينة حتى حلول الظلام ، فاحتلت مشارف بورسعيد . ضرب الاسطول المدينة . حدثت حرائق فى منطقة المناخ وشارع عباس ، استأنفت قوات العدو خارج المدينة محاولاتها لاحتلال بور سعيد فى الساعة الخامسة صباحا . القتال يدور بينها وبين المقاومة الشعبية . يحاول العدو ان يسيطر على المدينة بجميع الوسائل ، قام الانجليز بفتح جمرك بورسعيد وجاءوا ببعض الاطفال ووزعوا عليهم الحلوى مما اخذوه من الجمرك والتقطوا لهم صورا وارغموا بعض الاهالى بالقوة على اعتلاء احدى الدبابات وصوروهم ! »

هذا هو الموقف فى مساء يوم الاربعاء الذى كان مفروضا ، حسب تصريح أنطونى ايدن ، ان يكون يوما هادئا بعد وقف اطلاق النار ..

العدو يحاول أن يضع العالم أمام الامر الواقع . يريد أن يحتل بورسعيد كلها،ويأخذ من السلطات الرسمية المصرية فيها وثيقة بالتسليم ، لكى يبقى جنوده فيها طوال مدة المفاوضات ومداولات هيئة الامم .. او الى ماشاء الله ! ..

اليوم الخامس

المراسلون الاجانب الذين شاهدوا محاولة الغزو ، وكتبوا عنها ، كثيرون ، يطول بنا الشرح لو اوردنا وصفهم للمعارك ..

لكن شهادة مراسل وكالة المانيا الغربية تستحق لفتـــة خاصة

قال هذا الصحفي المحايد : « شاهدت القوات المصرية فى طريقهـا الى بورسعيد . تسير بنظام تام يدعو الى الاعجاب . وشاهدت الاهالى المدنيين فى القرى التى مررت بها : كلهم مصممون على مقاتلة العدو وقد تسلحوا بالبنادق والخناجر ! »

وذكر المراسل أيضا ماقاله له جنود فرنسيون تحدث معهـــم فى بورسعيد ، من ان المصريين يقاتلون كالشياطين . وشهد الرجل أنالقتال ظل مستمرا فى شوارع المدينة حتى ظهر يوم الاربعاء ٧ نوفمبر ، بالرغم من ان موعد وقف اطلاق النار هو الثانية من صباح ذلك اليوم . .

اليـــــــوم الســـــــادس

فى مساء يوم السبت ١٠ نوفمبر ، اذاع راديو موسكو ان الدوائر الروسية ترحب بقرار وقف العمليات العسكرية ولكنها تخشى ان يكون ذلك مناورة غادرة من فرنسا وانجلترا . ويبرر هذا الحذر انه ، بعـــد صدور الامر بوقف القتال ، ضربت فرنسا وانجلترا بورسعيد بالقنابل ضربا شديدا وانزلت الطائرات قوات اخرى فى المنطقة !

وفى مساء يوم السبت ١٠ نوفمبر أيضا ، حدث ان قامت طائرتان معاديتان بالتحليق فوق الاسماعيلية ، قادمتين من بورسعيد،فأسقطتهما المـــدافع المضـــادة للطائرات .

واطلقت النار ايضا على سيارة مصفحة للعدو حاولت التقـــدم فى جنوب بورسعيد !

نية الغدر باقية ! . . .

ولولا الخوف من الهزيمة المحققة ، لما تردد العدو فى استئنـــاف عدوانه ! . . . .

***

لما بدا العدو الاثيم اتســـاع جرمه وفظاعة عمله وما تركهالعدوان على مصر ، وخصوصا مهاجمة بورسعيد منالبر والجو والبحر ، من أثر سيء فى الرأى العام شرقا وغربا ـ لما ادرك العدو ذلك ، راح يلتمسالمعاذير ويعمد الى الكذب لتغطية جريمته أو تبريرها . .

فقالت القيادة المشتركة لقوات العدوان فى نيقوسيا بقبرص انالمدنيين فى بور سعيد كانوا يحاربون ويقاومون الغزو وقد سقطوا والســـلاح بأيديهـــم .

هذه هى شهادة من العدو بأن المدنيين قتلوا وهم يحاربون . ولم

ينكر احد أن المدنيين فى مصر تسلحوا لمقاومة الغزو . ولكن ما اذاعته قيادة العدو فى نيقوسيا كان يرمى الى التضليل ؛ فقد قالت هذا لتضيف اليه أن البوارج والطائرات لم تطلق ولم تلق قنابلها على بور سعيد ! ..

ان ضرب بورسعيد المكشوفة بالقنابل عمل اجرامى تحرمه قوانين الحرب ، فضلا عن انه لم تقم حالة حرب بين مصر والدولتين المعتديتين

ولهذا اراد الانجليز والفرنسيون ان يكذبوا ويكذبوا ويكذبوا ، فنفوا خبر ضرب بور سعيد بقنابل طائراتهم وبوارجهم ، وانهم لم يصوبوا قذائفهم من أى نوع الى المدنيين فى المدينة الباسلة ..

والمجرم لا يعرف حدا للتهجم على الحقائق !

اعدوا ١٦٠ الف جندى لغزو مصر !

وهاجموها فى منطقة القنال ...

وصبغوا أرضها بدمائهم !

وتركوا فيها سمعتهم وكرامتهم !

وعاشت مصر ..

وعاشت ، بين مدن مصر ، مدينة بورسعيد !

وظلت الارض الطيبة ، كما كانت ، وكما ستظل : مقبرة للفاتحين



قنـــاة الســـويس

ـ من هنا دخل الانجليز فى سنة ١٨٨٢
ـ ومن هنا خرجوا فى سنة ١٩٥٦
ـ ومن هنا حاولوا أن يعودوا مع حلفائهم ففشلوا

فهرس